

أنيس فتود

التاريخ أنيايو أنلاز

دار الشروق

التاريخ أنياج وأخا فدا

القاهرة ٨٠١ شارع سيدي النصر - زاوية المنقوية - مدينة نصر
ص ب : ٢٣ القلوة ولما : تلفون . ٤٠٢٣٩٩ - فاكس . ٤٠٣٧٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف . ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس . ٨١٧٧٦٥ (٠١)

أنليس فنلور

النارخ اثبابه اظافي

دار الشروق

ففي هذا الكتاب

صفحة

هذه الحيوانات آلهة مال عليها الزمان	٥
كالحيوانات يموتون كما يولدون في الظلام	١٥
علمته وتعلمنا هذه الحيوانات	٢٦
وراء جنكيز خان ربع مليون حصان	٣٩
خنازير كولبوس ملأت العالم الجديد	٤٩
كل عصر له خرافات خاصة	٥٦
ذهب كل أرض تدوسها الأغنام	٦٥
أكاديمية لتعليم الإنسان	٧٤
من يعرف الإنسان كثيرا يحترم الحيوان أكثر	٨٥
هو يسقط والرئيس يطير	٩٦
لو نام الأرنب قليلا لأدركته السلحفاة	١٠٥
نظرية التطور رد لاعتبار الحيوان	١١٦
خلقها الله بعناية لتقضى علينا باتقان	١٢٥
هذه الكائنات التافهة التي حطمت الجيوش	١٣٤
لا وفاء عند الناس والكلاب نظرية	١٤٣
عندما أعلن موسولينى حرب الأبقار ضد الأغنام	١٥٢
شجرة واحدة تكفى هزها وأنت تعرف	١٦٣
قرود في كل مكان	١٧٢
من قاوب الأمهات خرجت موسيقى الخنافس	١٩٣
القرود والسلسلة والقرديات	٢٠٤
لولا سلامك .. سبق كلامك	٢١٥

لهذه الحيوانات آلة حال عليها الزمن!

هذا نوع آخر من التاريخ . انه مجموعة
عظم . اى ان الحيوانات التى كانت تعيش من
ملايين السنين قد ماتت فى ظروف لا نعرفها .
وتركت بقاياها . وجاء العلم الحديث فجعل
العظام نحما . ثم درس الفحم وحلله وراح يعد
قراءته ليعرف كم واحدة من هذه الذرات قد
ماتت . . وعن طريق الذرات الباقية يعرف عمر
هذه الحيوانات .

ويمكن ان يقال ان التاريخ : كومة تراب وجدها أحد العلماء فى أحد
الكهوف . ففى الكهوف جاء الانسان القديم وأمسك غصن شجرة
وغمسه فى الدم ثم رسم على الجدران مسورا لهذه الحيوانات . .
وجاءت الأجهزة الحديثة واستخرجت من الدم شهادة ميلاد الانسان
وشهادة دفن هذه الحيوانات .

وجاء الانسان مرة أخرى وجمع التراب والعظم ونظم منها معانى
جديدة لكل ما حدث . . فالتاريخ عمل انشئائى . . أو موضوع
انشاء . . ففيه الكثير من الكذب الجميل .

فالتاريخ هو فكان سمك .. أو حظيرة أبقار .. لأنه تاريخ
الحيوان على هذه الأرض .. ولكن هذا التاريخ لهذه
الحيوانات وبهذا المعنى ظلم لها جميعا . لأن الحيوانات قد
قاومت ملايين السنين . واكتسبت تجارب وتصلبت ضلوعها وأرجلها
وارتفعت أعناقها ونبت لها الريش والزمان وقاومت قسوى
الطبيعة . وقاومت الانسان .. واستطاعت أن تبقى أكثر تنوعا
وأكثر عددا وأطول عمرا .. وسوف تنتهي الحياة الانسانية على
هذه الأرض أو تنتقل الى كواكب أخرى . ولكن الحيوانات هي
التي سترث الأرض وما عليها .

فكل الحيوانات التي تعيش الآن وأضعف من الانسان كانت آلهة .
عندها الانسان وتلمس بركتها . وأقام لها المعابد وأشعل من أجلها
الحروب .

وفي الكهوف والمعابد القديمة آثار باقية تدل على هذا التقديس
العظيم للكلاب والقطط والطيور والثعابين والحيوانات الأخرى .
فكان هذه الحيوانات كانت فوق ، على العين والرأس ، ثم أصبحت
تحت أذنبة الانسان .. كانت آلهة فأصبحت عبدا يسوقها ويذبحها .
أو يحبسها ويتفرج عليها .. ان كل هذه الحيوانات آلهة مال عليها
الزمن !

عندها الانسان .. ثم طاردها . وقتلها . ثم طاردها وصادها .
وحاول أن يستأنسها . وتحقق له ذلك وريها ليذبحها ويأكلها . ثم
استخدم بعض هذه الحيوانات في جر العربات وجر عربات التاريخ
من قارة الى قارة ، ومن مرحلة الى مرحلة .. ففى السنة التى ولد
فيها الرسول عليه السلام هاجمت الفيلة الكعبة . وكان ذلك عاما
حاسما .. وسمى عام الفيل ..

والقائد هانيبال زحف الى اوربا واثار فيها الرعب وانسحبت
امله كل قواتها لانه استخدم القيل لأول مرة ..

والخيول دخلت مصر مع الهكسوس .. وبخول الخيول مصر
تغير وجه التاريخ .. وتغيرت معالم المعابد وجدرانها .

وحيوانات أخرى غيرها اشتركت في ملحمة الحياة والصبر عليها
والصمود من أجل ما هو أفضل لها ولصغارها .

وتاريخ الانسسان والحيوان هو ملحمة العذاب من أجل البقاء .
اتها معارك الصداقة والعداوة . معارك السيادة .. وكان من
الطبيعى أن يسود الانسان بعقله . وقد سجل ذلك كله في أغانيه
وأعماله الفنية وفي أساطيره ..

والبداية قديمة جداً . فالحياة بدأت على هذه الأرض من ثلاثة آلاف
مليون سنة . وكان شكل الحياة بسيطاً بدائياً . عبارة عن خلية
حية . هذه الخلية ظهرت في الماء . والحياة على الأرض كلها خرجت
من الماء . القرآن الكريم يقول : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » .
فقد كانت الأرض ملتهبة أول الأمر . وأخذت تبرد في ملايين السنين .
وتتكون من حولها السحب . ومن هذه السحب التي بها كل عناصر
الحياة : الهيدروجين والاكسجين وثاني أكسيد الكربون ومن
ورائها ومن حولها الأشعة فوق البنفسجية التي تفيض من الشمس
خرجت الحياة . أو كان « الجو » أو « البيئة » أو « الحضنة » التي
لا بد أن تخرج منها الحياة . وخرجت وكان ذلك في الماء .

ومضت ملايين أخرى من السنين عندما انحسر الماء وأصبحت
هناك محيطات وشواطئ من الوحل . والوحل هو الماء والطين معاً .
أو هو « الحل الوسط » بين البر والبحر ومضت ألوف السنين لتتعدد

الحياة ويكون لها شكل . وينتقل هذه الكائنات من البحر الى البر .
وتعيش هنا وهناك . وما تزال في المحيطات كائنات غريبة عجيبة ،
هذه الكائنات هي سلالات مسمرة من مئات ملايين السنين .

ونوجد بعض الآثار في شمال أمريكا وشمال أوربا تشير الى هذا
النوع من الحياة التي ظهرت في البحر وتسللت الى البر ثم عادت
الى البحر ..

وفي الصراع المستمر من أجل البقاء تدرعت بعض الكائنات البحرية
بالعظام والانياب حتى لا تغنى . ونطورت الأشكال العظمية وانيابها
وازدادت مرونة . بل أننا نجد بعض الكائنات البحرية أصبح لها فك
أكثر مرونة . واقدر على ان يمسك وان يعض . وهذه خطوة هائلة
في تطور الكائنات البحرية .. او الأسماك .. ولا تزال بعض
الأسماك محبوسة في أقباصها العظمية . وهذه الأقباص مسجل
تاريخي لما كانت عليه هذه الحيوانات من مئات ملايين السنين .

وفي الوقت الذي ظهرت فيه الأسماك في البحر ، ظهرت الأعشاب
على الشاطئ .. والشجيرات والأشجار الكثيفة .. وانتقلت
الأسماك من البحر الى الشاطئ . وليس هذا الانتقال قصيرا
كهذه العبارة . ولكنه طويل بملايين السنين . وأهم ما حدث : هو
أن هذه الحيوانات استطاعت ان تنفس الهواء مباشرة .. أى هواء
الجو وليس الموجود في الماء !

ومنذ ٣٠٠ مليون سنة حدث ارتفاع في درجة حرارة الأرض .
غذابت المساحات الهائلة من الجليد . وحدث طوفان . غرقت الأرض .
وزحف البحر على الأرض . فكان كل شيء بحرا . وغرقت معظم
الغابات وتراكم بعضها فوق بعض . ومضت الوف السفين . وانحسر
الماء الساخن . أو الماء الذي يغلى . والذي جف . واحترق كل شيء

على الأرض . وتحولت الأشجار المحترقة الى محم . . الى مناجم الفحم التي تستخدمها الحضارة الصناعية وقودا منذ مئتي عام . .

ولم تنعم الحياة على الأرض . . بل كانت هذه الحياة قد اكتسبت تجارب جديدة ، واتخذت لها اشكالا متنوعة . وتعلمت الحشرات أن تطير من الأرض الى الشجر . ومن الشجر الى الشجر . بعض الأسماك كانت تطير أيضا . ولا يزال بعضها يرتفع من الماء الى الشاطئ . أو من البحر الى النهر . أو من النهر الى البحر . . وبعضها له زعانف كالأجنحة تماما . . أو هي أجنحة .

واجتهد العلماء في تفسير ما حدث لهذه الحيوانات ، ذهابا وإيابا من البر الى البحر .

في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وعلى أيام نابليون تصور العلماء أن تطور الحياة يشبه التطورات السياسية . ففي أيام نابليون كانت مروش تقام ومروش تنهار . وحدود يحوها الانسان ، وحدود جديدة يضيفها الانسان . . وتصور العلماء أن الحياة كانت على شكل ما ثم حدث ما غير هذا الشكل بعنف . . ومعنى ذلك أن تطور الحياة ، كالتطورات السياسية ، هزات عنيفة وانتكاسات وثورات . فتاريخ الحياة ينتقل من عنف الى عنف .

وظهرت نظرية تقول ان الزواحف أطول عمرا . لان الزواحف تخرج من الماء الى البر . وتعود الى الماء . وان هذه المرونة واتساع مجال الحركة والحياة قد أعطاها فرصا أكبر للبقاء لأنها تضيق بيضها على الشاطئ بعيدا عن الزواحف أو الأسماك المفترسة .

ويظل البيض على الشاطئ أو في الطين حتى تخرج الصغار من البيضة . وإذا كان البيض يحمى الصغار حتى تخرج ، فبعد خروجها تنتشر هذه الحيوانات الصغيرة الى الحماية مرة أخرى . من مشاكل التماسيح الآن في بحيرات أواسط أمريكا أنها تضع بيضها على الشاطئ وعندما تخرج التماسيح الصغيرة من البيض تعاجلها القردة بقتلها . . أو أن القردة تحطم البيض قبل أن يفقس . . ولذلك فالقردة خطر على هذه التماسيح !

وظهرت حيوانات ضخمة . هذه الحيوانات الضخمة كانت قادرة على أن تقاوم الحيوانات الصغيرة . ولكن هذه الحيوانات قضت على نفسها أيضا . فضخامة حجمها جعلتها أثقل حركة . وجعلتها أقل مرونة . وجعلتها إذا وقعت لا تقوم . وإذا قامت تنحسر بين الأشجار أو بين الجبال . وتظل كذلك حتى تموت . . فالعلم الحديث كشف لنا من عدد من فصائل الديناصور الهائل قد حبسها أحد الوديان حتى ماتت . . مع أن أصغر حيوان يستطيع أن يتسلق الأحجار وأن يصعد الجبل ومنه الى الوادي أو الكهف يستأنف حياته من جديد . فضخامة الأجسام آفة هذه الحيوانات . . فالكبير عاجز عن الشيء الصغير الذي ينقذه من الموت أو من الغناء ! وقد فُتيت هذه الكائنات الكبيرة، لأنها كبيرة . والفيل والنمر خير دليل على ذلك . الفيل أكبر ولقوى . ولكنه أقل حركة . ولذلك كان « مجاله الحيوى » ضيقا . . أى المساحة التى يستطيع أن يتحرك فيها أضيق من المساحة التى يتحرك فيها النمر ، فانقرضت فيلة كثيرة جدا ، وبقيستغور أكثر . . فالقوة ليست العضلات ، ولكنها القدرة على مواجهة المشاكل والأزمات منها ، بالدوران حولها أو عدم التعرض لها ، أو بالقضاء عليها — انظر الى حياتك وتذكر مواقف معينة ثم تسأل كيف هزمتك أو كيف قهرتها ؟ مع فارق واحد : ان لديك عقلا ، وادى

الحيوانات مخالب وانياب . وانها باتيابها وظلالها وظلالها نقشت
تاريخها على انقاضها وانقاضنا . وبقيت وبقينا ولكننا انسحر
والفضل !

ولابد من لغت نظر هنا والان وبسرعة :

حتى لا نتصور ان الحياة اخرجت نفسها من الماء الى الأرض ،
وزحف وطارت وقامت وقاومت من تلقاء نفسها ، يجب الا ننسى أن
هناك « ارادة عاقلة » .. ان هناك « حكمة واعية » أو « عقلا
كونيا » يعنى : الله ..

فنحن لا نقول مثلا ان فندق شيراتون عبارة عن مجموعة من قوالب
الطوب .. أو مجموعة من الألواح الزجاجية أو الخشبية .. مع ان
هذا الفندق مجموعة قوالب واللواح واسلاك . ولكن الفندق ليس
كومة من المواد المختلفة . وانما هو شكل هندسى معمارى . هذا
الشكل هو مجموعة قوانين ونظريات فى العمارة والكهرباء والميكانيكا
والاقتصاد والسياسة ايضا . انه صورة عقلية . صورة حكيمة .
أى أن هناك عقلا أو أكثر من عقل جعل الطوب غربا والألواح نوافذ
والأسلاك كهرباء وتليفونات وطرقات .. ثم هناك قواعد وقوانين
تربط بين الموظفين والزبائن .. والذي يحدث فى فندق حدث فى ألوف
الملايين من الكائنات عندما تحولت من خلايا الى كائنات حية .. الى
كائنات متطورة .. الى زحف عنيف نحو الحياة والبقاء رغم كل
الظروف الطبيعية والانسانية المضادة ..

هناك — إذن — حكمة الحياة .. التى هى ارادة هذا الكون ..

ارادة الله . التى لا نعرف منها الا القليل . لان وسائل المعرفة صغيرة فوسيلتنا هى العقل . والعقل ما يزال عاجزا عن الكثير جدا (ألف مرة جدا) مما فى هذا الكون . . مما فى هذه الأرض . . أو مما فى هذا الجسم الانسانى أو الحيوانى . . أو فى هذه الخلية الحية فى حيوان أو انسان أو نبات ! — انتهى لفت النظر !

والنقوش فى الكهوف تصور الحيوانات على جذرائها . الحيوانات تجرى . بعض هذه الحيوانات تنزف دما . اذن لقد صورها الانسان وهو يطاردها . لانه اقوى منها . وهو يصورها دامية استعراضا لقوته . فالدم اذا نزف يدخل على انه قتلها . وانه لا يخافها . وانما يغريه ذلك بأن يكرر ذلك مرة وألف مرة . ونحن لا نعرف بالضبط ان كان الانسان قد استأنس الحيوانات أولا ، ثم اكلها ، أو انه اكلها قبل ان يستأنسها . على كل حال بعض النقوش تصور لنا هذه الحيوانات هادئة ساكنة ، كأنها رضيت بحكم انسان عليها . وحكمه عليها انه حبسها واذلها أو ذللها حتى اصسبحت ذيلا له . . مثل كلبه تماما . والاتسان كان يستخدم الكلب فى الصيد . ومعنى هذا انه استأنس الكلب ثم اطلقه على الحيوانات . فالكلب هو اول حيوان استأنسه الانسان . وعندما عرف الانسان كيف يستأنس هذه الحيوانات ، عرف ايضا ان يبنى الأسوار لتحمى الحيوانات وراءها . وكانت الأسوار من الأشجار ثم من الاحجار وعرف الحبال التى يمسك بها الحيوانات . . ولابد ان تلف الحبال حول أرجل أو أعناق الحيوانات .

ولا يمكن أن تلف الحبال دون أن يعرف الانسان كيف يصنع من الحبل « مقدة » . وعندما اهتمدى الانسان الى « العقدة » كان قد

اكتشف شيئا عظيما جدا . هذه العقدة كانت رابطة للخيوط والانسجة والحبال . وقد تبدو العقدة عبلا تائها . وهى بالفعل كذلك الآن . ولكن من مئات الالوف من السنين كانت اكتشافا لا يقل من اختزان الكهرباء فى البطاريات الجافة فى السيارات والبطاريات والراديوهات وسفن الفضاء ا

وتدل الآثار التى عثر عليها العلماء فى البرازيل أن الهنود الحمر كانوا يحبسون الخزائير دون أن يعرفوا أنها طعام يمكنهم أن يعيشوا عليه . . كل انسان كان « يقتنى » بعض الحيوانات لا لأنها طعام ، ولكن لأنها جميلة الشكل فقط . أى أن الانسان كان يصيد الغزال والماعز والحصان لان لها شكلا جميلا . ومعنى ذلك أن الانسان كان غنانا محبا للجمال . وهذا الحب للجمال معناه أن لديه ما يأكله ، وأن لديه ما يتفرج عليه . . والانسان لا يستطيع أن يحقق الفائدة المادية واللذة الجمالية الا من طريق القوة . . قوة الصيد وقهرته على حماية ما يصيده . . فاحتفاظه بهذه الحيوانات دليل على اقتداره ودليل على ذوقه .

وفى سنة ١٨٧٩ عثر الأب برويل فى أسبانيا على نقوش فى كهوف . هذه النقوش هى القوة والجمال . فالحيوانات منطلقة بسرعة هائلة . والانسان قد سجل هذه الحركة . فهو اقتناها وراقب حركتها . وتمتع بذلك . ثم انتقل من مجرد الإعجاب الى تسجيل ذلك . وجاءت ابنة هذا العالم ، وبالصدفة ، فدخلت أحد الكهوف وراحت تصرخ بالأسبانية : توروس . . توروس . . أى ثيران . ولم يكن الذى رآته ثيرانا فقط وانما كانت هناك خيول أيضا . ألوانها حية توية جميلة . وكانت هذه الخيول والثيران تعيش على حدود أسبانيا وفرنسا من عشرين الف سنة .

وبعد ١٦ سنة عثر العلماء فى أنحاء متفرقة من الكرة الأرضية على نقوش مماثلة تسجل ما جرى فى العالم فى نفس الوقت .

ولابد أن فكرة « رأس المال » قد ظهرت في هذا الوقت . لان كلمة « رأس » هذه قد جاءت من رؤوس الغزلان والأبقار والخيول . فالذى يملك عددا كبيرا منها هو الأغنى وهو الأقوى وهو القادر على صيدها والاحتفاظ بها وحمايتها وإطعامها والتباهي بها . فهذه الحيوانات ثروة وقوة . ولا يزال رأس المال قوة . ولا تزال بعض القبائل البدائية ترى في كثرة الحيوانات مصدرا للقوة والسلطة . ولا يزال « المهر » هو عددا من الأفنام أو الأبقار . ان قطعها منها هو استعراض واضح بارز متحرك لثروة الأب واهمية العروسين عند الأهل أو القبيلة ..

وبعد ذلك عرف الإنسان أن الحيوانات ليست الا طعاما مدخرا .. طعاما يمشى على أربع .. والحيوان ليس الا حارسا للحمة حتى يجيء الإنسان فيقرر أن يذبحه ليأكله أو يذبحه ليبيع لحمة . أو يبيعه لغيره من الناس ..

والقصة طويلة ومتنوعة ومثيرة ومسلية وفيها الكثير من الاشارات والتلميحات الى الإنسان نفسه كما سنرى .

وإذا كانت الحيوانات يقتل بعضها البعض جوعا ، أى من أجل الطعام والبقاء بعد ذلك : فان الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يقتل الحيوان أو الإنسان الآخر لأسباب أخرى غير الجوع . وقد حاول الإنسان ان يقتنع نفسه بالعدول عن القتل . ولكن هذه المحاولات لم تنجح بعد — مع أن حيوانات كثيرة قد عدلت عن ذلك من وقت طويل !



كالحوانات يموتون كما يولدون في الظلام!

الانسان حاول ان يفسر كل شيء حوله تفسيراً
انسانياً . فهو ينظر الى سلوك الحيوانات كما
ينظر الى سلوكه هو . فالحيوانات تخاف
وتفضب . وتعيش حياة اجتماعية ولكل جماعة
زعيم . وزعيم القطيع هو الذي يقودها يمينا
وشمالا ..

واذا مات رأس القطيع ارتبكت الجماعة حتى
تجد لها رأساً جديداً . والانسان قتل الحيوانات
ليأكلها أو خوفاً منها . ولذلك خاف الانسان من
هذه الحيوانات ان تنتقم من الانسان .

وهذا الخوف من الانتقام هو الذي جعله يكف عن قتلها بالالوف .
فالخوف من الانتقام يمكن ان يكون بداية ظهور فكرة الضمير عند
الانسان . فالضمير يقول له : لا تفعل كذا حتى لا تصاب بكذا .

ولذلك وجدنا الانسان من مئات الالوف من السنين يعلن ان

بعض الحيوانات يجب ألا يمسها بسوء .. أو لا يمسها . فهي شيء ممنوع لمسه . فالبس بمناسبة . ثم أن الانسان اتخذ من بعض الحيوانات رمزا له . أو علامة مقدسة . أو شيئا مقدسا ينلمس عنده البركة والوقاية من الحيوانات الاخرى ومن أموانه من البشر .

وكثيرا ما أصيب الانسان بكل كوارث الدنيا ، ولكنه رغم ذلك لم يكفر بهذه الحيوانات المقدسة . تماما كالجندى الذى يحارب تحت العلم . ورغم ما أصابه من هزيمة فإنه لا يمزق العلم . وانما يظل ممسكا به ايمانا منه بأن العلم هو شره وهو كرامته .. وانه لابد أن ينصر مرة أخرى !

وظهرت عند الانسان فكرة أخرى تقول : انه بعد أن يموت فسوف يتحول الى حيوان .. أو ينتقل من جلده الانسانى الى جلود مئات الحيوانات . ويعتبر انتقاله الى أجسام الحيوانات الاخرى نوعا من الانتقام منه .. فحتى لا يكون حيوانا بعد وفاته ، فمن الأفضل ألا يؤذى الحيوان بقتله أو أكله !

وربما كانت هذه الفكرة هى التى أنت فيها بعد الى أن يقال أن الانسان أصله حيوان .. وانه ينتقل من الحيوانية الى الانسانية ومنها الى الحيوانية مرة أخرى . وهذه هى « الدائرة الحيوانية » التى يتحرك فيها الانسان حيا وميتا .

وعند الفراعنة كانوا يرون أن الانسان يتحول الى حيوان بعد موته . وبعد أن يبقى حيوانا ثلاثة آلاف سنة يعود انسانا مرة أخرى . وبعد فترة قصيرة يعود من الانسانية الى الحيوانية من جديد .. والمصريون القدماء يرون أن كل شيء ثابت الا الانسان ..

فالفيل له مواعيد للفيضانات ، والشمس تشرق وتغرب .. والقمر يصفر ويكبر .. كل ذلك في مواعيد ثابتة .. الا الانسان فان حياته متغيرة متبدلة .. وهذا التبدل اهم مظهره : ان ينتقل الانسان من جسم الانسان الى جسم الحيوان . وهذا الانتقال بالروح . فهذه أولى نظريات تناسخ الأرواح . وهذه النظرية قد انتشرت لأسباب غير واضحة لنا الآن ، في الشرق والغرب . وفي القرن السادس قبل الميلاد . فمثلا عند الفيلسوف اليوناني فيثاغورس ، وعند تلامذته من بعده . وعند الراهب الكبير بوذا في الهند والصين . ولكن بوذا كان حريصا أن يؤكد لتلامذته أن كلامه عن الحيوانات ليس الا رمزا . وانه استخدم الحيوانات في نصائحه لتجسيد أفكاره وجعلها واضحة عند أكل الناس قدرة على الفهم . ولكن تلاميذه أخذوا نصائحه حرفيا ..

يقول بوذا .. ايها الرهبان هناك اناس كالحيوانات . او حيوانات يعيشون على الاعشاب . ايها الرهبان انها الخيول والاغنام والابقار والحمير وكل من يحب الطعام يرى ان الحياة هي الطعام ومن أجل الطعام هو هذه الحيوانات . واذا قدر له ان يعيش بعد الموت لماته سيكون حيوانا مرة أخرى .. ايها الرهبان هناك حيوانات تاكل الزبالة مثل الكلاب والكتاكيت والخنازير . ان الزبالة تنعشها وتهبها الحياة . ولو ماتت لتمنت ان تعود الى الزبالة .. ايها الرهبان ان هناك اناسا هكذا . المهموني . ايها الرهبان : ان هناك حيوانات ولدت في الظلام وسوف تموت في الظلام . النور يوجعها ويضللها ويغزعها . ان هذه الكائنات هي البرافيث والهراسير والخفافيش والبوم .. ان هناك حيوانات ولدت في الماء وماتت فيه كالاسماك والسلاحف والتماسيح .. ان الاشرار ، ايها الرهبان ، هم الذين بعد موتهم يفضلون الحياة الدنيا انهم .. مشدودون اليها . انهم عاجزون عن الانسلاخ عن الجسد عن المادة من الشهوة .. انهم حيوانات » .

ولم يفهم تلامذته مئات السنين أن المقصود ليس الحيوان ، وإنما الحياة الحيوانية ..

وعند الاغريق وجدنا الآلهة يعاقبون الانسان بأن يمسخوه حيوانا . أو أنهم يقومون بتهريب الانسان في صورة حيوان .. ومن السهل جدا أن يتحول الانسان الى حيوان ثم يعود الى انسانيته . والاغريق عبارة في حكاية هذه الخرافات ، وفلسفتها وتعميقها . والشاعر أولمبين في كتابه « التحولات أو مسخ الكائنات » من ترجمة د. ثروت عكاشة يقدم لنا روائع القصص والمغامرات وكثرا من المعاني الرائعة . ولكن الاغريق يرون أن الانسان هو اسمى الكائنات . بل أنهم يرون أن الانسان أعظم من الآلهة وقادر على أن يتغلب عليهم بل أن الآلهة تحقد على الانسان وبعض الآلهة يتمنى أن يكون انسانا ولكنه لا يستطيع .. ولذلك فالله إذا أراد أن يتفوق على الانسان كان من الضروري أن يمسخ نفسه انسانا .. لماذا فعل تغلب عليه الانسان . ولذلك فإن الآلهة تتكاتف معا ضد الانسان القادر على التمرد على كل الآلهة !

والعالم الكبير فريزر يقول : لابد أن الخنزير كان حيوانا مقدسا عند اليهود من الوصف المسنين . فاليهود يحرمون أكل الخنزير ويحرمون أكل الجمل . ويرون أن الجمل مصدر لكثير من الامراض . ولكن السبب الحقيقي أن الخنزير لا يناسب الحياة التي يعيشها البدو في المناطق الحارة . فهو بطيء الحركة . وهو في حاجة الى كثير من الطعام ، وغير قادر على أن يتحمل الجوع مكرهوه ووجدوه عبئا ثقيلا عليهم . وقد اثبت العلم الحديث أن لحم الخنزير هو مصدر متاعب المعدة والأمعاء . وتحريم لحمه صحي أيضا (وفي التوراة نجد وصفات علاجية من طريق لحم الطيور . فقد وصف الانبياء

اليهود لحم الطيور علاجاً للمصابين بكثير من الامراض الجلدية التى
استعصى شفاؤها .

شئ عجيب حقا أن يتقدم الفراعنة فى كل مجالات المعرفة وأن
يسبقوا زمانهم ، وأنهم لا يزالون اسبق شعوب العالم فى الفلك
والتحنيط ، ومع ذلك يقدسون الحيوانات ا

والحيوانات التى يقدسونها كثيرة . وهذا يجعلنا نعتقد أن الفراعنة
كانوا نباتيين . فهم يقدسون الابقار . والعجل آبيس (بالالف الممدودة
والباء الثقيلة) قد مثر عليه العالم الاثرى مارييت فى سقارة . وهذا
العجل موجود بطول وعرض الحضارة المصرية . وتمثيله واضحة
وهو يحمل قرص الشمس بين قرنيه . وكانت تقسام له الحفلات .
وتقام له الجنائز اذا مات . وبعد وفاته مباشرة ينطلق الكهنة بين
قطعان الماشية يبحثون عن معبود له علامة خاصة فى راسه أو عنقه
أو جسده — فإذا وجدوه أقاموا الحفلات وتوجوا المعبود الجديد .
واستراح الناس لأنهم عثروا على رب لهم ، أو حارس لهم يحميهم
من الحيوانات الأخرى . . ولذلك قدموا له طعاما خاصا وحريما من
الأنثا ا

والفراعنة عبدوا الطائر « آبيس » — بالالف المكسورة والباء
الخفيفة — وهذا الطائر شبيه بابو قردان ولكنه ليس هو . ويقال
أنه الطائر أبو منجل . . ويقال أن هذا الطائر قد انقرض ولم يعد احد
يراه الا فى أمالى النيل وفى المتحف المصرى . أنه بنى العنق
والذيل متوسط الحجم .

والتمساح الذى وصفه هيرودوت بأنه يملأ النيل . وان سكان العاصمة المصرية لا يعرفون طعم النوم بسبب بكاء التماسيح . وقد ظل العالم كله يتصور أن التمساح يملأ النيل حتى أن زعيما عالميا كبيرا سأل الرئيس عبد الناصر أن كانت التماسيح ما تزال فى مياه النيل عند القاهرة ؟ !

ولم يكن حيوانا مقدسا عند كل المصريين . فالناس فى « اسوان » كانوا لا يكونون له احتراما كافيا . كانوا يأكلونه . وقد جاء فى إحدى الاغنيات المصرية القديمة أن واحدا يقول ما معناه : أقوم من النوم أقول يارب عدلها ، بلد حبيبي قصاد عيني ومش قادر أعدى لها . . وكان المصرى القديم يقول : بلد حبيبتي أمام عيني ولكن لا أستطيع أن أذهب الى حبيبتي . ان التماسيح فى الماء ولكن حبي جعل التماسيح ضفادع . . ثم جعل الضفادع فقاقيع فى الماء . ولا بد أن أذهب الى حبيبتي » .

وكان المصرى القديم أشجع وأصدق وأكثر استعدادا للتضحية . أما المصرى الجديد فهو قد امتنع صغوية العبور الى حبيبته ليشكو . فهو قادر على أن يذهب الى حبيبته — أن كانت حبيبته — فلا مشاكل فى المواصلات ولا تماسيح فى النيل . .

وفى « كتاب الموتى » الفرمنى أجد كلاما كثيرا عن « القط » الذى يمزق الامامى تحت الاشجار المقدسة . ومن الغريب اننا لا نجد رسوما كثيرة للقط فى المصاطب القديمة . وربما كان أول ذكر للقط قد جاء قبل الميلاد بعشرين قرنا عندما عرفنا أن زوجة أحد رجال بلاط الملك منحوتب الاول اسمها « بوسى » . وإن هذا القط جاء الى

مصر من الغرب ومن الجنوب . وهناك رسومات كاريكاتورية تبين الفنان المصرى وهو يتسلى أو هو يحاول أن يجد الموعظة الاخلاقية . فهناك صور لجثث من الفئران تهاجم قطا محاصرا فى قلعة . وهناك فار عملاق امام قط مربوط بالحبال !

اما الكلب فهو من اخلص الحيوانات للانسان ، ولذلك استحق منه عظيم الاحتقار . وقد جاء خطساب بعث به موظف مصرى قديم يعيش على اطراف الوادى : انه لا يكاد يفتح باب بيته حتى يتقدم له ٢٠٠ قط و ٣٠٠ كلب متوحش و ١٠٠ ذئب . كلها تقف امام بابه ، فلا هو قادر على أن يخرج ولا هو قادر على أن يربى مائنته ولا على أن يأكل .. اما النوم فهذه مشكلة المشاكل :

والحمار افريقى الأصل . وهو لا يزال فى مصر كما كان من آلاف السنين . والحمار كالكلب استحق احتقار الانسان ايضا . وأول مرة رأينا فيها رسما لحمار كان هكذا : حماران احدهما يمشى وراء الآخر وامام الاثنين جحش صغير . وقد رأينا كرسيًا على ظهر الحمار الاول . ولم يشأ الرسام أن يبين لنا ما الذى يحمله الحمار الآخر .. ولكن لابد انه يحمل شيئا مماثلا .

ويقال ان المصريين وصفوا أحد ملوك فارس بأنه : ملك حمار . فما كان من الملك الفارسى ارتكسركس الثالث الا أن اقام احتفالا للعجل أبوس ، ووضع حمارا بدلا من هذا العجل وغضب المصريون وثاروا ! !

ويقال ان المصريين القدماء كانوا يحرقون مدينة الاسكندرية ذات

المطابع الاغريقى والتي تقام فيها تماثيل ادوليس واهروديت ، لان
احد الرومان قد قتل خطأ

اما الحصان فالمصريون قد عرفوه ايام الاسرة الثامنة عشرة .
ويقال ان الحصان قد اتى به الهكسوس — وهم ملوك الرعاة .
ولكن ليست هذه حقيقة مؤكدة . فمن المعروف ان الحصان قد
استخدمه البابليون قبل ذلك بوقت طويل . وعندما دخل الهكسوس
الى مصر ، كان الحصان قد سبقهم اليها . ولا يزال الحصان يحتفظ
بالاسم العربى القديم : سوسيم — اى خيول . والعربات اسمها :
مركبوت .

اما الجمل فلم يدخل مصر الا فى عهد الرومان ..

والمصريون قد عرفوا الخيول التى تجر العربات قبل ان يعرفوا
ركوب الخيول نفسها . وفى متحف اللوفر لوحة مشهورة اسمها
لوحة النصور . وفى هذه اللوحة بعض النصور تحوم حول جثث
القتلى بينما نجد احد ملوك سومر يركب عربة يجرها حصان .
وكان ذلك قبل الميلاد بعشرين قرنا اى على ايام هامورابى ..

والخيول حيوانات مفضلة عند الاغريق . فهم يرون ان الحصان:
حيوان نبيل جميل . وان الحصان لابد ان يكون الالهة قد صنعوه
بايديهم مباشرة . اى انهم لم يكتفوا احدا من صغار الالهة بصنعه ..
وكان الاغريق يفضلون الحصان لان فيه تهردا اى نزوعا الى
الحرية . فهو جميل نبيل حر . وكلما كان الحصان شرسا ، كان ذلك
مجالا وتحديا للانسان ان يستأنسه فاذا فعل فهو بطل . الاسكندر

الأكبر مثلا كان له حصانه المشهور بوسيفالس . ولم يكن أحد يقدر على ركوبه . ولكن الاسكندر استطاع عندها اتجه بحصانه ناحية الشمس . والشمس هي التي جعلت الحصان أقل انطلاقا . ولم يكن هناك شيء أضر عند الاسكندر من هذا الحيوان الجميل . فلما مات حصانه اقام له المدن باسمه . واثام مدينة في نفس المكان الذي دفن فيه رمزا للوفاء . فقد حملة هذا الحصان حتى الهند !

واتخذ الشعراء والفنانون الكثير من الحيوانات مادة لامعمالهم الفنية . فهم يختارون للحيوانات ادوارا في الحياة الاجتماعية والسياسية للانسان . ويجعلون للحيوانات حياة تنفذ حياة الانسان . والمؤلف المسرحي العظيم اريستوفانيس له مسرحيات : الغريبان والضفادع والطيور . . وقد استخدم هذه الحيوانات للسخرية من الانسان . وقد فعل ذلك كثيرون من الادباء في كل العصور .

والكاتب اليوناني سيمونيدس عندما يتحدث عن أصل المرأة يقول ان هناك أربعة انواع من النساء : نوع جميل نبيل انحدر من الخيول . والثاني هو الذي لا يكف عن العمل ، ولا بد انه انحدر من النحل . والنوع الثالث هو الذي يدفن نفسه في الانجاب وهو الذي انحدر من بذور القمح . والنوع الرابع القذر الدنيء ولا بد أن يكون قد انحدر من كلبة — ولا تزال كلمة « كلبة » في اللغة الانجليزية احط انواع الشتائم .

وهناك الفنان اليوناني الشهير ايسوب . كان عبدا واطلق سراحه . وظل يرتقى حتى أصبح سفيرا . وقد روى قصص الحيوانات ونوادرها وهو لا يرفع عينه عن الانسان وسفالتة وانحلاله الخلقي .

ويقال ان ايسوب هذا قد هاجم رجال الدين . ودبر له رجال الدين
مكيدة . فعندما زار معبد الفن اطلع رجال الدين ان يضعوا كوبا
من الذهب في ملابسه . ثم ضبطوه وحوكم . وتقرر اعدامه قذفا من
احدى الصخور ، فمات فريقا ١

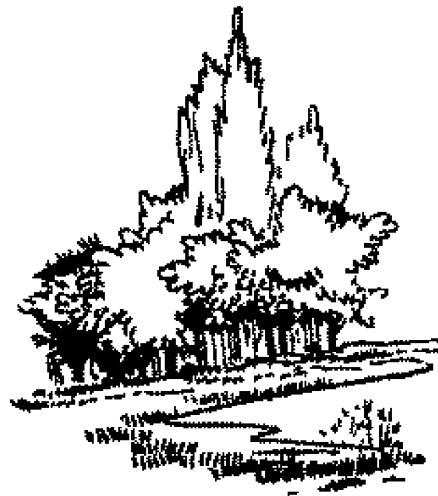
— وظل الانسان الوف السنين ينظر الى الحيوانات على انها كائنات
ناقصة التكوين ترى ولا تعرف كيف تشعر . او اذا عبرت كان ذلك
في صمت . وراح الانسان يفسر سلوك هذه الحيوانات كما يفسر
سلوكه هو . ولكن رجلا عبقريا هذا اسمه ارسطو هو الذى ارسى
قواعد علوم باكملها بعقله الجبار . فهو بدأ ينظر الى الحيوانات
ويلاحظ سلوكها . ويقارن بين بعضها البعض . . فهو الذى ادرك
ان حيوانات لها دم وحيوانات لا دم لها . . حيوانات لها فقرات
وحيوانات بلا فقرات . . حيوانات تلد وحيوانات تبيض . . وهو
اول من اشار الى ان هناك علاقة بين بيض الدجاجة وبين الديك .
وهذا يكفيه جدا ان يقول ذلك منذ ٢٥ قرنا . وقد احصى ارسطو في
كتابه « التاريخ الطبيعى » حوالى ٥٠٠ حيوان .

ويقال ان الاسكندر الاكبر هو الذى كان يبعث اليه بالحيوانات
والنباتات العجيبة من كل مكان يذهب اليه . ولكن هذه الحيوانات
مهما بلغ عددها لم تكن سببا كافيا لان يهتدى ارسطو الى هذه الحقائق
الحيوية . لقد اخطأ ارسطو كثيرا في الاستنتاج . ولكن هذه اخطاء
تعتبر تافهة اذا قورنت باكتشافاته العظيمة في علوم الحياة ووظائف
الاعضاء . لقد اخطأ في عدد الاسنان وعدد الضلوع وعدد الفقرات
. . ولكن اشاراته الى الحياة في بطن الام ، هي الخطوات الاولى
الباهرة في العلم الذى سوف يظهر بعد ذلك باسم « علم الاجنة » .

وعندما سئل أرسطو في إحدى المرات : ما الذى تفعله بالضبط
مع هذه الحيوانات والنباتات ؟

قال : لا شيء . اننى فقط اعلمها كيف تنطق باللغة اليونانية لعلى
افهم شيئا مما تقول . ولكنها مع ذلك لا تقول كثيرا !

سوف تقول اكثر فيما بعد !



علمته وتعلمنا ! هذه الحيوانات !

ثلاث مراحل مرت بها الإنسانية ..

مرحلة : اكلنا الرغيف وتفرقنا !

اي كل ما كان يجمع بيننا هو لقمة العيش .

ومرحلة : اتنى اعرف جانب الرغيف الذى

اضع عليه الزبدة .

فهناك اكثر من الرغيف .. ثم ان للرغيف

جانبين ، وانا لا اكل الزبدة لأننى وجبتها . ولكنى

استطعم الزبدة واختار لها المكان المناسب .

ثم ان عندى متسعاً من الوقت !

ثم مرحلة : كل ما اطلبه من هذه الدنيا هو الرغيف والفرقشة !

اي اكل رغبى وابسط نفسى بالضحك واللعب والحب . وبعد

ذلك لا شيء . ويجب الا يكون هناك اى شيء آخر .

الأديب الرومانى القديم الساخر جوفينال قال : ما الذى يريده هؤلاء .. العمال .. لا شيء الا الرغيف والذهاب الى السيرك !

ولم يكن جوفينال يحترم العمال وانما يحقرهم . فهو يرى ان الذى يعمل بيديه لا رأس له . فقط يأكل ويحب . ولا قيم أخلاقية ولا دينية ولا مثل عليا ولا طموح !

ولكن جوفينال من ١٩ قرنا كان ظالما . هؤلاء العمال كانوا يطلبون الخبز ، لانهم لو طلبوا شيئا آخر ما وجدوه ، لو طلبوا اللحم مثلا ، لمن أين يشترونه لو وجدوه فى الأسواق . فلم تكن الحيوانات متوافرة فى ذلك الوقت . لأن اللحوم ما تزال طعام القادرين . أما الفقراء فليس لهم الا الخبز والضحك على الاغنياء والسخرية من فقرهم — ولا تزال هذه مشكلة مئات الملايين فى العالم .

* * *

وما حدث فى الحرب العالمية الثانية دليل جدا على ذلك . نفى انفساء هذه الحرب ماذا جرى ؟ الجنود وحدهم هم الذين يجدون اللحم . وطبيعى الا يبخل احد عليهم بذلك . فقد ذهبوا يقدمون ارواحهم من أجل الآخرين .. ثم ان عمال مصانع اللخيرة ارتفعت اجورهم واصبحوا قادرين على شراء الرغيف واللحم ومع ذلك فان امريكا نفسها قد وزعت اللحوم بالبطاقات !

فكانت اللحوم نوما من الترف . لأن الارض لا تستطيع ان تطعم كل الحيوانات . والحيوانات لا تستطيع ان تشبع كل الناس . والاغنياء فى الدنيا يملأون موائدهم بلحوم الحيوانات

والطيور والأسماك ، والفقراء يلتقطون فئات الخبز . ومع بداية حرب الطبقات في التاريخ ، اتخذت الحرب شكل الصراع بين الخبز واللحم .

فى المدن الأفريقية القديمة ، كان لابد أن يجد الأغنياء وسيلة للحصول على اللحوم ، فزرعوا المرامى . . أو تركوا الحيوانات تأكل الأعشاب والغلل والأشجار ، ولم نجد فى الأندلس الأفريقية القديم حديثا كثيرا من الحيوانات ولحومها وطعامها وطعامهم .

ولكن عند الرومان نجد هذا التخصص فى الاستمتاع بالطعام ونقرأ نثرا وشعرا عن الخبز والخبزات واللحم .

(ومن المناسب هنا أن أتبه الى أننا الآن نتعلق من ذيل بقرة أو جاموسة أو كلب ونمشى معه أو وراءه فى تاريخ الانسسان فأننا واثق معا نقرأ « بصمات » الحيوانات على مقل وقلب ومعدة ملايين الناس فى الوب السنين انتهى التنبيه الذى أضاعته حتى لا تنسى ولا أنسى أنا أيضا عن أى شىء نتكلم منذ أسبوعين وفى الأسابيع التالية .

وهذا يذكرنى بما قاله داروين عندما وجدوه بجمع الأصداق وجذور النباتات وجماجم الحيوانات قتال : لا شىء سوى أننى أقفز من شجرة الى شجرة وراء قرد فيه شبه كبير جدا بالانسان) . . .

نعود الى صورة غريبة لرجل عظيم مات منذ أكثر من عشرين قرنا . هذا الرجل اسمه « لوكولوس » . هذا الاسم يتردد فى كتب كثيرة فى التاريخ . فى تاريخ المعارك كان قائدا عظيما .

ذهب بقواته الى أرمينيا وهزمها . وسحقها ومات من جيشه خمسة من الضباط وجرح مائة جندي . جيشه كله كان ١٨ ألفا . هذا الرجل عندما اتجه الى روما توقف عند إحدى المدن الأرمينية وبكى ، فقد أحالها جنوده ترابا !

هذا الرجل أيضا كان يحب الكلام ، أو يحب الكلام أثناء الطعام . وهو أول من قال : ان الكلام يساعد على الهضم . وكان سابقا لعصره بعشرين قرنا . للأطباء اليوم يرون أن الجلوس الى المائدة يجب أن يطول قدر استطاعتك فلم تعرف الإنسانية قرحة المعدة الا عندما مرغت السندوتش . أي عندما مرغت الأكل أثناء المشي وأثناء القراءة وأثناء العمل وأثناء الفرجة على المسرح وعلى السينما وعلى التلفزيون . . ولم تعرف الإنسانية أوجاع المصراع الغليظ الا عندما مرغت الموائد الصغيرة في المطاعم اذ يجلس الزبون وحده وقد أدار وجهه الى الحائط . وهو قد أدار وجهه الى الحائط لأنه مشغول بهومته الخاصة . وهو — ككل أبناء المدن الكبرى — حريص على أن يكون مع همومه وحده . . وتتأكد له هذه الوحدة ، والقرحة أيضا !



وهذا الرجل أيضا عندما توفي حاول الناس أن يفتنوه في احتفال ضخم . ولكنه قد سبقهم جميعا وأوصى بأن يموت على مزاجه . فطلب الى أقاربه أن يملأوا قبره بالفتح وأن يتغطى به وبالورود !

وبعد وفاته جاء الصيادون وجمعوا من البحيرات التي أنشأها حول قصره ٢٥ ألف كيلو سمكا !

واذا جاء ذكر الفلاسفة فلم يكن هذا الرجل مفكرا عظيما .
وانما كان عاشقا لكل صاحب فكر عظيم . وكان اذا اراد ان
يتحدث مع احد طلب اليه ان يزوره في بيته . فاذا جاء الى البيت
راح الاثنان يأكلان ويشربان ومن المؤكد انه قد شهد ميلاد الكثير
من القضايا الفلسفية والاجتماعية والسياسية . وكان يضحك
دائما ويقول : مساكين هؤلاء الفلاسفة . انهم لا يجدون ما يأكلون
واذا وجدوه لا يستطعمونه . انهم اناس لديهم مشاكل في احشائهم
— ولم يكن في هذا مبالغة . بل كان سابقا لعصره بمئات السنين !

لأسباب أخرى يهمننا هذا الرجل لوكولوس . فهو أول من ابتدع
« البيسين » . . أى حفر الأرض وملأها بالماء . ثم القى في الماء
الأسماك . وكلمة « بيسين » معناها في اللاتينية حوض السمك .
وهو كان حريصا على ذلك لأنه يريد أن يأكل السمك طازجا .
وكان يأتي بالأسماك من أماكن مختلفة من العالم . وهو أيضا
أول من ابتدع « الكباريه » . . فهو قد صنع كهوفا تحت الأرض . .
وأضاءها . . وجعل الراقصات والمغنيات يغرفشن الضيوف . .
ثم أول من جعل الحيوانات تمر بين الصفوف ليتفرجوا عليها .
وكان يأتي بالحيوانات والطيور النادرة من أفريقيا . وكانت
الكهوف ملونة . وكانت عليها نقوش للآلهة وأساطير الاغريق
وأساطير الشعوب القديمة .

وهو أول من أتى بثمره الكريز من البحر الأسود . وقسّمه
لضيوفه .

وهو أيضا أول من أتى بالحيوانات المفترسة وأطلقها في غابة
لها أسوار . فكان أول من أقام حديقة حيوانات في أوروبا . وهذه

الفكرة مأخوذة عن الشرق ، فقد كان من عادة الملوك في الشرق ان يحتفظوا في حدائقهم الخاصة بالحيوانات النادرة . وعندما جاء الاسكندر الأكبر الى الشرق كان يضع الى جوار خيمة القيادة أسدا أسيرا — رمزا لقوته هو ، وأنه سوف يفعل نفس الشيء مع أعدائه !

وكل هذه العناية بالحيوانات والطيور والأسماك كان من أجل متعة الأغنياء والحكام . ولذلك كان الناس — ولا يزالون الى حد ما — يحتقرون صناعة الجزار . لأنها قتل للحيوان بينما الأغنياء يفضلون ان يبقى الحيوان حيا . نهم ليسوا في حاجة اليه . أو ان لديهم ما يكفيهم . ولذلك يجب أن يتفرجوا ويستمتعوا . فاكل اللحوم ليس مشكلة . وإنما هم انتقلوا من مشكلة الطعام الى الاستمتاع به والتفرج على الذي زاد على حاجتهم !

ومن الغريب أن الرومان كانوا يشربون البسان الحيوانات . ويصنعون منها الجبنة .. ولكنهم يحتقرون من يأكل الزبدة .. ولكن هذا المعنى تغير عندما اهتمت إحدى الغانيات الى أن الزبدة اذا وضعت على الوجه أو على البشرة لثانها تجعلها ناعمة ليونة . فارتفع ثمن الزبدة ، وأصبحت الزبدة هي صناعة كل البيوت ، ومطلب كل النساء .. ووجدنا في الأدب اللاتيني مثل هذه العبارات : انها زبدة .. انها تذيبك كما لو كنت زبدة .. ان بشرتها لم تعرف الزبدة . انها هكذا خلقها الله !

وعرف الرومان أيضا « حظائر » الأبقار . فكانوا يحبسون الثور مع سبعين بقرة . ويشترطون أن يكون الثور ابن سنة أو ابن سنتين على الأكثر . أما الثيران التي تزيد أعمارها عن ذلك

فإنهم « يعقمونها » ويطعمونها لتزداد سمرة فيتكدس لحمها على
موائد الأغنياء والقواد ..

يقول لوكولوس وهو يهذى على فراش الموت : يا خسارة لم
تشأ الآلهة أن تجعل لى معدتين . لعلها أرادت الرفق بالفقراء
وبالحيوانات وبالطيور وبالأسماك وبمعشوقاتي .. لو كانت
الآلهة تجيب لى طلبا أخيرا لماعرف منها ما الذى سوف يأكله الناس
فى بيتى وهم سيكون حزنا على فقد صديق ظريف كريم .. ثم ينسون
هذا كله وهم يشربون النبيذ ويتفرجون على الراقصات .. أننى
أعرف أن المائدة سوف ينقصها المرح وسوف ينقصها ذلك الرجل
الضخم الذى كان زينة المجالس .. والذى ذاق كل شئ فى دنياه ..
وحصل على كل ما يريد .. وحقق كل غاياته من الدنيا .. ولكن
الآلهة بخلت عليه أن تكون له معدة أخرى .. أدفنونى .. ضعوا
سكر القصب فى نعى .. بل لا أريد قصب السكر وإنما أريد عسل
النحل فأننا لست مريضا . وإنما ميت من شدة الشبع واللذة ..
انتهيت !

وكان من عادة الرومان أن يعالجوا مرضاهم بقصب السكر
الذى جاءهم من الهند . أما عسل النحل فهو المصدر الوحيد
للسكر عندهم .. أو للحلاوة . وكان هذا طعام الشعب . وتسد
عرف الفرائنة فوائد العسل قبل أن تعرفه كل شعوب العالم .
فالفرائنة كانوا يضعون العسل على الدمايل وعلى الجروح .
وكانوا يضعونه فى العين . وكانوا يضعونه على البشرة لجعلها
ناعمة . وكانوا يحنطون به الموتى ، ولم يكن الفرائنة يعسرغون
ما الذى سوف يكشفه العلم الحديث بعد ذلك من أن العسل قاتل
لاى ميكروب . ولكن الفرائنة اهتموا الى ذلك من التجسرية .

وربما كان شمشون الجبار أول من لاحظ أن أسدا ميتا متعفنا ومع ذلك جاء النحل وأقام خلية في هذا الجسد الكريه الرائحة . ومن هنا كانت الفزورة النى دوخ بها شمشون أبناء غزة عندهما قال : ما هو الحى فى الميت . وما هو الحلو فى المر ؟ ولم يعرف احد كيف يجيب على ذلك . ولكن دليسة راحت الى شمشون وأغرقتنه بالقبلات والأحضان . وعرفت نفسير هذا اللغز بعد أن قصت شعره ، الذى هو مصدر قوته ، قال لها : الحى فى الميت ، هو النحل فى جثمان الأسد الميت .. والحلو المر هو العسل فى جسمه المنعفن !

ومضت مئات السنين لنعرف أن عفونة جسم الأسد لا تنتقل الى طعم العسل . فالعسل قاتل لكل ميكروب !

وفى أمريكا نجد أن شركات كبرى تنقل النحل بالملايين من حديقة الى حديقة . ليقوم النحل بنلقيح الزهور . ثم تجمعه وتعيده الى مكانه .. وقد عرف الفراعنة ذلك من الوف السنين . فقد كان الفراعنة يأتون بملايين النحل فى احدى السفن . ويقفون عند المدن ويركون النحل ينطلق الى الحقول والحدائق ، يجمع رحيق الزهور ويلقحها .. ثم ينقلونه فى النيل الى أماكن أخرى وهكذا !

* * *

وعرف الاغريق والرومان والفراعنة ضرورة ذبح الحيوانات تقريبا للالهة . ولكن الرومان ذهبوا الى أبعد من ذلك . فسكانوا لا يكتشون بتقديم الذبيح ، وإنما يجيء الرجل العراف ويفتح بطن

الحيوان وينظر الى الامعاء . تم ينظر الى الكبد . ومن شكل
الامعاء يعرف مستقبل صاحب الذبيحة . ومن حجم الكبد ولونها
وشكلها يعرف كم يكون عمر صاحب هذا القران . وكانت قراءة
الامعاء والكبد ، نوعا من قراءة الكف . ومن الغريب ان الرومان
تلقوا في ذلك . بل ان احد المعانيين قال ليوليوس قيصر : اليوم
اسوا يوم في حياتك . اجلس في بيتك سوف تجيء الانباء تحت
قدميك . . فلا ترفع سيفك على احد . . ولكن غدا سوف تسمع
اسعد نبا في حياتك ان شكل كبد الخنزير يؤكد ذلك . ولو كنت
نبحت الخنزير قبل هذا الثور لجات اخبارك السعيدة اولا .
وفي نفس اليوم تأمر بعض الرومان على امر صديق ليوليوس قيصر
بقتلوه وهو مخمور . وفي اليوم التالي انجبت احدى عشيقاته طفلا
ذكرا . وكان هو يتمنى ذلك !

ولا يزال بعض المعانيين في افريقيا يعرفون الطالع من مجرد
النظر الى ريش الطيور وقد تراكم على الارض . . او عظام الطيور
وقد اقيمت على الارض فجاء ثعلب او ثوب وقلب فيها بأرجله ولم
ينقها . . ولا يزال العرافون في هونج كونج يعرفون مستقبلك من
قطعة اللحم النيئة الدامية اذا أنت قلبتها في طبق ثم هزرت الطبق .
وتركتها . من مجرد النظر الى وضعها في الطبق وشكل الدم حولها
يستطيع العراف ان يحبك عن مستقبلك !

واحدى الرومان الى ضرورة ان يشغلوا الشعب بشيء . وكان
الشعب مشغولا بالخيول . وسباق الخيول وسباق العربات .
واقام الرومان « مسارج » لسباق العربات . . واشهرها ملعب

كولسيوم في روما الذى يتسع لتسعين ألف متفرج . وكانت العربات تجرها الخيول ويتفرج عليها الناس ويتعصبون لحصان معين . . أو لأسره معينة . . أو لسائق أو لصاحب خيول . وكانت تربية الخيول هواية وتجارة الاغنياء . وقد اقيمت للخيول اصطبلات واسعة وفخمة . واتى الاغنياء بهربين للخيول من آسيا .

وكان من المألوف أن يرتدى سائق العربّة زيا أحمر أو أخضر أو أزرق . . وينقسم الناس الى مشجعى الأحمر أو الأخضر أو الأزرق واختفى اللون الأخضر . وأصبح الناس فريقين مقامرين ويتقاتلون . وتحول الاختلافات على الخيول الى اختلاف فى السياسة وفى الدين . وكانت هذه الخلافات حادة وأستهلكتهم وأبعدتهم عن السياسة . واستراح الابطرة الرومان الى أن هذه المسابقات قد استغرقت الناس فمشجعوهم على ذلك .

ولكن حدث أن قامت مظاهرات عنيفة فى القسطنطينية بين مشجعى « الفائلة الحمراء » — النطق الصحيح « فالنة » لأنها كلمة انجليزية وفرنسية وإيطالية وألمانية — ومشجعى « الفائلة الزرقاء » . وقرر الامبراطور جوستنيان فى يناير سنة ٥٣٢ أن يعصف بهذا العبث الرياضى السياسى . وجمع فريقا من الطرفين . وهددهم . ولكن الجماهير تظاهرت والتفت حول قصر الامبراطور . وكاد يهرب من المدينة لولا أن زوجته الماكرة ثيودورا طلبت اليه أن يقول للجماهير شيئا . فقال اننى لا أعترض على الفريقين ولكننى أحب الفريق الأخضر الذى ليس له مشجعون !

وفرحت الجماهير بأنها أغلبية والأمبراطور اقلية .. وبأن
الامبراطور أيضا يحب مسابقة الخيول !

ولكن ثيودورا ابنة رجل مشغول أيضا بتربية الخيول ومجنون
بمشاهدتها .. ولكن جوستينيان أنزل قواته وقتل ثلاثين ألفا من
مشجعي هذه الرياضة في يوم واحد !

ولم يكف الإنسان الذي يريد أن يمزح اللذة بالألم ، والمتعة
بالقسوة من الفرجة على الخيول ، وإنما أتى بالحيوانات المتوحشة
من أفريقيا وأطلقها بعضها على بعض . والناس يصرخون من
الفرح ومن اللذة . أطلق الأسود على النهور . وأطلق الذئاب على
الكلاب . ثم أطلق كل هذه الحيوانات على المجرمين وعلى
المعارضين السياسيين . والناس يصرخون في متعة ، أو يستمتعون
في صراخ . ويطلبون المزيد ..

وأول مصارعة بين الإنسان والحيوان شاهدها روما كانت
في سنة ١٨٦ قبل الميلاد . وكان ذلك بعد غزو الرومان لسوريا .
ولكن هذه الرياضة الدموية قد أتى بها الرومان من العراق . فقد
كانت منتشرة قبل ذلك بمئات السنين .

والى جانب هذه اللذات العنيفة : ذبح الإنسان للحيوان ، وذبح
الحيوان للإنسان ، عاد الرومان الى رياضات هادئة . عادوا الى

عربات الخيول ولكنهم علقوا فيها الجمال . الامبراطور نيرون اول من فعل ذلك . ثم عادوا الى الغزلان وعلقوها في العربات . والنمور والاسود .. ثم الفيلة .

والاسكندر الاكبر قد شاهد الفيلة في معاركه . وخصوصا في الهند . ولاحظ الاسكندر ان الفيلة تشكلها مخيف . ولكنها تعوق الحركة . ولذلك امر جنوده بان يحتموا في الفيلة ويطلقوا سهامهم ونبالهم على العدو . ثم اهتدى الاسكندر الى حيلة وذلك بان يجعل الفيلة في مواجهة العدو ثم يكويها فتفلق هاتجة تمزق خطوط عدوه وتأخذ معها فيلأ أعدائه أيضا . وعمل عن استخدام الفيلة في المعارك . واكتفى بان جعلها تنقل الخيام . وكان له فيل مشهور أطلق عليه اسم « اجاكس » . ويقال ان هذا الفيل كان يرفع الاسكندر من الأرض ليحيى جنوده ولم يكن يفعل ذلك لأحد سواه ا

والقائد هانيبال عندما أُرهب أوروبا بقواته كان يدفع أمامه خمسين فيلا .. ولم يصل منها الى نهر الرون في فرنسا سوى ثلاثين فيلا ولما عبر بها جبال الالب لم يبق منها سوى ثمانية .. وعندما هبط جبال الالب . لم يبق سوى فيل واحد .. ولكن الرومان كانوا قد استعدوا له أيضا بمسد من الفيلة .. ثم عسدل الجميع عن استخدام الفيلة ونقلوها الى السرك للفرجة عليها ..



نعود لآخر مرة الى القائد الاكول لوكولوس . فقد سئل في احدى ولائمه وهو يتقلب عينيه ويديه بين الطعام والشراب والثمار ويقول : نحن حقيقة اولاد حيوانات .. فالحيوانات تاكل النباتات

ونحن نأكل الحيوانات .. ثم نحن نموت فى الأرض وعلىنسا تنمو
النباتات .. وسوف يجرى يوم نأكلنا الحيوانات حتى نفنى ، فتعيش
الحيوانات على النبات حتى نفنى فياكل بعضها البعض ولا يبقى أحد
فى هذه الدنيا .. لماذا ؟ لأن هناك معدة تأكل معدة أخرى ..
والأرض هذه هى أكبر معدة عرفناها !

وكان هذا الرجل الذى اشتهر بقله صاحب أكبر معدة فى
التاريخ ، سابقا لعصره ولكل الأطباء وعلماء الحيوان والنباتات
والفلك ، لأنه لم يرفع عينه ولا يده عن هذه الحيوانات ؟ !



وراء جنتك زخانة يجمع مليون عصابة !

لو جاء هؤلاء الوحوش سيرا على الاقدام
لاستراحت منهم اوروبا مئات السنين — عبارة
قالها مؤرخ افريقى وهو يصف هجرة القبائل
البدائية الاسيوية فى القرن الرابع الميلادى .
هذه القبائل قد تركت بلادها متجهة الى اوروبا
غربا ، ومتجهة الى الجنوب . وليس معروفا
بوضوح لماذا هاجرت هذه القبائل . ولكن
المعروف انها قد ركبت الخيول فكانت حركاتها
اسرع واخطر .

وقد وصف المؤرخ الافريقى هؤلاء الاسيويين بأن اشكالهم دسيمة .
وشعورهم منكوشة . وانهم لا ياكلون الا اللحم النيء وانهم
لا يغسلون ايديهم او وجوههم . ويرون فى منظر الدم دليلا على
النعمة وعلى الثراء . ويعيب عليهم انهم يحبون الذهب وانهم من
اجل الذهب يبيعون الابن والزوجة والحصان ، وربما كان هذا
التقديس للذهب هو الشيء الوحيد الذى يربطهم ببقية الانسانية ! . .

وهى صورة كاريكاتورية . والحقيقة ان هذه القبائل الاسيويه راكبة الخيول ، عندها قدرات هائلة على القتال وعندها شجاعة . وعندها ترنمها الغنى والادبى وطقوسها الدينية .. وهؤلاء « الوحوش » أكثر حضارة من « البرابرة » الاوربيين فى ذلك الوقت .

وبسبب هذه الخيول التى لديهم أقاموا امبراطوريتهم بسرعة وجعلوها واسعة اما هذه الخيول التى ركبوها واقاموا عليها قوتهم وعروشهم فهى متوسطة الحجم . صغيرة الرأس طويلة الشعر ، وظهورها سريعة الانحدار . وسيقانها قصيرة . ولا تحتاج هذه الخيول الى ماء كثير اذا سارت فى الصحراء . وهؤلاء « الوحوش » الاسيويون ككل الرماة يعيشون على اللبن والنباتات والثمار ولا يأكلون اللحم . فاللحم هو الخيول . والخيول قوتهم فى القتال والهرب .

وفى ذلك الوقت سقطت الامبراطورية الرومانية القوية . لماذا ؟ يقال ان الخيول رُمست هذه الامبراطورية فسقطت . وهذه عبارة مبالغ فيها الى حد كبير . فسقوط الامبراطورية كان لاسباب كثيرة . ولكن هذه الخيول الزاحفة بمئات الالوف قد عجلت بانتهاء الامبراطورية الرومانية . لان هذه « القوات المحمولة » على اربع والقادمة من قلب آسيا هى التى هدمت الامبراطورية الرومانية . ولم يكن الرومان فى ذلك الوقت قادرين على مواجهة الزحف الاسيوى كما ان الرومان كانوا يجهلون او يتجاهلون قدرة الخيول ، والفرسان والفروسية . فالجيش الرومانى به فارس واحد لكل عشرين جنديا .. او به حصان واحد ابيض يركبه القائد العام ! ولذلك فالجيوش الرومانية ابطا فى الحركة وفى الهجوم وفى الانسحاب .

وقد وجدنا فى التاريخ ان الفرسان الجرمان يطلقون على انفسهم كلمة « رينر » ومعناها : راكب .. فراكب الحصان هو الفارس . وكان الرومان يسمون راكب الحصان « اكوبس » — وهى كلمة

لاتينية معناها راكب . ولكن ليس كل من ركب الحصان فارسا .
ولذلك كان الاسيويون « فرسانا » وكان الاوربيون « ركابا » فقط !

وفي أوربا في ذلك الوقت كانوا يطلقون اسم الفارس على كل من
يركب الحصان او يملكه . ولم يكن يملك الخيول الا الاغنياء او
النبلاء . وكان الرجل الحر هو الذى يركب الحصان . فهو يستمد
حربته من قدرة حصانه على الحركة والجري والهرب . . ومن
التعبيرات الشائعة في ذلك الوقت : اركب حصانك . . اليس لك
حصان ؟ لو كان عندي حصان ما رضيت بهذه الحياة دقيقة واحدة !
ركب فلان اسرع خيوله وهرب . .

وجاءت القوات الاسيوية الراكبة واستقطت الامبراطورية
الرومانية الواقعة او الماشية او الجالسة !

وظل الحصان مصدر القوة العسكرية في أوربا ألف عام بعد ذلك .
وكان سلاح الفرسان هو السلاح الافضل . وكان سلاح ابنساء
الذوات والنبلاء . فالجندى يرتدى بدلته المدرعة ويركب حصانه . .
والبدلة غالية والحصان اغلى والمسوت بعيد من هذا الفارس .
ولا يستطيع احد ان يحمى نفسه هكذا الا اذا كان غنيا . فالمشاة
فقراء والفرسان اغنياء !

ولم تكن الخيول الاوربية الا حيوانات فليظسة ضخمة .
خطواتها ثقيلة . واشكالها دميمة . . ولكن أوربا عرفت بعد ذلك
ان تستورد هذه الكائنات الجميلة النبيلة من شمال افريقيا ومن
شبه الجزيرة العربية . ومن منطقة نجد . وظهرت الخيول
العربية بأجسامها الممدودة الانسيابية ورشاققتها وروعتهما . .
ولم يعرف الاوربيون هذه الكائنات الرائعة الا بعد ان اتصلوا
بالعرب . . وقرأوا عن عهق العرب لهذه الخيول . . بل ان أمير

الشعراء الانجليز روبرت جريفز يؤمن بأن الادب العربى لم يعرف معنى « الفروسية » الا من العرب . فالعرب هم اول من اهتموا الى أن الفارس ليس من يركب الحصان . وانما هو الذى له شجاعة الحصان ونبله وكرمه واحترامه للعواطف الانسانية . والفارس هو الرجل الشهم . او العاشق الذى يضحي بحياته من أجل محبوبته . وهو الذى يرى أن الحياة هي الحب . والحب هو الحياة . والحياة هي أن يموت الفارس من أجل المحبوبة . يكفى أن تراه يتعذب منسقط على جثمانه دمة واحدة . بل أن دمة واحدة كثيرة . لأنه يرضى بأقل من ذلك .

ويقول روبرت جريفز ايضا : أن أوروبا لم تعرف معنى الحب العذرى أو الحب العفيف أو الحب « الأفلاطونى » الا من العرب . فعند العرب قبيلة اسمها قبيلة « بنى عذرة » . هذه القبيلة قد نذرت نفسها للحب الشريف . وهذه هي الفروسية .

ويقول روبرت جريفز ايضا : ان الشعراء المتجولين « الطروبادور » أى شعراء الطرب — لم يتعلموا فن الصلابة النبيلة الا من الادب العربى . فالشاعر العربى لا يكتفى بأن يتعذب من أجل المحبوبة ، وانما يروح ينقل عذابه للآخرين . فيتجول من مكان الى مكان ويروى للناس كيف انه لم ير الا ثوب محبوبته . . طرف ثوبها . . وهو لا يفضحها وانما هو ينفى بها ويقيم لها حفلات التكريم . . فهو محطة اذاعية . . هو فيلم . . هو اسطوانة تدور فى كل مكان . هؤلاء الشعراء كانوا فرسانا ، يركبون الخيول . . وفيهم اخلاق الخيول : شموخ وجمال وصمود واستعداد للتضحية !

وفى التاريخ الاسلامى نجد الرسول عليه السلام كان يركب الناقة وكان يركب الحصان . وكان — ككل العرب — يدعو الى

حب الخيل والى اقتنسائها . وهو الذى قال : « الخيل معقود بنواصيها الخير الى يوم القيامة » . وكان بدعو ابناء المسلمين الى ركوب الخيل .. وعندما أسرى الله به من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى تقول كتب السيرة انه ركب « البراق » وهو حيوان متوسط فى حجمه بين الحصان والحصار .. وفى المكان الذى وقف فيه البراق أقام مهر مسجده فى القدس . ويقول اليهود ان هذا المسجد أقيم فوق حطام معبد سليمان ..

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة وردت فيها كلمة « الخيل » . وهى تُرد بمناسبة الاستعداد للقتال وضرورة محاربة العدو . والقرآن الكريم يقول : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم . » وفى القرآن الكريم سور تحمل اسماء الحيوانات والحشرات والخيول : البقرة والنحل والنمل والانعام . أما سورة « العاديات » فالمقصود بها « الخيل » والسورة نقول : « والعاديات ضبحا . فالموريات قدحا . فالمغيرات صبحا . فائرن به نكعا فوسطن به جمعا . » وهذه الآيات تصف الخيل فى حركتها واثارتها للتراب وسط القوات المعادية . والله فى هذه المسورة يقسم بهذه المخلوقات الجميلة . وفى ذلك اقصى درجات التكريم ..

والعربى يستمد نبلة وقوته من هذا الحيوان المتسق القوام . ويستمد أيضا كبريائه . وقد وصف العرب حاتم الطائى بأنه أكرم العرب لانه ذبح حصانه لاحد ضيوفه !

ومر بن الخطاب عندما دخل القدس لم يشأ ان يركب حصانا وانما ركب ناقة وعلى هذه الناقة وضع طعامه من الماء والتمر والتبجح . ودخل القدس حانى الرأس . ولم يركب حصانا بتبختر به كما يفعل الفرسان أو كما يفعل الغزاة المنتصرون !

والتاريخ يسجل للعرب انتصاراتهم الهائلة شرقا وغربا بقوات صغيرة وخيول محدودة . وقد حاول الفرس أن يصدوا العرب مستخدمين الخيول . ولكنهم فشلوا . فقد كانت عندهم الخيول، ولم تكن لديهم الفروسية — أى روح الشجاعة والاستعداد للموت فى سبيل الله ! ودخل العرب اسبانيا بجيش متواضع : ٣٠٠ فارس عربى وثلاثة آلاف من قوات البربر !

وبعد ذلك بخمسة قرون جاء جيش من الشرق محمولا على الخيول ومزق أوروبا كلها ، وداس مقدساتها وفتح عيون العرب على أن هناك حضارة أخرى .. أو شعوبا أخرى تستطيع أن تفعل ما عجزت منه الحضارة الأوروبية المريضة المتداعية . كان ذلك جيش جنكيز خان .

وقد وصف الرحالة الايطالى ماركو بولو جيش جنكيز خان (١١٦٢ — ١٢٢٧) بأنه كان يتحرك فوق ربع مليون حصان !

وأصبح من المألوف فى أوروبا فى ذلك الوقت أن الرجل النبيل هو الذى يملك قطعة من الأرض وحصانا . أو يملك حصانا دون أن يملك أرضا أو يملك الحصان والبذلة المدرعة دون أن يكون جنديا فى أى جيش . وإنما يكفى أن يكون هذا « هاليا » فوق حصان ، و « منيعا » وراء بذلة من حديد .. وهو بكل مقاييس العصر يعتبر رجلا محظوظا !

وعرفت أوروبا تربية الخيول . واستخراج السلالات الجيدة منها . لأن الخيول التى هاجرت الى أوروبا من الشمال فى العصور الجليدية كانت صغيرة هزيلة . أو تبيحة التكوين . وقد أحس الاوربيون بذلك أثناء الحروب الصليبية . لم تكن لديهم هذه الخيول

العربية الرائعة . وحتى عندما انسحب الصليبيون من الشرق كانوا يحملون امتعتهم على ظهور الإبقار والماعز والخنازير !

والخيول حتى ذلك الوقت كانت مظهرا من مظاهر الثراء والقوة . ولكن أوربا لم تعرف « الفروسية » أو رياضة ركوب الخيول . وإذا حدث أن أراد بعض الفرسان أن يتريض جاءت هذه الرياضة منيفة دموية . فيلتقى الفرسان ويتحاربون . وتكون النهاية دموية مميتة . أن الملك هنري الثاني ملك فرنسا قد سقط من فوق حصانه ميتا سنة ١١٥٩ . ولم يكن ذلك في الحرب وإنما كان في معركة مع أحد الفرسان . ولم يكن ذلك إلا على سبيل اللهو !

ولكن رجلا فرنسيا اسمه جيوفروا دي بروي هو أول من وضع لرياضة الخيل أو للفروسية قواعد وأصولا وطلب من كل الفرسان أن يحترموها وكانت هذه القواعد تؤدي إلى الإبقاء على حياة الفارس والحصان . وإن تكون استعراضا للخفة والسرعة والمنورة دون دماء !

والتاريخ الذي كتبه الخيول في حياة الإنسان والشعوب كلها طويل جدا — أنه يشبه تاريخ الدبابة والمدرمات والطائرات . فالخيول هي دبابات وطائرات الإنسان من الوف السنين !

وإذا كان الإنسان قد استخدم الخيول في الرعى وفي الصيد ، فإنه استعان أيضا بطائر غريب يساعده على ذلك . فالصياد كان يركب حصانه ويحمل على ثراعه طائرا هو « الصقر » ثم يطلق الصقر على الفريسة ويجري وراءه . وبعد لحظات يكون الصقر قد أوقف له الفريسة . فالصقر ينطلق وينقض بسرعة على الطيور الأخرى أو على الأرانب أو على الغزلان . ويقف على رأسها ويرف بجناحيه

فيجعلها عاجزة عن الرؤية . أو يضربها في رأسها أو يفقأ عينيها . .
حتى يجيء الصياد ويمسك الفريسة . ولا تزال هذه الصقور وسيلة
من وسائل الصيد في مناطق شبه الجزيرة العربية . فبدلاً من أن
يطلق الصياد سهامه ونباله ورصاصه على الفريسة ، فإنه يطلق
الصقر لكي يمسكها وهي حية دون أن يشوه مكاناً واحداً من جسمها .

وفي العصور الوسطى كانوا يستخدمون الصقور لاصطياد
الخنازير البرية . ففي فرنسا ، وهي كبرى الدول الزراعية في أوروبا ،
قد أزهقتها حروب المائة عام حتى لم يبق لدى الناس ما يأكلونه من
الخضراوات والفواكه والحيوانات ، وحتى أصبح من الضروري
أن يلتزم صاحب البيت أو صاحب القصر باطعام خدمه وحاشيته
والأفان يجد أحداً يعمل لديه . ففي سنة ١٤٣٣ صدر قانون يقول :
واللخادم أن يأكل اللحم مرتين في الأسبوع وأن يشرب زجاجة نبيذ .
وفي أيام الصوم يجب أن يجد السمك .

أما الأغنياء فكانوا يضعون على موائدهم كل ما لا يجده الفقراء
من لحوم : الخنزير والبقر والأوز والبجع والشواء والسلوق وكانوا
يأكلون الطاووس أيضاً (وقد فعل ذلك شاه إيران عندما أقام
مهرجانه التاريخي بمناسبة مرور خمسة وعشرين قرناً على تأسيس
الملك كوروش للدولة الفارسية . .)

ولكن طائراً واحداً نجا من الموت : الصقر .

ويقال أن المؤرخ الإغريقي كتسياس وكان طبيباً خاصاً للملك
الفارسي أرتكسركس في القرن الرابع قبل الميلاد ، هو أول من نقل
الصقر إلى أوروبا . وأول من استخدمه في الصيد . ولكن هذه العادة
لم تنتشر في أوروبا إلا بعد أن هاجر الإسيويون إلى أوروبا . وعرف
الغرب أن الصقور يمكن استخدامها في صيد الذئاب التي تهدد
قطعان الأغنام والابتكار . .

وفي إحدى لوحات لويس السادس عشر نجده واقفا وعلى ذراعه اليسرى وقف الصقر شامخا برأسه .

كما أن الملك فريدريش الثاني ، لم يكتف بتربية هذه الصقور الصيادة ، وإنما أصدر كتابا في تربية الصقور وتعليمها . كتابه اسمه « فن الصيد بالطيور » . وفي الكتاب يحدث القارئ عن أخلاقيات هذا الطائر . وكيف يأكل وكيف يشرب . وكيف يجب تجويعه قبل إطلاقه على الفريسة . ثم مكافأته بعد ذلك بأن يعطى القلب والكبد وعينى الفريسة . والذي يقرأ كتاب الإمبراطور يشعر بأن تدريب الصقور الصيادة عمل شاق . ولكنه من أنبل الأعمال في ذلك الوقت .

والفراعنة أنفسهم كانوا يرمزون بالصقر — حورس — إلى السماء .. أو إلى الفضاء الخارجى . ويرون أن هذا الصقر له ميثان هما : الشمس والقمر . وكان هذا الطائر في أعلى مراتب القداسة عندهم ..

وحیوان آخر رافق الإنسان سنوات طويلة . أو كان أول من صانقة ؟ الكلب . وكان الإنسان يستخدم الكلب في حراسة الأغنام ، ولم يكن الكلب حارسا لها تماما ، وإنما كان يحميها من الذئاب والثعالب . وكان الكلب حیوانا محترقا رغم احساس الإنسان بعائذته . وكان من عادة الاغنياء أن يضعوا كلابهم في غرف الخدم .

ولكن في العصور الوسطى ظهرت الكلاب في قصور النبلاء والملوك . ثم ظهرت الكلاب في لوحاتهم الفنية . وظهرت أنواع نادرة من الكلاب . وكان الكلب يستمد « مكانته » هو أيضا من مكانة سيده . بل أن الفنان كان يعكس طبيعة السيد على طبيعة الكلب . فإذا كان السيد مثل « فيليب الطبيب » دوق يورجانيا ظهر الكلب هادئا جالسا عند قدمي سيده ، وإذا كان السيد شريرا مثل « شارل

السيء « ملك مقاطعة نفارة الاسبانية ظهر الكلب شرسا يقضم الطعام عند قدمي سيده .. »

وظهرت حيوانات وطيور اخرى كثيرة في اللوحات الفنية بل وفي النقوش القديمة . ففى احدى مقابر الملكة الوسطى الفرعونية نجد نقشاً به تسعة وعشرون نوعاً من الطيور .. وفى مقبرة الكاتب المصرى حور محب فى عهد نحتمس الرابع نجد نقوشاً لطيور كثيرة .. كما ظهرت الحيوانات المفترسة على دروع الجنود رمزا للقوة والمنعة . بل لا يزال « وحيد القرن » منقوشاً مع عظيم الاحترام على الاسلحة الملكية البريطانية . وكان القدماء يتصورون أن وحيد القرن حيوان نادر أو حيوان خرافي . فالأورخ الرومانى بلينى كان يعتقد وكذلك الفيلسوف الاغريقى ارسطو أن وحيد القرن لا وجود له . ولما نقلت التوراة من اللغة العبرية الى اللغة اليونانية ترجمت الكلمة العبرية « ريم » ومعناها : ابقار الى الكلمة اليونانية « مونوكيروس » ومعناها : وحيد القرن .

وقد استخدم القدماء اسم « وحيد القرن » للدلالة على العفة والعزلة وقوة الفضيلة . وذهب القدماء الى أبعد من ذلك فتصوروا أن قرن وحيد القرن هذا يحقق المعجزات . وأن الذى يحتفظ به تحدث له البركات .. وأن الذى يسحق القرن ويشربه مع النبيذ تكون له قوة حنسية هائلة .

عجيب أمر الانسان : انه يبدأ بتقديس الحيوانات ثم تكليسها ثم القضاء عليه ، ثم الحزن عليه والعمل على انقاذه وتربيته والبحث عن شيء جديد يقديسه تمهيدا للقضاء عليه .. وهذا ما فعله بنفسه ايضا !



خنازير كولمبوس ! مذلت العالم الجديد .

مع اكتشاف أمريكا ظهرت حيوانات وطيور جديدة ، فالخنازير الثمانية التي حملها كولمبوس معه قد أصبحت الآن مئات الملايين في العالم الجديد ، ولم يكن اكتشاف أمريكا عملاً بارعاً بالصدفة ، ولكنه نتيجة لمحاولات ومغامرات استغرقت مئات السنين ..

ويجب ان نذكر دائماً ان الصيادين هم الذين لمسوا كل شواطئ العالم الجديد . فالصيادون من أبناء الشمال هم الذين اكتشفوا « جرينلاند » اى الأرض الخضراء ولم تكن الأرض خضراء عندما اهتدى اليها « أريك الأحمر » وانما كانت جرداء جليدية صحراوية مميتة . ولكنه اختار لها هذا الاسم ليستدرج الناس الى الحياة فيها . وكان هو وابنه اول من اقام فيها . وبعد ذلك تكاثرو المهاجرون جيلا بعد جيل ..

يقول « أريك الأحمر » في مذكراته : كنت اطلب من ابنى ان يقوم بدور الكلب وأحيانا بدور الدب ، لنشعر نحن ان هناك كائنات اخرى ترانا او تخافنا او تعمل لنا اى حساب ! ..

ويقال ان « أريك الأحمر » هذا استطاع أن يصل في مغامراته البحرية الى شواطئ أمريكا . والى جزيرة « رود » بالذات . ولكنه يوم اهدى الى هذا المكان النسائي لم يكن يعرف بالضبط ، ما الذى يراه من بعد . .

وبعد ذلك توالت مغامرات أبناء جنوه الإيطالية ، والبحارة الاسبان والبرتغاليين . كلهم اتجهوا عبر المحيط الاطلسي . لماذا ؟ لأن لديهم معلومات ما ، بأن شيئاً ما ، يوجد فى الناحية الأخرى . . ما هو هذا الشيء ؟ يقال : انها بلاد التوابل : بلاد الهند . أو بلاد الحرير : بلاد الصين .

واكتشفوا جزر الكنارى وجزر ماديرا وجزر الأزورس . . ومن الملاحظ أن كل الجزر التى اكتشفت قد حملت اما أسماء القديسين أو أسماء الطيور . فقد كانت الطيور بألوانها الزاهية الصرخة وأصواتها المغردة هى أهم ما رأى وما سمع الأوروبيون . فجزر الكنارى نسبة لطائر الكناريا . . وجزر أزورس أيضاً . فالكلمة البرتغالية « اسورث » معناها : الصقور . والجزيرة مليئة بالصقور .

وكانت هذه الطيور تستقبل سفن المغامرين من بعيد ، وتحلق حولها فى كبرياء . وقد فتن الأوروبيون بالببغاء . وانتقل هذا الطائر الى أدبهم وشعرهم وأغانيهم وخرافاتهم أيضاً .

وأول ما واجه الأوروبيين المكتشفين أن هذه الجزيرة فقيرة . وأن أهلها بدائيون متخلفون تماماً . ولذلك احتاج الأوروبيون الى أن يأتوا معهم بالطعام من اللحوم . فنقلوا الحيوانات الأليفة الى هذه الجزر . ونشروها . وامتلات بها الدنيا الجديدة . وقد أدى وجود بعض هذه الحيوانات الى ظواهر غريبة لم تكن فى حسابهم .

فبعثا عندهما نقلوا الارانب الى جزيرة اسمها « الجزيرة المقدسة »
تكاثرت بمئات الالوف في سنوات قليلة ، حتى اكلت ما في الجزيرة
من اعشاب ، بل انها كانت تتمسك الاشجار وتاكل اوراقها
الخضراء ..

يقول بعض المؤرخين : ان الذى ينظر الى الجزيرة بعينه من
بعيد يجد سطحها يتحرك .. يعلو ويهبط ، كان امواج المحيط قد
استقرت فوقها . ماذا اقرب منها اكثر وجد ان الذى يتحرك هو
موجات من الارانب !

نفس التجربة حدثت عندهما اكتشفت استراليا . كانت الارانب
قد اكلت المزارع فأتوا لها بالقطط . فاكلت الارانب واصبحت القطط
منوحشة . فأتوا لها بالكلاب . فتحولت الكلاب الى ذئاب متوحشة
ويقال انهم في استراليا قضا على الكلاب التى قضت على القطط
التي قضت على الارانب ، فانتشرت الفئران بصورة شرسة ..
وفي الهند عندهم مشكلة مماثلة . ففى الهند يحتاجون الى جلود
الثعابين فيصيدونها . وكانت الثعابين تاكل الفئران التى تاكل
محصول القمح والذرة . ولذلك أصبح ممنوعا صيد الامامى لانها
تقضى على الفئران ، وبذلك ينجو القمح والذرة ؟ .

والمستعمرون الاوروبيون الجدد لهذه الجزر او لهذه الاراضى
المكتشفة يحتاجون الى ضمان طعامهم . والى ضرورة معرفة
الحيوانات والطيور الجديدة . وان كان فى الامكان ذبحها او تصديرها
الى اوربا .. وبعد ذلك معرفة حدود الارض الجديدة والبحث
عما فيها من ثروات طبيعية .

وإذا كانت الأرائب هي أول المهاجرين الأوربيين الى العالم الجديد ، فقد جاءت بعد الأرائب الابتار والأغنام والماعز والخنازير والدواجن وكذلك البنور .

وكولبوس عندما اكتشف أمريكا سنة ١٤٩٢ كان يحمل في سفنه بعض اللحوم والأسماك الجافة . . ولكن رحلة كولبوس الاولى كانت استطلاعية فقط وبعد ذلك جاءت رحلته الثانية الباهرة ويقول كولبوس في مذكراته بتاريخ ٩ أكتوبر سنة ١٤٩٢ أى بعد ٣١ يوما من السفر من جزر الكنارى : ظللنا طول الليل نسمع أجنحة الطيور . ولا نعرف أين نحن بالضبط . ولكنى مؤمن بأن الأرض قريبة جدا »

وبعد ثلاثة أيام توقف كولبوس عند جزيرة هي جنة الطيور . كل شيء فيها غريب عجيب . اشجارها وأرضها وثمارها . وأهم من ذلك كله عدد لا نهائى من الببغاوات . وقد حمل منها عددا كبيرا الى أوربا . ووجد بالصدفة بعض الأحجار الالامعة على الشاطئ فظن أنها ذهب . ولم تكن كذلك . وأيقن أنه قد اهتدى الى الهند . وكولبوس هو الذى أطلق خنازيره فى الدنيا الجديدة . . وهربت الخنازير الى الغابات واختفت منه . . وبعد مئات السنين أصبحت الوف الملايين . . طعاما سائفا للرجل الأوروبى والأمريكى . .



ومما حمله الأوربيون الى العالم الجديد : الخيول .

وكانوا يركبون الخيول ويمسكون السهام والنبال ويطلقون النار على الهنود الحمر . فخافوا أول الأمر . وبعد ذلك لم تعد هذه الخيول تخيفهم وكانوا يظنون ان الحصان وراكبه كائن واحد .

ولما تشجع الهنود الحمر وأطلقوا سهامهم على الأوربيين سقط منهم الكثيرون على الأرض . واندثس الهنود الحمر كيف أن هذا الحيوان — أى الحصان وراكبه — يمكن أن ينشطر نصفين بهذه السهولة !

(وعندما اكتشف كوك أيضا جزر هاواى كان يضع يديه فى جيب البنطلون فكان أهل هاواى يعجبون لذلك اذ كيف يخفى يديه فى بطنه ويخرجها . ولما راح يدخن السجائر ، أدهشهم كيف أن النار فى أحشائه ولا يموت .. ولما قتلوا رجسالة البيض فزموا لذلك . ولكنهم تشجعوا حتى قتلوا كوك نفسه) .

والشاعرة المكسيكية الراهبة خوانا كروث تقول سنة ١٦٨٨ عن الأوربيين الذين غزوا بلادها بالحديد والنار : من هؤلاء الوحوش الذين جاءوا عبر المحيط يدوسون أرضى المقدسة ؟ ويذبحون أجدادى وينهشون لحمهم ، وينهبون ثرواتهم بلا سبب ؟ .. ان أجدادى متحضرون أما هؤلاء القادمون من وراء البحر فوحوش بربرية .. !

واهتدى الإنسسان الى حيلة أخرى غير استخدام الخيول ، استعملوا الكلاب المدربة . وأخذوا يطلقونها على قبائل الإنكاس . وكانت الكلاب تمسك بهم وتعونتهم لتصيبهم نيران الاسبان . وعرف الإنكاس حيلة أخرى جديدة . كان الواحد منهم يتغطى بمواد مسمومة فإذا هجم عليه الكلب مات لقوه . أما لماذا لم يمت الإنكاس من السموم التى تنفذ الى ما تحت الجلد ، فذلك ما لم يعصره أحد بعد .

ويصف لنا المؤرخون الاسبان كيف راوا قصر الملك مونتزوما الثانى « ملك المكسيك » قال أحد المؤرخين : وكان قصره قطعة

من الجحيم . تعيش الاسود والنمور فيه . وترى الطيور الصارخة .
والطيور المفردة والطيور الجارحة . . وفيه اخطر من هذا كله :
انواع مجيبة من الانعام التي لها ريش . وكانوا يضعون الانعام
في الصناديق ثم يلتون اليها بلحوم الكلاب وكان من عادة الملك اذا
زاره الضيوف او الاوربيون الجدد ، ان يقدم لهم الطعام وسط
هذه الوحوش . وكان حريصا على ان يجعلها جائعة فتعوى وتنبع
وتصرخ — اما الثعابين فيكون لها فحيح قريب رهيب .

وفي الرسائل التي وجهها كولبوس الى الملوك الكاثوليك في اوربا
سنة ١٥٠٣ ، وكان في ذلك الوقت في جامايكا يقول : ان في هذه
البلاد اسودا وقطعا ضخمة في حجم الانسان نفسه .
وفي هذا العالم الجديد لا احد يشرب اللبن او يذوق لحم الحيوانات
— الاغنياء والتبلاء ورجال الدين فقط — اما بقية الناس فلا قدرة
لهم على هذا الترف العظيم .

وعندما استولى البرتغاليون على البرازيل اطلقوا عليها اسم
ارض الببغاوات . وان كانت كلمة « البرازيل » في اللغة البرتغالية
تعنى نوعا من الخشب الثقيل الذي يخرجون منه الصبغة الحمراء .
ولكنهم كانوا يسمون هذه البلاد بجنة الطيور . وكان من عادة
البرتغاليين ان يدرسوا ويسجلوا ملاحظاتهم على كل الطيور
والحيوانات والنباتات التي تلت ميونهم . بينما كان الاسبان
مشفولين فقط بالبحث عن الذهب .

وعلى الرغم من ان الثمار في العالم الجديد كبيرة الحجم ، فان
الحيوانات كانت صغيرة الحجم . وهذا العالم الجديد لم يعرف
الفيل الهندي الحبشى ولم يعرف التمساح النيلى الكبير . وانما
في العالم الجديد تماسيح صغيرة . ولم يكن يضسيق المستعمرين
الجدد سوى الحشرات التي تلتسع . وسوى الانعام التي تمص
دمهم في الليل .

أما الهنود الحمر فهم يأكلون كل الحيوانات فيما عدا حيوان أكل النمل .

وبعض القبائل تاكل الانسان نفسه وعندها أسباب كثيرة لذلك .
أما أن يكون ذلك بدافع الانتقام . . أو بدافع المحبة . . فنجد القبيلة تأكل شخصا من قبيلة أخرى ، ومعنى ذلك أن دمه واحد .
وجسمها واحد . والروح واحدة . وتقام لذلك طقوس هائلة بالطبول والرقص والبخور .

من عادة هذه القبائل إذا أسرت عدوا أن تكرمه فتعطيه الطعام الذى يجعله أسمن . بل أن بعض القبائل عندما كانت تأسر الأوربيين كانت تحبسهم وتقدم لهم أفضل الطعام وتقدم لهم بنسات القبيلة ليكون زواج وأطفال . أما الذكور — فلأنهم أولاد الرجل — فياكلونهم . أما الإناث — فلأنهن بنات المرأة — فلا يأكلهن أحد . ثم لابد من أكل الذكر حتى لا ينتقم لوالده .

وقد روى للعالم كله مثل هذه القصص رجل أوربى وقع فى الأسر . ورفضوا أن يأكلوه رغم ما تقدموا له من طعام ، لأنه كان جلدا على عظم !

وقاوم الأوروبيون هذه الوحشية ، فأصدروا القوانين التى لا تحرم قتل الانسان ، وإنما تحرم أكله . وبينما صغرت هذه القوانين كان بعض الأوروبيين يبيع للهنود الحمر سكاكين أكبر لى يتمكنوا من ذبح الانسان بسهولة !

ولم تتوقف هذه الأعمال الوحشية إلا عندما انتقلت الأبقار والجواميس والأغنام من أوروبا لى تكون فداء للانسان من الانسان . . فماتت هذه الحيوانات من أجل أن يعيش الانسان يربها ويطعمها ويذبحها بعد ذلك !

كل عصر له خرافاته خاصة!

كانت الملكة كاترين مدينتشى شديدة القلق .
وهذا طبيعى جدا ، فهذه ليلة زفافها . وكانت
إذا نظرت الى إحدى الوصيفات تسال عن شيء ،
ترد عليها الوصيصة وهي تضحك أو وهي تغمز
بعينها ، وفي كثير من الأحيان كانت الملكة تسال
قائلة : هل جاء الخاتم الـ ... وقبل ان تكمل
سؤالها يجيء الرد : نعم جاء الخاتم ذو الأربعين
فصا ..

وتسال الملكة : والصندوق الـ ...
فترد وصصيصة أخرى : جاء الصندوق البيضاوى وبسه كل
المجوهرات حتى الخنجر الذهبى المرصع بالماس .
وتقول الملكة : وهذا الذى يسمونه « عطر الحياة الأبدية » هل
هو أيضا .. ؟
— نعم يا مولاتى جاء وبكميات كبيرة تكفى لاسعاد ألف عروس
فى ألف ليلة .. !

— و —

— نعم جاء وهو الآن تحت المخدة ..

— و ..

— نعم يا مولاتى .. وأنا التى وضعتہ بنفسى فى كأس الشمبانيا
التي سوف يشربها الملك قبل أن يدخل الى غرفتك .. اطمئنى فقد
اعددنا لسعادتكما الليلة كل شيء ..

— وهل نسيت ذلك الذى اهدته لى الامبراطورة لانشاولة قبل
النوم بلحظات .

— موجود يا مولاتى ..

ولم تكن الملكة كاترين دميتشى تريد أن تعرف كل هذه الاحتياطات
من أجل ليلة العمر مع أحد ملوك فرنسا . وانما كانت قلقة على
شيء آخر هام جدا .. ولكنها تخشى أن تبوح باسمه أمام الوصيفات
الايطاليات والفرنسيات .. وأخيرا تشجعت وقالت : هل جاء
الكاردينال .. ؟

ومرخت الوصيفات فى نفس واحد : طبعا يا مولاتى ..

وظهرت السعادة على وجه الملكة وأحس الجميع أن هذا الذى
جاء أهم من كل شيء سمعته حتى الآن . أما هذا الكاردينال فقد
حمل رسالة خاصة من عمها كليمنت السابع بابا الفاتيكان .

وقد وعدا بهذه الهدية قبل زواجها . ولما حضر الكاردينال
ادخلوه نورا للغرفة الصغيرة المجاورة لسرير الملكة . ورفع
الكاردينال عباءته القرمزية ووضع علبة ذهبية كبيرة ، وفى داخل
العلبة الذهبية مسحوق نادر .

ان هذا المسحوق هو معالجة طبيعية لجزء من قرن خلعه من
رأس « وحيد القرن » الذى يبلغ من العمر سنتين ويومين !

هذا المسحوق مهم جدا . فالملكة اذا احسنت بالسم قد وضعوها
لها فى طعامها ، فانها بسرعة تضع المسحوق على شرايحها او
طعامها . وهذا المسحوق قادر على أن يمتص السم وتعيش الملكة .



وكان ذلك فى القرن السادس عشر فأوربا كلها تؤمن بأن قرن
وحيد القرن قادر على شفاء الناس من أكثر الأمراض خطورة .
ولذلك فهو هدية من بابا روما — وهى هدية أغلى من كل الهدايا
وأهم . . !

وحوانات أخرى سيطرت على الحياة الطبية فى أوروبا بعد
اكتشاف أمريكا . أكثر هذه الحيوانات خرافية .

ومن الملاحظ أن الانسان الأوروبى اتجه الى أمريكا ، بينما
الحيوانات الأمريكية قد اتجهت الى أوربا . وإذا كان كولمبوس قد
أهدى أمريكا ثمانية من الخنازير ، فإن أمريكا قد أهدت الى
الخنازير الأوروبية طعامها ، بل أن أمريكا هى التى انقذت خنازير
أوربا . . فعندما كانت هناك أزمة اللحوم أو الطعام عموما فى أوربا،
انتقلت الذرة الى أوربا ، ولم تكن تعرفها قط . وانتقل سكر القصب
أيضا . صحيح أن أوربا هى التى نقلت قصب السكر الى أمريكا ،
ولكن أمريكا هى التى صنعت سكر القصب بكميات هائلة، مستخدمة
العبيد من أمريكا فى هذه الصناعة الجديدة . وقد أدى ظهور السكر
فى أوربا الى كساد عسل النحل والنحل نفسه . وهذه هى أول مرة

فى التاريخ نجد السكر الذى هو ناتج نباتى يطرد العسل الذى هو
ناتج حيوانى .

ثم ان الذرة والبطاطس وغيرها من الاطعمة قد ادت الى انقاذ
حياة الملايين من الطيور والحيوانات التى اعتاد الناس فى اوربا
ان ياكلوها . ولم تكن البطاطس هذه معسوفة تماما فى اوربا . .
وقد رأينا فى القرن السابع عشر الامراء يتهاونون بالبطاطس على
انها شىء غريب عجيب . بل ان بعض الاطباء فى ذلك الوقت قد
افتى بتحريم اكل البطاطس لانها تؤدى الى الامراض الخبيثة !

وظهر الديك الرومى فى اوربا ، قادما من امريكا بكميات كثيرة .
وربما قيل ان الديك الرومى ليس جسيديا على اوربا ، فالانجليز
يسمونه الديك التركى . والانجليز عرفوه من طريق الشرق الاوسط .
ولكن النوع الذى جاء من امريكا كان اضعف واكثر تنوعا ، وكان
لظهور الديك الرومى اثره الكبير فى الحياة الاوربية . . فى حفلات
الامراء والنبلاء والملوك . ومن يرجع الى ادب البسلاط فى اوربا
يجد الديك الرومى صاحب الصفحات الاولى والعبارات الاولى على
السنة الرجال والنساء . كان يقال مثلا : جميل الديك الرومى
واجمل منه ان ينظر اليه الانسان فى مينيك !

يقال هذا الكلام عادة لغتاة جميلة . ويكون رد الفعل التقليدى
ان تحنى الجميلة رأسها ، وان يتقدم صاحب الكلام ويحنى رأسه
على يديها ويقبلها . . ويمضى الكلام عن الديك وبقيّة الاطعمة .
وينتهى مثل هذا الكلام عادة بأن تسكون هذه الجميلة قد وقعت فى
غرام هذا الغيب الذواتة للطعام والجمال !



ومع هذه الحيوانات الواردة من أمريكا ظهرت أمراض كثيرة .
في مقدمتها أمراض الزهري والسيلان التي نقلها كولبوس ورجاله
الى أوربا — هذه حقيقة مؤكدة !

وأطلق الانجليز عليها : الأمراض الفرنسية . والفرنسيون
وصفوها بأنها : أمراض انجليزية !

وفي مذكرات كولبوس نجده يقول مثلا : وفجأة شعرنا بظهور
دمامل .. وفجأة شعرنا بنوع غريب من النزيف . ولا نذكر طعاما
معينا أدى الى ظهور هذه الأعراض الغريبة !

ولم يكن كولبوس يعرف هذه الأمراض السرية ، فهي لا تجيء
بعد الأكل وإنما بعد المعاشرة لنساء الهنود الحمر !

وحاول أحد بحارة كولبوس أن « يتفلسف » فوصف هذه
الأمراض ، ولكنه عندما أراد أن يجد لها سببا معقولا قال : بسبب
النبيذ الفاسد على الريق !

ولكن أهم ما ظهر في الفكر الأوربي الأدبي والحيواني أن هذه
الرحلات الى العالم الجديد قد أدت الى ظهور حيوانات غريبة الأحجام
مجبية الألوان . هذه الحيوانات يؤكد كل الفلاس أنهم رأوها
بأنفسهم . وأنهم لم يسمعوا عنها من أحد . وكل كتب القرون الـ ١٥
و الـ ١٦ و الـ ١٧ قد غاضت بهذه الكائنات الغريبة . معشرات
المغامرين الكبار يقولون أنهم رأوا الذئب الذي له رأس إنسان ،
أو الإنسان الذي له رأس ذئب .. وأنهم حاولوا صيده . وأنهم
قتلوه ، ولكن جاءت ذئاب أخرى وحملت جثته ودفنتها في ضوء القمر !

واكثر الناس رواية لهذه القصص هم البحارة . وهم يتفننون في وصف هذه الحيوانات المائية او البرمائية (والذكر اننا عندما ذهبنا الى البصرة بالعراق مهد « ألف ليلة وليلة » املن كثيرون من الادباء انهم شاهدوا عروس البحر . . شاهدوها واقفة وجالسة ، وانهم يتسمون على ذلك ؟ !) وكل بحارة القرن السادس عشر قد اُقسموا على ذلك أيضا . وتؤكد بعض الكتب أن هناك نوعا من الاماعي طولها ٥٠٠ قدم . وان هذه الاماعي تلتف حول السفن فتسحقها وتبتلع ركبها واحدا بعد واحد . فاذا امتلأت هذه الاماعي بالطعام يستطيع الطفل الصغير ان يقتلها بقطعة حجر ! ولكن أين يكون هذا الطفل وكيف يمكن أن يقتلها ؟

ان الكاتب اولاس ماجنوس قد أصدر كتابا في سنة ١٥٥٥ يصف فيه الكائنات البحرية المخيفة . وقد خصص صفحات طويلة لهذه الاماعي الكبيرة

وفي القرن ١٦ ظهرت كتب تتحدث عن عريس البحر — سمك على شكل رجل . وهذا السمك لا يأكل الا الزوج والهنود الحمر . .

اما عروس البحر فلا تأكل الا البيض . . ويقال لا تحب من لحوم الاوربيين سوى لحم الاسبان ! واذا كان عريس البحر يأكل عيون الغريسة فان عروس البحر تأكل قلوبهم . . تماما كما أن سمك القرش يأكل الذراعين والساقين . . وهناك نوع خاص من السمك يقفز من البحر وبقدرة فريدة يستقر على جسم الانسان . ويلتصق به ولا يأكل الا نهود النساء — الفتيات الصغيرات بصفة خاصة !

وربما كان هيودوت المؤرخ الاغريقي هو اول من وصف لنا طائر

« العنقاء » وقال أن هذا الطائر ينطلق كل خمسة قرون من شسبه الجزيرة العربية الى مصر الجديدة حيث مات أجداده . ويظل يبكى على أجداده في مصر الجديدة خمسة قرون ، ثم يعود بعدها الى شسبه الجزيرة العربية ، في مكان ما منها :

وتقول الكسب الأوربية في القرن ١٦ أو مؤلفيها راو العنقاء هذه . وان العنقاء قد لغت حول عنقها شعباناً ضخماً . هذا الشعبان اذا نظر الى انسان تحول الانسان الى حجر . . أو ما يشسبه الحجر . وبسرعة ينقض الشعبان على الانسان يمتص نسه . أما العنقاء فتكون قد سلبته عينيه ! وقد صور الفنان الايطالى تشللىنى هذه المعانى وروى هو نفسه قصصاً من هذا النوع ، ويقسم أنه رأى ذلك بعينيه — كلهم يتقسمون على ذلك ويطلبون منا أن نصحتهم !

حتى الفنان العظيم دافنشى يؤكد في مذكراته أنه رأى بعض هذه الحيوانات ، التى لم نعثر لها على أثر بعد ذلك . . ودافنشى ليس عبقرىاً مخرفاً ، وإنما هى حالة نشاط مجنون لخيال فنان عبقرى تجعله يرى ما يرى . . انها « حالة سريالية » أى حالة يطير فيها الفنان الى ما فوق الواقع — كما يقول عنه العالم النفسى الكبير فرويد . .

وشىء من هذا قد أصاب الفنانين والمفكرين بعد اكتشاف أمريكا . .

وقد ظهر عند الأطباء جنون جديد لعلاج كل الأمراض . أو نوع من الطموح الطبى . فتوهموا أن هناك مواد نادرة لعلاج الأمراض . من ذلك مادة في مخ الغزال . اذا عثرنا عليها ، كان الشفاء في أيدينا . . وأحياناً يستخرجونها من الحسوات في كلية الغزال . هذه المادة أطلق

عليها الفيلسوف العربى ابن سينا مادة : البادزهر . وهى شفاء من كل سم ومن كل مرض .

ومن العجيب أن الفيلسوف العربى ابن سينا ، قد شفى الكثير من الأمراض . وجعل مادة البادزهر شفاء لكل داء . . وهذه المسادة نادرة جدا ، ولذلك فكانت تساوى وزنها ذهباً . . أو أضعاف وزنها ذهباً . ولا أحد يعرف أن كنت تشفى حقيقة من كل داء . فالذين كانوا يتناولونها لم يقولوا لنا شيئا !

وظل هذا « الوهم » سائدا مئات السنين . . ولكن استطاع أحد الأطباء في بلاط الملكة كاترين دمديتشي أن يثبت لها أن مسحوق قرن « وحيد القرن » ليس ترياقا يشفى من كل مرض . فقد وضع السم لديك ، ثم أعطى لديك هذا المسحوق السحري فمات لديك رغم ذلك . . ولكن أحدا في بلاط الملكة لم يصدق هذا الطبيب « المخرف » .

ويقال أن البابا كليمنت السابع عندما قارب الوفاة تلقت حوله يسأل الكرادلة أن كان أحد قد وضع له السم — فاحتوا وبكوا وقالوا : أهوذا بالله ومن يجرؤ على هذه الخطيئة !

ولكن البابا كان يعلم طبيعة الانسان ، أن واحدا من الحواريين حول المسيح قد سلمه لاعدائه . . فليس غريبا أن يقتله واحد من الذين حوله . . وكان أحد الكرادلة أسرع الجميع الى مهم ما يدور في رأس البابا فأسرع واتى بمسحوق القرن . . ووضع في كوب من الماء . . ثم وضع كمية أخرى . . وظهرت السعادة على وجه البابا . . وشرب الكوب ومات . . وقد اهتدى الأطباء بعد ذلك عندما أرادوا

أن يعرفوا سبب وفاة البابا ، الى أن السبب الحقيقي هو مسحوق
القرن السحري !

ومات البابا وسره معه .. ولكن الخرافات تعيش بعد ذلك أطول
عمرا من البابا ، لأنها تنبع من جهل الإنسان بما لا يعرف ورغبته في
أن يعرف بسرعة . وكل عصر من العصور له حقائقه الجديدة ،
وأوهامه الجديدة .. فلا عصر بلا خرافات !



ذهب كل أرض ندوسها الأغنام!

يقال ان احدى اميرات الصين قررت ان تسعد
نفسها . فظلت تفكر في احسن الطرق . ولم تهد
الى شيء . يقال نامت وقامت وهى سعيدة جدا .
ماذا رأت في نومها ؟ رأت دودة صغيرة تمشي بين
اوراق الشجر . ثم تاولى الى بعض الأوراق
عندما يخرج من فيها خيط ناعم . . وتظل الدودة
تعمل ذلك حتى يتكون من الحرير كفن تموت فيه
هى التى دفنت نفسها . ثم بعد ان تموت تصحو
مرة اخرى . . لتموت بعد ذلك . . وذهبت الأميرة
الى احد رجال الدين تروى قصتها . طمانها رجل
الدين قائلا : ستكون لك حماة قاسية القلب .
تحاول ان تدفئك حية . ولكنها هى التى ستموت
في النهاية !

ولم تقتنع الأميرة بتفسير رجل الدين . فذهبت الى كبير الكهنة .
وقال لها : ان الذى رأيت في نومك حقيقة . اذهبي الى الغابات
وابحثي عن هذه الدودة ففيها سر الصين كلها !

وعثرت الأميرة على دودة القز ..

وأصبح دود القز سرا ملكيا منذ أكثر من أربعة آلاف مسنة ..
وكانت للصين أعياد للحريير . يتهاذى فيها الناس دود القز وبعض
شرائق هذه الدودة العجيبة ..

وانتقل السر من قصور الملوك الى بيوت الشعب . وظلت الصين
تضمن بهذه العودة على كل الشعوب الأخرى وكان يكفى أن يقال أن
مواطننا أخذ معه بعض الدود خارج الحدود ليصدر قرار بأعدامه
فوراً .

وتسللت الدودة الى كوريا .. ومنها الى اليابان . ومن اليابان
أصبحت صناعة الحريير ونسيج خيوطه من أهم مخصصات الاسرة
المللكة .. ويقال أن الامبراطورة اذا غضبت لسبب ما ، وكثيرا
ما كانت تفعل ذلك مما ادى الى قصف عمر زوجها ، فانها تأخذ ديدان
القز معها وتظل تتأمل قدرة الله ..

ويقال أن احدى الامبراطورات كانت تنظم الشعر . ومما قالته :
« حياتى كهذه الدودة .. هائلة ناعمة راضية . وفى النهاية ماذا أنا
الذى أهمل وأنا الذى اتغطى بأكفان من الحريير وأموت فى صمت
بالصمت حياتى والصمت مماتى .. ولاأحد يدري بذلك » مفهوم طبعاً
أنها تريد أن تقول أنها تتعذب وتعمل وتموت دون أن يشعر أحد
بوجودها — زوجها وأولادها طبعاً . والشكوى من الرجل والأولاد
قديمة وتتجدد فى كل بيت ومن كل زوجة وأم !

ولم تعرف أوربا الحريير هذا الا بعد ذلك بالوف السنين .. فملايس
الافريق والرومان بسيطة جداً . وعندما عرفوا الحريير كان ذلك شيئاً
نادراً . ولم يقدر على شرائه الا الملوك والباطرة . وفى نفس الوقت

كانوا يرون أن هذه الملابس الناعمة لا يصح أن يرتديها الرجال .
لأنها ناعمة ليئة . ولا يصح أن ترتديها النساء لأنها تكشف الجسم .

وفي القرون السابقة على المسيحية لم يكن الرومان والافريق قد عرفوا الملابس الداخلية وإنما ظهرت هذه الملابس الداخلية عندما أقبل الرجال على النساء . وفي بلاد الافريق أيام الفلاسفة سقراط وأفلاطون وأرسطو ، كان المثل الأعلى للجمال هو جسم الرجل والرجل نفسه . وفي هذا العصر انشغلت المرأة عن أرضاء الرجل . ولكن بعد أن اتجه إليها الرجل ، بدأت المرأة تختفي وراء ملابس داخلية وخارجية . . وكلما التفت الرجل إلى المرأة أكثر عرفت الملابس الضيقة التي تكشفها وفي نفس الوقت تغطيها أيضا . فمع الميل الجنسية الشديدة عرفت المرأة الأقمشة الحريرية . . ولكن نساء الطبقة الغنية فقط . فقد كان الحرير غالي الثمن . .

إن الإمبراطور يوليوس قيصر قد اشترى قمائسا حريريا ليزين به أحد المسارح . ولكنه لم يجرؤ على ارتداء ملابس حريرية . لا يسمح بها لنفسه ولا لغيره . بل أننا نقرأ في إحدى المحلكات من يقول :
ولكن كيف أصدق رجلا يرتدي ملابس حريرية . . أنه ليس رجلا !

أما الإمبراطور الشاذ جنسيا واسمه هليوجيبالوس السوري ، فقد ارتدى ثوبا من الحرير الأحمر في إحدى الحفلات . والتفت إليه الناس بدهشة . ويبدو أن الإمبراطور لم يلفت النظر بدرجة كافية فانسحب من الحفلة وارتدى الثوب على اللحم وراح يتمرغ على الأرض أمام النبلاء .

ولم يكن هذا الحرير الذي عرفته أوروبا في أوائل العصور المسيحية

قد جاء من الصين . انه نوع ردىء من الحرير . ولكنه غالى الثمن . .
لما الحرير الصينى فلم يظهر الا بعد ذلك بآلف سنة . ووصل الى
أوروبا من طرق مختلفة . .

لما إمبراطور جستنيان فى القرن السادس الميلادى قد اتفق مع
اثنين من الرهبان على أن يخفيا الحرير فى ملابسهما . وجاء الرهبان
وقد حمل كل منهما عصا مفرغة . أخفى فيها بيضات الحرير . ودخل
الحرير الى بلاد الإمبراطور وتولت زوجته الخاتمة الفاتنة المأجرة
ثيودورا صناعة الحرير . فقد كان لها فى قصرها عشرات الحجرات
أحدثها لعودة القز . وكانت الإمبراطورة تغزل الحرير . أو تأتى بمن
يستطيع ذلك . ويقال أن الإمبراطورة ثيودورا قد تعاونت مع أحد
أمراء الحبشة على زراعة أشجار التوت فى تركيا القديمة . ونجحت
الأشجار وانتشرت صناعة الحرير فى ذلك الوقت . واحتكرت
الإمبراطورة غزل الحرير وحرمته على كل الناس . وكانت الإمبراطورة
تستعين بالمفتيات فقط فى تربية وغزل الحرير .

وكان من عادة الإمبراطورة ثيودورا كلما أرغبت من حمل ثوب
حريرى أقامت حفلة خاصة للهلك . وأنت بالراقصات والمفتيات
ورقصت هى أمام الإمبراطور فى ثوب من الحرير ثم أنت بثوبها وألقت
به فى برميل النبىذ . . وراحت تمشى عارية تعصر النبىذ فى أفواه
الضسيوف !

وكانت تسمى تلك الليلة « الحرير من النبىذ » . . أو « النبىذ من
الحرير » . . وكانت لهذه الإمبراطورة أيام أخرى كثيرة . ولكن أرومها
هى ليلة : عصر الحرير !

وكانت هناك امبراطورة اخرى اسمها نيودويسيا . هي اول من ابتكر مسابقات الجمال في العالم . . او اخنيار ملكة الجمال . فقد كان لها ابن جميل وكانت تريد أن تختار له أجمل الفتيات . فكانت تدمو كل اسبوع أجمل عشر فتيات لبختار واحدة منهن . الفتيات جميلات طبعاً وقد ارتدت كل منهن فستاناً من الحرير . ويرحن ويجنن على ايقاع موسيقى . ومع الليل والموسيقى والمشراب ترتفع اطراف الفساتين لتكشف كل منهم على أماكن الجمال . ويختار الفتى بنت الحلال ، ومن الغريب أنه لم يكن يفعل ذلك . ولم تكن الفتيات يرضن بما لايفعل الأمير . فقد أسعدهن جداً أن يقع عليهن الاختيار وأن يتعيرن أمام أمراء وشهبان آخرين . .

كل ذلك بعد أن تكون كل واحدة قد خلعت أكثر ملابسها الحريرية التي تدل على أنها من أسرة قادرة على شراء فساتين من الحرير الصيني !

واصبح العالم كله يتحدث من طريق الحرير ، أو طريق تجارة الحرير الذي يبدأ من بكين ماراً بالهند وايران وتركيا . . وسوريا . وقد انتقل الحرير من شمال افريقيا الى أوروبا في القرن الثامن من طريق العرب . فالعرب أدخلوا صناعة الحرير الى ايطاليا وجزيرة صقلية والى اسبانيا . صحيح ان دودة القز لم تكن قادرة على الحياة في الأجواء الباردة . همتت بالملايين . وكذلك اشجار التوت لم تتحمل البرودة والجليد مذبذبت . ولكن استطاع الاتيسان أن يتغلب على هذه الصعوبات .

وقد شهدت أوروبا الملكة اليزابث وهي ترتدي جورباً من الحرير،

صنعتة احدى وصيفاتها . اسم الوصيفة أصبح ماركة للقبصان
الانجليزية : مونتاجى . وكانت ملكة انجلترا تستورد خيوط الحرير
من اسبانيا . وظلت انجلترا تستورد الحرير من اسبانيا فى اُسُـد
الظروف قسوة ، وفى نفس الوقت كانت انجلترا تحرم تصدير الصوف
الى الخارج . . وبينما كانت اسبانيا تحتكر دودة القز كانت انجلترا
تحتكر اغنام الصوف .

وفى سنة ١٥٩٨ اعلنت الملكة اليزابث فى احدى الحفلات الرسمية
ان لديها ستة ازواج من الجوارب الحريرية . ويبدو ان هذا خبر
شخصى جدا . ولكن الملكة ارادت ان تقول ان هذه هى البداية . .
وسوف تظهر جوارب اخرى كثيرة ، ولم تظهر الا بعد ذلك بوقت
طويل ا

فى ذلك الوقت كان احد المهندسين الانجليز واسمه « لى » يعانى
من أزمة حب شديدة . انه يحب فتاة جميلة . ولكن اذا ذهب اليها
تنسفل منه تماما . فيظل هو وحده يتكلم . وهى لا ترد . واذا ردت
فائها لا ترفع رأسها لكى يرى عينيها . ان عينيها تركنتا على شيء
فى يديها . انها تغزل خيوط الصوف لعلها تصنع جوربا او شالا . .
ولكنها لا ترد . هو يحبها . وهى ايضا . ولكن الحب كلام ، ولا كلام
بينهما . او هو الذى يتكلم وهى التى تسمع دون ان تقول شيئا .
وانكسر قلب هذا المهندس . واختفى عن العيون سنة . ثم عاد يطلب
مقابلة الملكة اليزابث واُثـنـت له . وقدم لها جهازا من اختراعه يعنى
المرأة من غزل الصوف بيديها . لانه لا يريد حبيبته ان تفعل ذلك . وان
تتحدث معه بعض الوقت . وقالت الملكة : كنت اظنك قد اخترعت
شيئا لغزل الحرير .

وقال المهندس : انعمل ذلك حالا !

واختفى المهندس سنة ليعود الى الملكة بجهاز جديد لفزل الحرير حتى لا تفشل منه حبيبته . ولكن الملكة لم تفرح بذلك . لان هذا الجهاز سوف يجعل الحرير في متناول كل الناس . وهي تريد الحرير خاصا بها وبالاسرة المالكة . ثم ان مخازل الحرير او الصوف سوف تؤدي الى تعطيل الالف الايدي العاملة . فذهب الرجل الى فرنسا يعرض اختراعه الجديد . ولكن فرنسا كانت مشغولة في الاحداث التي اعقبت اغتيال الملك هنري الرابع . . وزاد حزن الرجل وعاد الى حبيبته فوجدها تتكلم وتنتظره . . انهما الان لم تعد تفزل لا الصوف ولا الحرير — لقد فقدت بصرها !

وفي عصر لويس الثالث عشر عرفت فرنسا التقشف والبهظة في اللبس . وكان هذا الملك متشددًا ، مخربت مخازل كثيرة في معظم المدن الفرنسية . . وتشرد الدود على الشجر . وماتت الشرائق وطرد الحرير من بلاد الاتاكة !

ولكن اعيدت كل هذه الصناعات بعد ذلك . واعلن الكاردينال ريشليو : انه من حماقة ان نحرم على انفسنا ما اراده الله لنا من جمال — اميدوا الدود الى الشجر ، والحرير الى الازياء !

واذا كانت « دودة القز » هذه قد رحلت من آسيا ، فان « الاغنام » ايضا قد جاءت من آسيا ، ولكن في عصور قديمة جدا . وربما كانت

الأغنام أكثر الحيوانات هجرة من مكان الى مكان .. فعلى كل مصور التلويخ كان هناك رعاة ، لان الأغنام قد سبقت الانسان .. ولكن الأغنام التى ظهرت فى أوروبا كانت ضئيلة الحجم وكان شعرها خشنا جافا . أما الأغنام الجيدة فهى التى جاءت من آسيا ، ومن شسبه الجزيرة العربية بصفة خاصة ..

وظلت هذه الأغنام يخطط بعضها ببعض حتى كان هذا النوع الأسباني الشهير باسم مرينو . وهذه الأغنام وصلت الى اسبانيا تماما كما وصلت دودة القز عن طريق شمال افريقيا .. وبوصول الأغنام الى اسبانيا بدأت حرب الخيوط بينها وبين بريطانيا .. خيوط الحرير وخيوط الصوف .. احتكرت اسبانيا الحرير ، واحتكرت بريطانيا الصوف . وبدأت معركة السيادة على الأسواق .. ومعركة السيادة على البحار . واهتدت بريطانيا الى انه من الأفضل أن تنقل الأغنام من بلادها الى المستعمرات . فانتقلت الأغنام الى المراسى الأكثر غنى فى مستعمراتها . وفى عصر حرب الخيوط ، أكلت الأغنام الأرض المزروعة .. بل إن الناس فى بريطانيا كانوا يقتلعون الأشجار ويتركز الحشائش غذاء للأغنام التى تعيش عليها بريطانيا . بل أن رجال الدين الانجليز كانوا يخطبون فى الكنائس يطلبون من الله أن يرفع عنهم لعنة الأغنام التى أكلت الأشجار وحولت المدن الى مرمى تاكل عليه .. وكانوا يقولون : ان الله خلق الأرض للانسان فتركها الانسان للأغنام . فاستحق الانسان لعنة الله !

وكان الناس يقولون : ذهب كل أرض تدوسها الأغنام !

ولما اهتدت بريطانيا الى أماكن أغنى وأدنى خارج جزيرتها ، انتقلت اليها الأغنام . وعادت الزراعة الى الأرض . وعادت الأرض الى الانسان !

واخترع الانسان الآلة لتعاون دودة القز وتعاون الافنام ..
ثم عاد الانسان يخترع اجهزة اخرى لتأخذ مكان الديدان والافنام،
منذما اخترع الخيوط الصناعية ..
ولكن لا تزال هذه المنتجات الطبيعية — خيوط الحرير وخيوط
الصوف وخيوط القطن — اروع واجمل ..
ان دودة صغيرة ضعيفة قد طردت امامها ملايين الافنام . فما اكثر
ما تفعله دودة في حياة الانسان .



الحادية لعلم لإنسان كيف يكون مصانا نبيل !

لم يفهم القاضي طبيعة الخلاف بين رجل
وزوجته . وعاد يسأل الرجل :

ولكن لماذا أصبح هذا الخلاف حادا الى هذه
الدرجة . اليسست هي زوجتك !

يقول الرجل : بلى واحبها !

تقول الزوجة : كذاب يا حضرة القاضي ! كان
يحبني فيما مضى . اما الآن فلا . . ضحك على
حتى جعلني اترك اهلي وديني . وبعد ان تمكن
مني ، وصلنا الى ما نحن عليه .

يقول الرجل : ولكن ما الذي نحن عليه . . انه خلاف اخترعته .
وهي التي طلبت ان اجيء اليك وان تكون مشاكلكنا مضائح . لماذا
اصبحت لمضائح ضعلت انا امام الراى العام . ولكن لن اغير موقفى .

يقول القاضي : كنت تحبها !

— نعم . ولا أزال .
هي تقول : كان يحبني !

القاضي : في وقت من الأوقات كان هناك حب . . ومنجاة تغير كل شيء .

الاثنان يقولان في نفس واحد : نعم ! .

القاضي : منذ متى ؟

الاثنان : منذ أسبوع .

القاضي : وانتما متزوجان منذ متى ؟

الاثنان : منذ أسبوع !

والقضية ليست عاطفية . وانما جلس هذان الزوجان من أبناء البرتغال يحلمان بعدد الأطفال الذي سوف يكون . قالت الزوجة : أريدكم جميعا من البنات . وقال الرجل : بل من الأولاد . .

واتفق الاثنان على أن يكون ثلاثة من الأولاد واثنان من البنات . وجلس الزوجان يحلمان ويفكران في أحسن الأسماء . وقالت الزوجة : أنت الذي تحسن الكلام والتعبير . وهذا هو الذي جعلني أموت لميك هياما . . أنت تختار الأسماء . أنا آتي لك بالأولاد والبنات وأنت الذي تسمى هذه الذرية الصالحة أن شاء الله . .

ومنجاة صرخ الزوج : وجدت الأسماء . .

وسمعت الزوجة الأسماء وصرخت . ولعلبت خديها . وشسقت ثوبها .

وقالت : الطلاق .. لا حياة معك . انت رجل مجنون !

اما لماذا هو مجنون فقد اختار هذه الاسماء لاولاده : النمر ..
الليل .. الخريت - للذكور . اما الاناث : الغزالة .. النسفاة ..

ولم يكن الرجل يداعب زوجته . ولا يريد ان يطلقها . وانما هو
« ابن عصره » . وفي ذلك العصر انشغل ابناء اوربا بالحيوانات
القادمة من الشرق . وراوا فيها اجمل واروع ما خلق الله .

صحيح ان كولبوس اكتشف امريكا ولكنه فتح ابواب الشرق : الى
امريكا وآسيا .. والى الهند .. واصبح كل الذين يرتادون الطرق
الى الشرق السحري ، اهم من الذين يزحفون على امريكا ، بل ان
الرحلة فاسكو داجاما اهم من كولبوس .. وامريكا اهم من امريكا
.. وهزيمة الاسطول التركي في المياه اليونانية ، اروع عند الاسبان
من كل معاركهم وفتوحاتهم .. واصبحت هدايا قبائل افريقيا اعظم
واغلى عند اهل البرتغال من كل ما يجيء من مستعمراتهم الكبرى :
البرازيل ..

وفي القرن السابع عشر اعلن اديب اسبانيا العظيم سرقاتس : ان
مدينة لشبونة هي مركز الدنيا . اليها يجيء الذهب . ومنها يخرج
الرجال الى مجاهل الشرق الساحر الباهر ..

واصبح من مظاهر الثراء عند الناس في اوربا ان يستعرض كل
منهم ما لديه من حيوانات غريبة .. فكان الذي يمشى في شوارع
مدريد يرى الحيوانات من نوافذ البيوت .. ويرى الطيور الملونة ..
ويسرعة تحولت القصور الى حظائر للحيوانات الامريكية ..

ومن الغريب ان هذه الحيوانات لم تظهر في لوحات الفنانين . ولكن
في حالات نادرة ظهرت بعض الطيور باللوانها الراهية .

وكانت أشهر الحيوانات التى لفتت الأوربيين وشغلت الصيادين:
الأسد والفيل والنمر والضبع والنعامة والخرتيت .

وكان الإمبراطور الألماني فريدرش الثانى (١١٩٤ — ١٢٥٠) من
أكثر الناس حبا للحيوانات . وكان يقيم لها حديقة ملحقة بقصره .
وحقائق الحيوانات عادة استعارتها أوروبا من ملوك الشرق .

وبعد ذلك تعود الناس فى أوروبا أيضا أن يجدوا حقائق للحيوانات
ملحقة بقصور الملوك والنبلاء . وربما كانت أشهر حقائق الحيوان
فى أوروبا يملكها البابا بيوس العاشر (١٨٣٥ — ١٩١٤) وهو واحد
من أسرة مدينتشى الشهيرة العريقة . وكان هذا البابا يحب الحيوانات
ويرعاها ويدعو إلى الرحمة بها والمطف عليها . وكان يعطف على
الفنانين . « فالفنان حيوان يحب الحيوان . لأنه يحب الحياة وجمال
الحياة وحكمة الله » .

وحدث قبل ذلك عندما زار البابا بيوس الثانى (١٥٠٤ — ١٥٦٤)
أحد النبلاء من أسرة مدينتشى أن أقام له موكبا فخما . وجعل الحيوانات
تتقدم هذا الموكب . ووقف الناس يتفرجون على هذه المخلوقات
العجيبة . وكان عدد هذه الحيوانات كبيرا . ولكن لم تكد الأسود
ترى بعضها البعض حتى أفلتت من قيودها . وتحولت إلى أشلاء
ودماء . . الا زرافة . هذه الزرافة كانت هدية من أحد سلاطين
ممالك مصر إلى أسرة مدينتشى . ويقال أن أحد الشعراء قد
ارتجل قصيدة عندما جاءت هذه الزرافة إلى مدينة فلورن .

يقول في قصيدته : طال كل شيء عليك . عفتك وسيفتك
الأربع وأنتك وأنتك .. أما عينك فهما مسروقتان من
وجه حبيبتي .. أما لونك فمستعار من براكين صقلية .. أما
مقامك العالي فلا يعيبه إلا أن رأسك صغير وعقلك أيضا .. ولكن
ليس من الضروري أن يكون الجميل عاقلا .. يكفى أن يكون الجمال
والجميل أكبر لصين لكل العقول » .

وهناك يوم في تاريخ الإنسان أو في تاريخ المفاهرات أو في تاريخ
الحيوان لا ينساه أحد عندما أرسل ملك البرتغال ماثويل هدية إلى
بابا الفاتيكان بيوس العاشر . الهدية : فيل واثنان من النمر وضبع
قد ركب حصانا عربيا . أما الخرتيت الذي أرسله الملك ماثويل فقد
فرقت به السفينة في البحر الأبيض .. ويقال أن الخرتيت ظل يضرب
السفينة حتى خرقها واندمجت المياه . وألقى الخرتيت بنفسه في
البحر ..

ومشى الموكب في شوارع روما .. والناس يتفرجون على أعاجيب
الهدية الأمريكية . ودقت أجراس الكنائس .. ووقف البابا يشير
إلى أن تضرب المدافع .. وانطلقت المدافع ووقف الفيل على رجليه
الخليقتين ورفع زلومته إلى أعلى يحيى البابا والكرادلة أمراء الكنيسة
.. وبسرعة تقدم أحد الحرس الملكي البرتغالي بثلاثة جرادل من
الماء المعطر .. ووضعها أمام الفيل .. ومد الفيل خرطوميه وملاء
بالماء وراح يرش البابا والكرادلة والناس يصرخون من الفرح ..
وكان يوما مشهودا في تاريخ الحيوان ، والعلاقة بين عرش البرتغال
وكنيسة روما !

وأرهب رجال الدين أنفسهم في شرح ما حدث . قالوا : إن الفكرة

هى أن يدرك الإنسان بوضوح أنه مهما كانت الحيوانات قوية ، فإن الإنسان هو الأقوى بذكائه . أن هذه الحيوانات قادرة على سحق أقوى الرجال ، ولكن الحيلة تغلب القوة . والفكاء يقهر الوحوش . . بهذه الحيوانات كلها قد احتل عليها الإنسان وأتى بها من غابات لتكون ذليلة ذلولا أمام أصغر الأطفال . ثم أنها مخلوقات الله . ومن الواجب العطف عليها ومحبتها !



وأول مظهر من مظاهر الحب والعطف والاعجاب كان بالحصان . أن تاريخ الحصان والإنسان طويل . فالحصان في العصور الوسطى كان « أداة » عسكرية يركبه الجندي المغطى بالحديد ، ويتغطى الحصان بالحديد ، ويدخل الاثنان المعارك حتى الموت — الحصان هو الذى يموت غالبا . وكان من الصعب على الإنسان أن يرى ملامح الحصان فهو مثل دبابة ذات أربع أرجل . ولكن أحدا لم يلتفت الى جمال ورشاقة هذا الحيوان النبيل . فهو وسيلة لشيء ، ولم يكن غاية . فلا أحد قد فكر فيه ، أو التفت اليه . . أو نظروا الى تركيبه الجسمى الجميل أو الى خطوته . . وإنما كان الحصان مصفحة أو قذيفة يركبها المقاتل .

ولكن بعض النبلاء الايطاليين في القرن السادس عشر نشبه فجأة الى أن هذا الحيوان الجميل . يقول النبيل الايطالى فديريكو جريسونو في مذكراته : « كل شيء حدث فجأة . وكأنتى لم أر الحصان فى حياتى قط . . لقد نظرت اليه . . وتأملت . . وأحسست كأنتى نبى مكلف باعتقاد هذا الحيوان من الإنسان . . فهذا الحيوان شكله جميل ،

وخطوته قوية ناممة . وحركته رشيقة .. وهامته مرفوعة .. انه
واحد من النبلاء هجر حياة الانسان واحتبس في هذه القلعة المضمّة
من اللحم والشحم . ان هذا الحيوان أسير، وأنا الذى سوف أحرره»

وبدا النبيل جريسونة يعلم الحصان كيف يخطو . وكيف يقفز من
نوق الحواجز .. والمنتج مدرسة لتعليم الخيول . او على الاصح
ليعلم الناس كيف يعاملون الخيول، بما تستحقه من التقدير والاحترام
والحب ..

وانتشرت اخبار هذه المدرسة . وجاء النبلاء . وجاءت الخيول
وتعانق الانسان والحيوان في اطارات من الحركة الجميلة . ويمكن
ان تسمى هذه الحركة الفروسية : اى ان يكون الانسان في سمو
الحصان وفي جماله .. وان يكون شهما نبيلًا . محبا للحياة والحيوان
والانسان ..

ومن بعده جاء رجل ايطالى آخر اسمه بنياتللى . هذا الرجل هو
الذى وجه الدموة الى بلاط الملوك والامراء وهو الذى وجد الشجاعة
ليقول : « مولاي » صاحب الجلالة يجب الا يكون القصر الملكى
زريبة للخيول . وانما يجب ان يكون مقرا شتويا وصيفيا لعدد من
الاصدقاء الأوفياء لهم أربع أرجل وذيل وعنق وبشرة حريرية لامعة
.. يجب ان يكون النبلاء والامراء اصدقاء للخيول ، اى اصدقاء لطراز
من الكائنات تعلمت منها معنى الشرف والشهامة والشجاعة والجمال
والاناقة .. مولاي صاحب الجلالة .. ان كل قصر يضم خيولا تاكل
وتشرب من أجل أن تموت في القتال ، ليست الا مجزرة الا زريبة
ملكية .. مولاي أنت حر في اختيار اصدقائك واصفيائك .. ولكن

يجب ، يا مولاي ، ألا تنسى هذه العبارة التي تعلمتها من الخيول : قل لي كيف تعامل حصلتك أقل لك من أنت .

وجاءت الخيول بالملكات والنبلات بالالوف الى « أكاديمية تعليم الانسان كيف يمشى كالحصان » في مدينة نابلي الإيطالية . وكان بنيافلي يعلم الخيول كيف تمشي على الايقاع الموسيقي . وكيف ترقص وحدها . . أو قد أمطأها أحد النبلاء . . أن مصرا من احترام الانسان للانسان أو للحيوان قد بدأ . . وكانت البداية هذه المعاملة النبيلة لحيوانات أكثر نبلا هي : الخيول !



ولاسباب متعلقة بمزاج الشعب الاسباني ، لقيت الثيران نوعا آخر من المعاملة . فمصارعة الثيران قديمة . ويقال قديمة جدا لدرجة أن علماء الآثار يجدون نقوشا على الكهوف القديمة لثيران قد أصابها السهام . وهي تنزف وتجري . . والانسان لم يظهر في هذه النقوش . أما لأنه من المفهوم انه هو الذي أصابها ، أو لأن رسام النقوش أراد أن يقول أن الثيران كانت أسرع منه في الهرب لدرجة أنه لم يستطع أن يلحق بها فيظهر في هذه النقوش !

ويقال أن هذه الثيران متعددة الأصول . بعضها ثيران أوربية وحشية . . وبعضها هذه الثيران جاء من أفريقيا . . ومن مصر . وبعض الثيران تشبه الأبقار اللرمونية القديمة .

وتقصص ، الثيران ونواحيها في تاريخ أسبانيا والبرتغال كثيرة جدا ،

ولا تزال . . يقال أن الملك الفونسو السابع ، أحد ملوك البرتغال أقام مصارعة للثيران بمناسبة تنويجه . ولم يكف بالدماء التي سالت في هذه الحفلة ، فقرر أن يتولى هو إطلاق السهام على عشرين ثورا حتى قتلها والجماهير سعيدة بهارة ملكها !

وعندئذ ولد للملك الاسباني كارلوس الخامس ابنه فيليب الثاني سنة ١٥٢٧ قرر الملك بهذه المناسبة السعيدة أن تقام مصارعة للثيران . وان يكون هو فارسها الأوحده . وظل يقتل من الثيران حتى همسوا في أذنه بأنه لم تبق في المملكة ثيران . قال : انن تؤجل الحفلة يا سادة الى أن تجيء ثيران أخرى من بلاد أخرى !

ويقال أن السياسي الإيطالي الكبير الاسباني الاصل شيزاره بورجيا (١٤٧٦ - ١٥٠٧) قرر أن يتسلى في إحدى الليالي . وكان له عشرون ثورا في إحدى القلاع . . فظل يطلق عليها السهام حتى قتلها في ليلة بدأت بغروب الشمس حتى مطلعها . فنقلوه الى فراشه مرهقا وهو يقول : لقد كان عملي شاقا هذه الليلة !

وكان من عادة النبلاء في إسبانيا أن يصارعوا الثيران وهم على ظهر الخيل . حتى اذا هاجمتهم الثيران انلحوا في الهرب منها . وفي عصر الملكة ايزابيلا غطيت قرون الثيران . ولكن الجماهير لم تسعد بذلك . . فاهتدى الأسبان الى طريقة جديدة تجعل قرون الثيران حادة محببة لكي تكون منزعمة لمصارعي الثيران وللمتفرجين . .

وفي البرتغال كانوا يضعون طبقة من الجلد على قرون الثيران . . وعلى الرغم من أن مصارعة الثيران نوع من الرياضة العنيفة ،

فإن شكلها أقرب إلى الصيد منه إلى الرياضة.. فالمصارع لا يذهب الثور بعنف ، وإنما هو يصيده ، ويقتله في النهاية .. فهم يضعون الثور في حظيرة مظلمة لبضعة أيام ثم يفتحون الحظيرة فجأة ويخرج الثور إلى النور . ثم يجيء من يمسك له غطاء أحمر داميا .. ثم من يضربه بالرماح .. ثم يصيب كتفيه ويسيل دماؤه .. كل ذلك لكي يثور الثور . فإذا ثار وهاج ، تقدم الفارس أو « المتادور » — ومعناها الجزار — وراح يعاكس الثور ويدور به حتى يدوخ . فإذا داخ انقض عليه .. ومن العجيب أن الثور يخرج من الحظيرة مرهقا . وكأنه يعرف ما سوف يحدث له ، فانه لا يريد أن يشترك في صراع مع احد .. بل انه يريد أن يهرب من النور إلى الظلام ، غير أن باب الحظيرة قد أفلق .. وليس له إلا أن يقاوم ، وهو مرهق تملأ .. فكان المصارع قد خرج يصارع حيوانات مكدودة . ولكن الجماهير تصرخ .. وأحيانا الأعمرة النارية .. ولابد أن يقتله ، سواء صارعة أو لم يصرعه .. لأن الجماهير لا ترضى بما دون الدم وموت الثور . والرقص والغناء للبطل الذي قتل الثور أمام ملايين العيون في كل مكان .

وأصبحت مصارعة الثيران مهنة . حرفة .. غالية الثمن .. ومريحة . وأصبح للثيران تاريخ . وهم يحرصون على اختيارها وتربيتها . وهم لا يطلقون سراح الثور بعد المعركة ، ولا يحيلونه إلى التقاعد ثم يأكلون لحمه بعد ذلك .. لابد أن يموت !

وحاولت إسبانيا كثيرا أن تشغل الناس بمصارعة الديوك .. ولكن هذه المصارعة موجودة في المستعمرات الإسبانية القديمة .. نجدها في الفلبين ، وبعض الجزر الآسيوية .. وهذه المصارعة تلقى نفس الاهتمام ، ولكن أحدا لا يستطيع أن يقيم مصارعة للثيران لأنها غالية الثمن .. ولكن هناك مقامرات على الديوك التي تشترك في

المصارعة او فى القتال . . ويضعون الامواس والسكاكين القاطعة
فى أرجل الديوك . فلا يكاد يبدأ الشجار بين الديوك عندما ترتفع فى
الهواء وتضرب الخصوم بأرجلها ، حتى تسيل الدماء . .

وبقيت مصارعة الثيران هى « الرياضة » العنيفة التى يقبل عليها
الأسبان . . ويعرفون تاريخ ثيرانها وإبطالها . . هؤلاء الأبطال الذين
اتاروا الفرع بين المتفرجين : وهاتوا بالمال والمجد فى النهاية ، من
مئات السنين ، وحتى اليوم !



من يعرف الإنسان كثيرا يحشم الحيوان أكثر !

• على باب إحدى خلايا النحل وقف رجل انجليزي في دهشة . وانتهت دهشته بأن صرخ ، فقد أسعته نحلة . وعاد الى البيت ليقول : شيء فظيع . كذب كل ما قاله الشعراء . الحقيقة شيء آخر . . ان هؤلاء الشعراء قد أخروا الحضارة الانسانية الوف السنين . لو أستطيع ان أجمعهم في مكان واحد وأطلق عليهم النحل . . لو أستطيع نك لأرحت الانسانية كلها ! . .

ولم يستطع هذا الكاتب مندفع أن يحشر الشعراء في خلية واحدة ويستريح منهم . ما الذي حدث لهذا الكاتب الانجليزي سنة ١٧٢٠ ؟ لقد رأى إحدى خلايا النحل . ووجد بها حركة ونشاطا عظيما . ومجأة وجد النحل يتزاحم على دبور ، طردوه . ثم عاد الى الخلية . طردوه وعاد مرة ثانية وأخيرا تكاثرت النحل عليه . . وسقط الدبور ميتا !

واندهش الرجل كيف يحدث هذا في مملكة النحل . كان رأيه مثل

الشعراء انها مملكة تصنع العسل بالدموع . مملكة تكرم المراه وتقبلها حاكمة عليها . . وان خلية النحل تطعم الملكة لتكبر الملكة ويتحول الجميع الى خدام لها . . كل ذلك يتم في هدوء وسلام . . والنتيجة عسل . ولكن هذا الحادث الاليم جعله يعاود التفكير في احوال هذه الخلية . . وأصدر الكاتب الانجليزى كتابا عنوانه « خلية النحل او كيف تتحول الرذائل الشخصية الى فضيلة عامة » يقول:

هذه الخلية قائمة على الظلم . فالنحل الشغال يعمل . وهناك انواع اخرى من النحل لا تعمل . وانما تدور حول الملكة وتحميها وتتابعها . النحل الشغال يجمع الرحيق من كل مكان ويفسره ولا يذوقه . والملكة لا تقوم بأى دور سوى أن تأكل وتشرب وتبيض ويقول في كتابه أيضا ان النحل طلب من آلهة الاغريق أن تعاونه ولكن الالهة لعبت من انتاذ النحل من نفسه وخربت الخلايا وماتت الملكة واحترق النحل الشغال . أما الدبابير فتدأوت الى جذب نحلة وماتت أياها للموت بعدها بقليل .

وهاجت الحكومة الانجليزية ولعنت هذا الكتاب واتهمت المؤلف بأنه يريد المساد الاخلاقيات العامة . . وانه يهاجم النظام الملكى . . وانه يريد أن يشوه كل شىء جميل فى هذه الدنيا . . وانه هو الذى يقوم بدور الدبور وانه سوف يلتقى نفس المصير . . ولم يلتقى الرجل نفس المصير ، وانما عاش الكتاب بعد ذلك مئات السنين كصورة جميلة لمحاولة اصلاح الانسان !

وبعد ذلك بسنوات ظهر تسييس ايرلندى اسمه سوينت . وقد وضع فى جيبه نسخة من كتاب مطبوع تحت اسم مستعار ، اسسم

ابن أخيه . الكتاب اسمه : « رحلات في بلاد بعيدة لجينفر » كان طبيبا
أول الأمر ثم بحارا لعدة سفن بعد ذلك . . « ومن مقامرات جيلفر
هذا أن سفينته قد رست عند أرض سكانها من الخيول أن الخيول
أذكى وأشجع وأعتل وأكثر نبلا . ولكنها تجد صعوبة في الكلام . وفي
هذه الأرض تسمع من حيوان منحنط غبي . وأن هذه الخيول
تحاول أن تروضه وأن تعلمه ولكن يبدو أنه لا أمل في ذلك . . هذا
الحيوان الذى تسميه الخيول « ياهوه » ليس الا الانسان نفسه ا

كان جيلفر يريد أن يقول : أن الانسان ليس أسمى الحيوانات .
وانما هو حيوان من نوع ردىء ولكنه لن يتأكد من ذلك الا اذا سافر
الى بلاد أخرى .

وعلى الرغم من أن رحلات جيلفر من أروع الأعمال الأدبية
والفلسفية ، فان هذه الرحلات قد أصبحت قصصا للأطفال ذات
دلالة أخلاقية . أو ذات مغزى فلسفى . . ولكنها رغم ذلك من الأعمال
الابقى والأمتع .

وقبل هذه المقارنات الساخرة بين الانسان والحيوان ، أو بين
الانسان والحشرات ، وجدنا في عصر النهضة تسائلا استغرق مئات
السنين : لماذا نجد الانسان يقتل الانسان ، أن الحيوانات لا تفعل
ذلك ؟ أيهما الحيوان : الانسان أم الحيوان ؟

وكانت الاجابات كثيرة .

ومن بين الاجابات في عصر النهضة ان الانسان حيوان لانه قليل

الدين . ولو عرف الدين ، لارتفع بالايمان عن مستوى الحيوان . ولكن
الانسان حريص على كهره ، فأصبح هذا الحيوان الكريه . وان
الانسان قد حلت به لعنة الخطيئة الاولى . خطيئة آدم في الجنة عندما
اكل من الشجرة التي حرمها الله عليه وعلى زوجته .

ثم ظلت المقارنة بين الانسان وبين الحيوان فترة طويلة . فاذا
أراد الانسان أن يفهم نفسه نظر الى هذه الحيوانات . لان هذه
الحيوانات ليست الا نوعا من الانسان عاجزة عن التعبير ولانها
عاجزة عن التعبير فهي عاجزة عن الكذب واخفاء مشاعرها . فهي
أصدق من الانسان . أى أن الحيوان هو الانسان قبل أن يتعلم
الكذب . فالحيوان أفضل من الانسان .

ولكن المعنى في كل عصر النهضة الاوربية هو هذه العبارة
البليغة التي قلها الفنان بأوبوتس من اللوف المينين : الانسان
ذنب لأخيه الانسان
Homo homini Lupus .

وحتى عندما قال الفيلسوف العظيم أرسطو : أن الانسان حيوان
سياسي
Zoon Politikon
لم يكن بذلك يرفع من قدر الانسان وإنما أراد أن يقول أنه حيوان
لايستطيع أن يعيش بمفرده . ولكن لابد أن يعيش مع الآخرين وبهم
والحيوانات تفعل ذلك أيضا !

نقط عندما ظهر الساخر الفرنسي الكبير مونتشي بدأ الفكر الانساني
كله يتجه ناحية أخرى . فهذا الفيلسوف الفرنسي يقول : لا اظن
أن الانسان أفضل من الحيوان . انه أخط من الحيوان . واعتقد

اننى تجنيت على الحيوان عندما وصفته بأنه منحط . فالانسان هو الذى قال انه اسى من الحيوان . وهو قال ذلك لانه مفرور فقط .

فلا توجد صفة واحدة عند الانسان لا نجد صفة افضل منها عند الحيوان فالحيوان اقوى واشجع . وأكثر تضحية من أهل الزوجة والابن . ان نكور الذئب نفدى انثاه وصغارها بالموت فى مقدمة القطيع ودفاعا عن الجميع . . وان الحيوانات أكثر نبلا من الانسان . . ان الطيور تفرغ بطونها فى بطون صغارها وتكاد تموت من الجوع . . ان الاسد يصيد الفريسة ثم يتركها لبقية الحيوانات فى الغابة ويجد المتعة الكبرى فى ان يرى الجميع تفعل ذلك . . ارونى حاكما يفعل ذلك من أجل شعبه !

ثم ان الحيوانات محبة للسلام . انها لا تشن الحروب . ولا تعتدى على أحد . كل ما تريده هو أن تظل فى مكانها تأكل وتشرب فى هدوء . . الا اذا هاجمها أحد . ويكون هذا الأحد هو الانسان عادة . فهو الغاشم المعتدى والحيوانات هى الضحية !

واذا اشتبكت الحيوانات مع الانسان فى عراك فلبعض الوقت ، وبعد ذلك تهدأ أو تسكن كأن شيئا لم يحدث ، وكان دماء لم تسيل ، وكان صغارا لم تمت .

وتوجد حيوانات يساعد بعضها البعض . . يقول مونتني : انه رأى عددا من الطيور المهاجرة قد تقاربت وتلاحقت لانها تحمل طائرا مهبط الجناح . ورأى هذه الطيور تقوم بعملية ندليك لبعضلات الطائر . . فهى تشد ريشه بمنقارها . . ثم ترخى هذا الريش مرة

بعد مرة .. ثم تبلل جراحه بريقتها .. يوما بعد يوم .. حتى تمكن الطائر من الارتفاع في الجو .. ولما لم يستطع أن يطير ، عادت لحملته على أجنحتها وركبت الهواء !

ويروى الفيلسوف مونتني أن هناك حيوانات لها فكاهة الإنسان ، ولها خبثه أيضا . ولكن الإنسان قد تفوق على الحيوان بخياله وقدرته على الإبداع ..

والفضل الوحيد للفيلسوف الفرنسي مونتني هو أنه لغت العيون والافكار الى الحيوان وإلى الإنسان .. وإلى تقريب المسافة بين الاثنين .

وأهم من ذلك يقول مونتني : كل ما مملته هو أنني سحبت الإنسان من أمله ووضعته في الفخاخ الحيوان وتركته هناك . ثم نظرت الى الناس جميعا لأقول لهم : تعالوا نخبركم كلانا جميعا : أين هو الإنسان وأين هو الحيوان !

ومونتني هو أول من وضع أسس « علم النفس الحيواني » أو علم نفس الحيوان .

وكثير من أفكار الفيلسوف الفرنسي مونتني ليست جديدة ولكنه استطاع بسخريته الشديدة وفكائه الحاد أن يضعها في عبارة جميلة .

ولكن هل للحيوان « نفس » كالتي للإنسان ؟ هل الإنسان فقط

هو الذى له نفس وله روح .. أى ان الحيوان بلا نفس ولا روح
وانما مجرد حياة : أن يولد ويكبر ثم يموت دون أن يدري من هذه
الدنيا شيئا ؟

مفكرون كثيرون قالوا : الحيوان ليس له نفس .. الإنسان فقط
هو الذى له نفس ماقلة . انه يتكلم . يكتب . يتفكر . أما الحيوان
فليس له نفس . واذا ضربته على رأسه لمن يقول : آه .. وما دام
لم يتوجع هكذا فليس له احساس !

وهناك فرق كبير جدا بين كلب يلق امامك يلعب بذيله يريد منك
قطعة لحم ، وبين طفل ينظر اليك يريد نفس الشيء .. الطفل فقط
هو الذى يعرف معنى اللحم والفرق بين اللحم والعظم !

وجاء فيلسوف المائى كبير اسمه ليبنتس يقول : لا فرق بين الشاعر
والحمار .. كل واحد منهما جسمه مكون من ذرات . هذه الذرات
هى بذور الحياة نفسها . فالإنسان هو هذه الأشياء الصغيرة .
والحيوان كذلك . ولكن ذرات الإنسان أو « بذور حياة » الإنسان
أحسن لو أمقل من (بذور حياة) الحيوان .. ولكن كل إنسان
وحيوان مكون من بذور الحياة أو ذرات الحياة . أو من الحياة
البخرية أو الحياة اللرية .

ولما ظهر الميكروسكوب ونظرنا الى الخلية الحية الميتة .. أو
الحيوان المنوى للإنسان والحيوان كانت النتيجة واحدة .. فتحت
الميكروسكوب توجد حياة تروح وتجيء هذه الأشياء الصغيرة الحية

هى « متافيت الحياة » وكل شىء فى الدنيا يبدأ من هنا .. ولا فرق بين الخلية لانسان أو حيوان أو نبات .. فالكلى واحد . والله اراد أن يكون كل شىء واحدا . هذا الكلى الواحد قليل على قدرة الله .. فالكلى امام الله صغير جدا .. فالانسان ليس اكبر من الحيوان ، والحيوان ليس ارفع من النبات .. الكلى ليس الا كلمات أو مفردات فى قاموس الكون الاعظم من تأليف الله جل جلاله !

ومن ستة قرون فى أوروبا وصفوا الحيوان بأنه آلة .. مجرد تكوينات فوق بعضها البعض تروح وتجيء .. انظر الى الكلب .. انه ظلك .. يمشى ورامك ولا يفكر فى هذا الذى يفعله .. والقطة .. والحيوانات المفترسة تراك فتهرب .. أو تراك فتتهجم عليك دون أن تقدر أن كان الذى فى يدك عصا أو مدفع .. انها آلات مندفعة .. فلا عقل لها !

وأصبحت كلمة « الآلة » صفة للحيوان ، واهانة للانسان طبعاً . حتى تقدمت صناعة الآلات فى القرن الثامن عشر .. وأصبحت الآلات دقيقة ومعقدة . وقائمة على كثير من النظريات الهندسية . هنا فقط أصبحت كلمة الآلة شرفاً للانسان إذا وصلناه بها . بل الانسان يطمح لو كان آلة دقيقة مضبوطة . تعمل باتقان ولا تحابى احداً . وأصبح المجتمع كله جهازاً ضخماً ، أو يجب أن يكون كذلك .. ولذلك لم يعد الحيوان آلة . ولم يصبح الانسان آلة ، وانما هو يحلم بأن يكون فى استمرارها ونزاهتها !

وكانت فلسفة القرن الثامن عشر رداً حقيقياً على فلسفة رجل فرنسى اسمه « لا متركى » . هذا الرجل يقول ان الانسان

والحيوان كليهما آلة . وانه لا فرق بين انسان وحيوان . وانما الحيوان كان من الممكن ان يكون انسانا لو أعطى الفرصة . . تماما كما ان الخادم كان من الممكن ان يكون السيد ، وان يكون السيد خادما لو تغيرت الظروف . اخن : أعطوا الحيوان الفرصة لكي يكون انسانا ايها الناس !

ويقول لامترى أيضا : القروء : مثلا ما الذى ينقصها ؟ الكلام ! لو روضناها لو دربناها لقالت كثيرا كالانسان !

ويقول أيضا : ان هناك أنواعا مختلفة من الحشرات اذا حطمتها دبت الحياة في كل جزء من أجزائها . . الحدودة تقسمها نصفين . . كل نصف يتحرك وكأنك لم تفعل شيئا . . ولكن الانسان اذا قطعت يده أو ساقه . . ماتت اليد والساق . . واذا انكسر رأسه أو نزعتم قلبه مات . . ومعنى ذلك ان حياة الانسان أضيق نطاقا . . وانه اسهل كسرا وموتا من احقر الحشرات .

والذى قاله هذا المفكر الفرنسى ليس دقيقا . ولكنه أثار الكنيسة واغضب المجتمع السياسى فى فرنسا واستدعاه الامبراطور الالمانى فريدريش الاول وطلب اليه ان يبقى بعيدا عن الغضب الفرنسى على كل المستويات . والمفكر لامترى لا يعرف ان عددا كبيرا من العلماء حاول يائسا ان يعلم القروء كيف تنطق ، فلم يفلحوا . فالقروء عاجزة تماما عن الكلام .

ثم ان ما تحتاجه الحدودة من مراكز عصبية بسيطة يجعلها تتحرك

يمينا وشمالا بنصلها أو ربيعها .. ولكن الانسان جهل شديد التطور
وشديد التعقيد .

وكانت وفاة هذا الفيلسوف نكتة ضحكت لها أوروبا وشمنت فيها
الكنيسة وقتا طويلا . أن وفاته تفكرنا بوفاة الخديو المصري
اسماعيل فقد جلس هذا الكاتب مع بعض اصديقه . وكانت أمامه
فطيرة محشوة بالتفاح وزجاجة من الشمبانيا . وكان يملأ فمه من
الشمبانيا وتراهن مع اصديقه أنه يستطيع أن يدخل الفطيرة في
فمه دون أن تسيل قطرة شمبانيا من بين شفتيه .. وفعلها مرة وفي
المررة الثانية ، مات مختنقا اما الخديو اسماعيل فكان يضع زجاجتين
من الشمبانيا في فمه وقد استلقى على ظهره وجعل يفرغ الزجاجتين
في وقت واحد — ومات هو أيضا !

ولكن الشعور العام في أوروبا في العصور الحديثة : أن الحيوان
أكثر نبلا من الانسان — منتهى اليأس من الانسان !

ولم يكن الفيلسوف الالماني المثائم شوبنهاور مبالغا عندما فكر
قبل أن يموت بقليل أن يلتقى بأمواله في البحر ولما سئل عن ذلك
قال : أن احدا لا يستحقها من بعدى !

ولما سئل مرة أخرى : ولا حتى كلبك !

فنعض واقفا : أنا الكلب حقيقة . فقد نسيت هذا الذي اخلص
لى في كل الظروف !

ثم أوصى بأمواله كلها الى كلبه !

والفيلسوف الالماني نيتشه كان يحب الفتاة اليهودية سالومي وكان
ينافسه في حبها العالم اليهودي فرويد والشاعر الالماني ريلكه ..
ولم يتفق الثلاثة على شيء لانهم جميعا مختلفون تماما .. واخيرا
قرروا ان يقيموا لها حفلة تكريم .. غاتوا بعربة واركبوها العربة
واعطوها كرياجا .. ثم سحبوا العربة .. كأنهم خيول أو حمير لها !

وعندما ذهب الفيلسوف نيتشه الى مدينة ميلانو الإيطالية رأى في
ميدانها أمام حصان جميل .. فراح يجرى وراءه ويصرخ ويمانقه :
يا ابنك كلن يمشي على أربع أو على اثنين !



هو يسقط الريش يطيء !

« لو كان يقول أى شيء » — ولم يقبل
حيوان الكابتن أى شيء . وإنما ظل الكابتن
كوك الذى اكتشف استراليا وعشرات الجزر
يتأمل هذا الحيوان العجيب الذى ليس له نظير فى
القارات الأربع . وكتب فى مذكراته يقول : له
راس غزال وله ذيل طويل وإذا مشى فانه يقفز
كالضفدعة .

ثم مضى الكابتن كوك فى وصف هذا الحيوان . كيف يأكل وكيف
يشرب . ورغم قدرته الهائلة على الملاحظة فانه لم يفتبه الى أن
هذا الحيوان يحمل صفاره فى جيب فى بطنه . ولم يعترف أن هذا
الحيوان الذى يصل طوله الى عشرة اقدام متدما يضع صفاره فى
الواحد منها يكون طوله بوصة فقط !

ولم يكن هذا هو الحيوان الوحيد فى استراليا أو القارة الجديدة ،
وإنما هناك حيوانات أخرى انقرضت مثل هذا الحيوان الذى كان
بمسيده البدائيون ليأكلوا لحمه ويمسده الأوروبيون ليسلخوا

جلده .. والبداثيون هم الذين أطلقوا عليه هذا الاسم . ويقال أن
سبب هذه التسمية أن هذا الحيوان عندما يولد فانه ينطق كلمة :
كانج .. وعندما يموت فآخر كلماته كلمة : رو ..

ومعنى ذلك أن البداثيين يريدون أن يقولوا أن الحيوان يولد ليموت !
— هذه العبارة قالها الفلاسفة الوجوديون في خمسينات هذا القرن
وصفقتنا لهم طويلا لاكتشافهم هذه الحقيقة المؤلمة !

وعندما زرت حديقة الحيوانات في مدينة سيدنى باستراليا لم أجد
إلا ثلاثة من الكانجرو . وسألت أن كان هذا الحيوان قد أصبح نادرا .
فكان الرد نعم . حتى أن جزيرة في مدخل خليج سسالت لمنسنت
اسمها « جزيرة الكانجرو » أصبح الآن اسمها : جزيرة الكانجرو
سابقا .. أو جزيرة الـ .. حيوان الذي كان هنا !



وأهم ما جاء في مذكرات الكابتن جيمس كوك في سنة ١٧٧١ هذه
العبارة : انشغلنا جدا بهذه الحيوانات الغريبة والطيسور
المعجبة ومن أين جاءت وكيف جاءت .. ولكن لم يتسع وقتي لنهم
أشياء كثيرة فمن الأشياء التي لاحظتها أن حيوان الكانجرو هذا إذا
مرض امتنع عن الطعام ، وانزوى وحده وأبعد صفاره عنه ..
وأحيانا تجيء تلك أخريات وتتولى كل واحدة إطعام هذه الصفار
.. وإذا أحس هذا الحيوان بأنه سوف يموت ، فانه يحفر الأرض
بقدميه الاماميتين .. وكلما كانت الحفرة عميقة كان اقترابه من
الموت .. فإذا مات فانه يفرغ في حفرة .. ولا يسكن تبالا الا وقد

انهال عليه التراب كله . . كأنه حفر قبراً ثم دفن نفسه فيه تماماً .»

والكابتن كوك يكرر ما شغل العلماء والاطباء من الؤف السنين .
فهم جميعاً كانوا ينظرون الى الحيوان بهيام ويقتسارنون بينه وبين
الانسان . وعندما يريدون أن يعرفوا الانسان يفتحون بطن الحيوان .
يريدون أن يعرفوا جلد الانسان فيسلخوا جلد الحيوان . يريدون أن
يعرفوا ما الذى يصفه قلب الانسان فيفتحوا قلب الحيوان . . ان
العالم الفرنسى هارفى عندما اهتدى الى الدورة الدموية كان ذلك عن
طريق تأملاته وتشريحاته للحيوانات . . والعالم الكبير مالبيجى عرف
التنفس عند الحيوان عندما أخذ يكتفم انفس الحيوان . بل انه قد
اهتدى الى الكريات الحمراء عندما رأى ذلك فى حيوان القنفذ . وكان
يظن أن هذه الكريات هى أنواع من الدهن . . ثم انه نقل دم الكلاب
بعضها الى بعض ، قبل أن ينقل دم الاغنام الى الانسان .

وعندما اهتدى الانسان فى اوائل القرن الثامن عشر الى الجهاز
العصبى كان ذلك عن طريق تعذيب الحيوانات بالابر والنار ،
ليلاً ونهار . . هنا أدرك الأطباء والعلماء ، أن الأجهزة التى تحرك
الانسان هى نفسها التى تحرك الحيوان . . وان للجميع اعصاباً
وان هذه الاعصاب تمسك كل أعضائه وعضلاته . . وتؤثر على
وظائفه — يكفى أن ننظر الى هذه الحيوانات ا

ولا شئ يدل على طموح الانسان ورغبته المستمرة فى العلو
والتخلص من متاعب المسافات بين الناس وبين البسلاد ، مثل
عجابه بالطيور وخفنها ورشاققتها فى الحركة وركوب الهواء . . كل

النقوش القديمة تدل على هذا الإعجاب بالصقور والنسور . ولكن
الإنسان نفسه لم يعجب بالذباب مع انه اعجوبة الحشرات . !
لان الذباب مرتبط في ذهنه بالتقذارة وبانه يضايقه عند النوم والاكل .
واذا نظرنا الى تكوين الذبابة لوجدنا انه يفوق في اعجازه تكوين
النسر . . ان جناح الذبابة تحفة هندسية حيوية . ان سرعة الذبابة
في الطيران والانقضاض تذهل اعظم المهندسين . فسرعتها لا تتناسب
مع طول الاجنحة ومع جسمها . ولكن احدا لم يلتفت الى ذبابة .
وانما كان الانسان مشغولا بالطيران . . وعند الاغريق ، وفي
اساطيرهم الرائعة حكاية ديدالوس . . كان فنانا قاهرا على صناعة
الكثير من الادوات التي استخدمها الفلاح والطبيب والمهندس . وهو
الذي اخترع شراع السفن . هو ايضا الذي اخترع الدفة
والسفارة والمصيدة . وكان عبقرية عظيمة . يكره ان يناهسه احد .
ويبدو ان له ابن اخت سوف يكون اعظم ، فالتقى به من النافذة ومات
الشباب قتلا . وهرب العبقرى الشرير الى احدى الجزر . وصنع
لاحدى الملكات سجنا لا يمكن ان يهرب منه احد ، لكثرة سراديبه .
ولكنها لم تأمن اليه . وخشي ان يهرب ويصنع سجنا مماثلا في
جزيرة اخرى والملكة اخرى . فحبسته في هذا السجن . واستطاع
ان يصنع لنفسه ولابنه الصغير ايكاروس جناحين من الريش الطويل
والصق الريش بالشمع . وهرب الاب وابنه . . ويقال ان ابنه
ارتفع في السماء فاذابت الشمس الشمع من جناحيه وسقط الابن
ميتا . . اما الاب فنزل في احدى الجزر . ويقال انهم وجدوه ميتا
ووجدوا حبالا طويلة في عنقه . . ووجدوا في هذه الحبال عشرات
من النسور . . يبدو انه كان يريد هذه النسور ان تحمله . . ان
تطير به الى مكان بعيد . ولكن النسور حملته بعض الوقت وشحته
جانبية الارض ، فمات وماتت النسور !

وقد حاول أحد علماء الاندلس واسمه عباس بن فرناس أن يطير

هو أيضا . وكانت محاولته في القرن الخامس الميلادي . وغطى جسمه بالريش وألقى بنفسه من جبل .. وحمله الريش قليلا .. ثم سقط ميتا وارتفع الريش في الهواء ..

ولم تمت فكرة الطيران عند الإنسان وإنما تجددت في كل العصور .. على القرن الثامن عشر في فرنسا ، حاول كثيرون أن يستخدموا بالونات الورق في الطيران . ولم يفضلوا على الورق بالون الحرير . وارتفع الورق وهبط على مدى قريب . وفي سنة ١٧٨٣ ارتفع من باريس بالون ورق . وهبط البالون بعد مسافة عشرين كيلو مترا . ولم يكذ الملاحون يرون البالون الطائر ، حتى ظنوا أن القمر نفسه قد سقط من السماء . واقتربوا منه . ومزقوه . وربطوا البالون المحطم في ذيل أحد الخيول ، وراحوا ينقلونه بين القرى ، احتفالا بالنصر . فأصدرت الحكومة الفرنسية بيانا تصف فيه هذه التجربة وتؤكد أهميتها للإنسانية . وأنه لا خوف على أحد ولا ضرر له في ماله وعياله .

وفي ١٩ سبتمبر ١٧٨٣ ارتفع بالون أكبر ومن الورق أيضا . وكان صاحب البالون أكثر خيالا وأهبط طموحا . فعلق في البالون صندوقا من الخشب . وفي الصندوق خروف ونجاجة وبطة . وارتفع البالون ، ومضى تحمله الريح بعيدا . ثم هبط . ونزلت الحيوانات منه سالمة .. وبعد ذلك بسنوات ركب البالون بعض المغامرين وعبروا به المائس . واتجه الإنسان إلى أساليب وحيل جديدة في صناعة الأجنحة الهندسية لكي تطير به من مكان إلى مكان أبعد وأسرع من الطيور نفسها . ويكفي أن ننظر إلى شركات شركات الطيران العالمية لنجد أن هذه المراكبات ليست إلا مباراة رائعة في تصوير معنى الطيران والطيور . فكل هذه المراكبات تشير إلى حيلة الحركة ورشاشتها

وسلامتها هبوطا من الجو وصعودا اليه .. كأنها طيور آمنة مطمئنة
لا خوف عليها ، ولا خوف منها على أحد !

فلاعجاب بالطيور وتقليدها ومحاولة فهمها ليكن مهم الإنسان
هو هدف العلماء من الوف السنين . وليست الطيور وحدها التي
يريد الإنسان أن يتخذها وسيلة لفهم الإنسان . وإنما كل الحيوانات ،
ومن أقدم العصور كان الملوك يهدون أطباءهم أناسا مجرمين
ليجربوا فيهم الممارط والمساكين . فالملك كان يفتح السجون للطبيب
الخاص ليختار واحدا من هؤلاء النزلاء ليشرح جثته ويعرف ما هي
هذه الحياة .. ما القلب ما الكبد ما الأمعاء .. ما المعدة .. وكان
يحدث ذلك في مصر الفرعونية وفي مارس القديمة ..

وكان رجال الدين في كل العصور يحرمون قتل الحيوان بقصد
البحث العلمى . وإنما يرون القتل للصيد أو للأكل ممكنا .. أما
إسالة دم الحيوان وتقطيع أطرافه ، مهما كان الهدف نبيلًا فشيء
حرام . ولعل الثنان العظيم ليوناردو دافنشى قد هرب الى روما
لهذا السبب . فقد كان يريد أن يشرح جثة خنزير أو بقرة ليعرف
تكوين المسيقان والرأس . وكان يعلم أن رجال الدين يرغبون هذه
النظرة العلمية الواقعية للأشياء . ولا يرون فيها إلا خروجًا على
الدين ..

وعندما انتشر القتل بالسم كان الملوك ، وخصوصا لويس الرابع
مشر ، يطلبون الى الأطباء أن يذوقوا الطعام قبلهم .. وأحيانا يموت
الأطباء ، ثم لجأ الملوك الى استخدام المجرمين واللصوص الذين
يعتقلونهم في مكان خاص بالقرب من القصور .. وأخيرا اهتدى

الاطباء الى وسيلة لاتقاذ ارواحهم هم ، غاثوا بالحيوانات يطعمونها
ما يقدمونه للملك .. وكان السم أحيانا شديداً فيطوى الحيوان
تحت قدمى الملك .. فيرفض الملك الطعام أيما من شدة الخوف ..



ومن حوالى مائة سنة فقط ، ظهر شعور انسانى يجرم أوروبا
كلها ويدعو الى الرأى بالحيوان والرحمة به . فهو أيضا يتألم ويتعذب
مثلنا . والذي يرحم الانسان ، هو نفسه الذى يرحم الحيوان .
والذى يتسو على الحيوان هو نفسه الذى يعذب الانسان . ولذلك
يجب أن نتواصى بالرحمة بهذه المخلوقات لنكون رحماء بأنفسنا ..
والاطفال يجب أن نعلمهم حب الحيوانات ليحبوا بعضهم بعضا .

بل اننا رأينا الفيلسوف الفرنسى جان جاك روسو يدعو الى أن
نعلم الاطفال الرحمة بالحيوان حتى اذا كبروا كرهوا القسوة على
أحد من الناس ..

وقبل روسو بعشرين قرنا اتهم الملك الهندى اشوكا أول مستثنى
للحيوانات المريضة ، وجعل علاجها اجباريا . وكان يقول : لا أصدق
أن أبا يحب أطفاله ، اذا رأى كلبا مريضا ولم يساعده بلقمة أو قليل
من اللبن .. لا أصدق أن الأم لا تأكل بניהا ، اذا رأت هرة تلد ثم
القت عليها بالتراب ، لأنها تتشامم من منظر الحيوان وهو يلد !

وفى أيام الحروب كانت تقام الحظائر للخيول . ولكن اذا مرض
حصان قتلوه . حتى لا تنتقل عدواه الى بقية الخيول !

حتى كانت سنة ١٧٤١ . في هذا العام أقام رجل فرنسى اسمه كلود بوجيلا مدرسة يعلم الناس فيها كيف يعالجون الحيوانات . مدرسة للطب البيطرى . صحيح كانت هناك محاولات مماثلة وضيقة النطاق في هولندا أو سويسرا أو بروسيا . ولكن هذه المدرسة الفرنسية اكتسبت شهرة عالمية . وجاءها طلاب الطب والعلاج من كل مكان . وكانت هذه المدرسة تنصح الطالب : بأن يكون انسانا في معاملة الحيوان .. وان يؤمن ايمانا مطلقا بأن هذا الحيوان ، لأسباب لا نعرفها ، عاجز عن الكلام .. أى عاجز عن الشكوى من العطش والجوع أو الألم .. وان هذه الحيوانات تحب من يحبها — والكلب أكبر دليل على ذلك . وأن في هذه الحيوانات شهامة وتبلا — الحصان أقوى دليل على ذلك ..

وظهر من هذه المدرسة عدد كبير من الأطباء لعلاج الحيوانات التى تنفع الانسان : الحيوانات التى ناكل لحمها أو نبيع جلدها أو نجر العربات أو تحرس له العربى والحصان والبيت ..

ولا تزال في العالم عشرات الآلاف من مستشفيات الحيوان .. وآلاف المجلات للحيوان .. ومئات الشركات تعد الطعام الخاص للحيوان والطيور . وعشرات من أصحاب الملايين يتركون ثرواتهم للحيوان — حبا في الحيوان ، أو كرها في الانسان !

ويوم ارتفعت الكلبة لاىكا في احدى سفن الغضاء تدور حول العالم ثارت جمعيات الرفق بالحيوان . تقول : وحشية .. جريمة ! ..

مع ان في المعامل في كل مكان آلاف الحيوانات تموت لغذاء الانسان . ولكن هذه القلوب الرحيمة بالكلبة لاىكا نسيت الاتجار العلمى

المظيم الذى رفع الكلب تمهيدا لارتفاع عشرات من رواد الفضاء ..
مئات الكلبة لايتا ودفنت في قبر من نوع غريب ، قبر يدور حول
الناس وعلى ارتفاع مئات الكيلو مترات من الارض وبسرعة عشرات
الآلاف من الاميال في الساعة ..

وكانت هذه الجنزة المجيبة التى اشترك فيها كل سكان الارض :
جنزة حارة والميت كلب ا



لونا الأرنيب قليلاً تذكرنا المسحفة !

✽ في القرن الثامن عشر تكاد أدى الناس تلك
المعنى الذي جاء في الكتاب المقدس : ان الناس
ولدوا ليندموا على أنهم ولدوا .. فقد كانت
الحياة قاسية : ارهاق ومرض وموت بعد ذلك .
ولا يتسع وقت الانسان ليسأل نفسه : صحيح
ما معنى هذا كله ؟ ماذا أخذت ؟ ماذا أعطيت ؟
ما الذي يبقى مني لاحد من الناس . والجواب
عادة : لا شيء ! كان الناس ولدوا ليكونوا بعد
ذلك : لا شيء ، كما كانوا قبل أن يولدوا — انها
نظرة مثل الحياة ومثل مداخل المصانع الجديدة :
بسوداء ! ..

وفي سنة ١٣٨٤ أعلن البابا كليمنس السادس أن عدد الأوروبيين
الذين أبادهم « الموت الاسود » ذلك المرض اللعين قد بلغ ٤٢ مليوناً !
ولم يكن المرض هو الحاصد الوحيد للأرواح . لانه اذا لم يكن
مرض اخترع الانسان الحروب . واذا لم تكن حروب اخترع الانسان

الكراهية التي تؤدي الى القتل — اثنان من اولاد آدم قد فعلا ذلك
وكان عدد سكان الأرض أيامها ستة أشخاص !

كما أن حرب المائة عام هدت حيل فرنسا .. وحرب الثلاثين عاما
مزقت قلب ألمانيا ..

وفي إنجلترا جاءت حرب الخمسين عاما لمطاحت بالكثير من
الرجال والشباب ..

ولم تفت هذه الظاهرة عددا من المؤرخين ، الذين وضعوا سائلا
على ساق وقالوا : ان هذا يحدث كل عشرين سنوات ، ويجب أن نتوقع
ذلك ، فالنساء يلدن والرجال يحصدون ماوضعتة النساء .. وبذلك
يظل عدد سكان العالم رقما ثابتا ، انها حكمة السماء منذ نزل ثمانية
من البشر من سفينة نوح فوق جبل أرارات !

ولكن ما هذا الذي يجرى بين الناس .. انهم يتزايدون رغم ذلك ،
والطعام لا يكتفيهم ، ولا بد أن يجد الانسان وسيلة ليكون هناك طعام
من النباتات ومن الحيوانات .. ليكون هناك كساء وفطشاء
ومشروبات ومساكن ليوالى الانسان زيادة عدده ورفاهيته ، ويموت
من ابنائه أقل عدد ممكن .

وفي احدى القصص التي ظهرت في أواخر القرن الثامن عشر يقول
الكاتب : لم نعرف بالضبط كيف يجرى هؤلاء الاطفال ، أن الرجال
عادة يخطنون في عدد اولادهم الشرعيين وغير الشرعيين .. ولكن

الامهات لا يخطئن ، ويستحيل عليهن ذلك . فالام تحمل طفلها تسعة شهور ، ولكن الرجل يحمل ذلك الطفل ساعة او اقل من ذلك كثيرا ، فالرجل لا يدري به ولكن الام تعرف ذلك جيدا ولن يتحمس الرجال لان يكون عندهم اولاد اقل . . ولكنها المرأة هي التي يجب ان تفعل شيئا — ن نساء الاغريق ضربن ازواجهن لان الرجال يدخلون الفراش دون ان يضعوا في شعورهم شيئا من العطر ، او على اجسادهم شيئا من الزيت الذي يكسب الرجل حيوية وقدرة على امتاع المرأة . . فلتفعل المرأة شيئا .

والمعنى هو ان الكاتب يطلب الى المرأة ان ترغس الرجل حتى لا يقربها وحتى لا يزيد عدد الناس في كل مكان . . ومن حقها ان تفعل ذلك فهي التي تتعب وهي التي تتعذب . اما الرجال فلا يشعرون بشيء . . وهذه القصة الانجليزية تذكرنا بموقف قديم قبل ذلك بآلاف سنة . عندما اختلف ابو الاسود الدؤلى مع زوجته على الطلاق وحضانة الاطفال قالت الزوجة امام القاضي : انا تعبت انا حملت اطفالى . انا اولى بهم . . قال الزوج : انا حملت الطفل قبل ان تحمليه انت . قالت الزوجة : انت حملته في ظهرك خفيها ، وانا حملته في بطنى ثقيل .

وحكم القاضي للزوجة بحضانة الاطفال ا

واستطاع قسيس انجليزى ان يحدد بالضبط مشكلة تزايد السكان في العالم انه القسيس مالثوس . وكان ذلك سنة ١٧٩٨ عندما أصدر كتابا بلا امضاء . . انه يقول : ان الطعام في العالم يتزايد بصورة حسابية : ١ — ٢ — ٣ — ٤ بينما يتزايد عدد سكان العالم بصورة هندسية ٢ — ٤ — ٨ — ١٦ وهكذا .

ومعنى ذلك أن الطعام لن يكفى الإنسان ، وأن الإنسان يعيش ويكبر ليصوت جوعاً ، إلا إذا توقف الإنسان عن النمو ، أو إلا إذا ضاعف طعامه وشرابه بنفس السرعة ، ويبدو أن هذا غير ممكن فالمطلوب من الإنسان أن يتوقف عن التكاثر .

وهذا القسيس يقول : وليس من مصلحة الإنسان أن يوفر الطعام الكثير لأنه كلما زاد الطعام تزايد عدد الناس فكان الطعام يؤدي الى النتيجة غير المطلوبة . . فالأفضل هو ألا نزيد الطعام حتى يموت الناس من الجوع . ويكون الجوع هو أول منظم للنسل ومحدد له ، أو يبحث الناس عن طريقة لانقاص عددهم .

يقول القسيس مالثوس : صحيح أن الأرنب والسلحفاة لو دخلا في سباق فمن المؤكد أن الأرنب هو الذى سوف يصل الى الهدف أسرع . لا شك فى ذلك ولكن لو طلبنا من الأرنب أن ينام قليلاً فى الطريق فإن السلحفاة سوف تصل قبل الأرنب ، أو تصل معه فى وقت واحد !

وسارعت الهيئات الدينية بتفسيرات جديدة لتحديد النسل ، فالإنسان حيوان تحكمه الغريزة ، ولذلك لا يستطيع أن يحدد عدد صفاره . ولكن الإنسان يتصرف بالعقل ولذلك يجب أن يستخدم عقله ، وقال القساوسة فى أوروبا فى ذلك الوقت : الطهارة بأرجال . . الطهارة . فالذى يعف عن الجنس هو الذى يجد الرغبة لمجزاء العفة أن تجد الطعام والشراب . . والنزوات عقابها الجوع !

أما رجال الصناعات وأصحاب رعوس الأموال فقد انزعجوا ، لأن

تحديد النسل معناه أن يصبح عدد العمال أقل . لماذا قل عددهم
ارتفعت أجورهم ، وإذا ارتفعت أجورهم نقص ما يكسبه أصحاب
المصانع والمتاجر . . ولذلك وقفوا ضد التسييس مالثوس الذي
يدعو إلى تخريب بيوت المال في أوروبا كلها !

وقال السياسيون المحافظون : بل يجب أن يحدد الناس نسلهم،
والأ زاد عدد الجوع ، لماذا زاد عددهم قاموا بثورة كثورة فرنسية،
وأطاحوا بالملكية في إنجلترا . وقلبوا الأوضاع واختلت الموازين
والقيم الاجتماعية . . ولذلك لمنظريه التسييس مالثوس هي أعظم
ما اكتشف الإنسان في كل العصور !

وأخذت الجامعات تلقى عليه نياشينها العلمية ، وتطلب إليه أن
يحاضر فيها ، فهو الذي وضع أصابعه على داء البشرية ، وأقوى
قوى التاريخ الإنساني !

ولو نظرنا إلى عالم الحيوان لوجدنا شسلياً مخيفاً ، على عالم
الأسماك مثلاً : نجد أن أنثى سمك الرنجة تضع أربعين ألف بيضة
بينما تضع سمك موسى تسعة ملايين بيضة والسلامون تضع
ثمانية وعشرين مليون بيضة . . وسرطان البحر الأمريكي يضع
مائة مليون بيضة ، وهذا يتكرر خمس مرات في السنة .

وفي عالم الحشرات : نجد أن ملكة النحل تضع في السنوات الثلاث
الأولى خمسة ملايين بيضة .

أما الضفدعة فأنها تبيض ٥٤ ألف مليون بيضة في السنوات الثلاث

الاولى من حياتها ، وربما كان هذا هو السر في أن عدد الضئاع في العالم يتوازن دائما — هناك الكثير في كل مكان في أى وقت !



وهناك مسافة كبيرة جدا بين عدد البيضى وعدد البيض الذى تم إخصابه . . وهذه المسافة تصبح أوضح وأكبر في الإنسان ، وعدد الحيوانات المنوية عند الرجل طول حياته تقدر بالوف الملايين وعدد البويضات عند المرأة مئات الألوف . . ولكن لابد من حيوان واحد من الرجل لبويضة واحدة من المرأة ليكون هناك طفل .

ولأن المرأة لا تقوى على حمل أكثر من طفل فإن هذه الحيوانات المنوية والبويضات لا ضرورة لها . . وفي عالم الحيوان والحشرات نجد أن الذكر ليست له أهميته . لماذا قتل أو أكلته الانثى فإن الطبيعة لا تخسر شيئا بالمرءة ، بل إن الملايين من البويضات المخصبة تحل محله بسرعة ، فالذكر ليس شيئا هاما لكى تستمر الحياة .

ولو كانت كل الحيوانات المنوية عند الرجل تلتحم بكل بويضات المرأة لكان عدد سكان الأرض ضعف هذا العدد بالوف الملايين من المرات . ولكن انثى الرجل هى التى تحدد النسل . ومن المعروف أن المرأة لا تستطيع أن تحمل أكثر من عشرين مرة في العمر كله . . وهذه هى الحالة النادرة ، ولكنها عادة لا تتجاوز الثلاثة أو الأربعة اقليلًا . . وهذا ينطبق أيضا على كل الحيوانات الأخرى التى يأكلها الإنسان !

والأغنياء وحدهم هم الذين انشغلوا كثيرا بعدد أطفالهم وبالجوع .
لهم لا يريدون لأطفالهم أن يجوعوا . أما الفقراء فإن الجوع
لا يشغلهم . لأنهم الجوع نفسه ، والفقراء كلما أشد بهم الجوع ،
احسوا باقتراب الموت ، وأصيبوا بحالة نهم جنسى ، فيزداد عددهم
.. لهذا زاد عدد الفقراء الذين ازدادوا فقرا !

ولابد أن ينشغل الناس عموما بالبحث عن موارد للطعام ، لتوسيع
رقعة الأرض المزروعة عشبا ، أو بالهجرة الى بلاد أخرى ،
الاييرلنديون هربوا من أرضهم القاحلة الى أمريكا ، الانجليز رفضوا
أن يتركوا أرضهم ، ولذلك زاد عددهم وزادت مصانعهم ، ولكن حدث
شيء غريب : زادت الافة أمام الناس ، فكانوا يجدون الكساء
ولا يجدون الغذاء وقتلوا عن أنفسهم : اتنا وجدنا الشيء الذى يدق
الجلد ، ولا يدق المعدة !

ولكن الانجليز وجدوا الأيدي الكافية لإدارة مصانعهم ، وكانت
هذه المصانع للنسيج ، ولم يتوانر لديهم نفس هذا العدد من مصانع
الطعام .

بدأ الانجليز — مثلا — يستوردون طعامهم من الخارج ، أما
ملابسهم ، فمن الداخل .

وبعض أصحاب الأغنام أرسلوها الى الأرجنتين حيث الجو أفضل
والطعام أوفر ، وبعضهم أرسل مئات الأغنام التى أصبحت مئات
الالوف ، الى استراليا ..

وكانت المشكلة هى نقل هذه الحيوانات بعد أن تعبت وسممت
الى أوروبا ، ولكن أكثر هذه الأغنام كان يموت فى الطريق وكانت
أمراض الحيوانات تنفث بسرعة — وتهلك سفنا بأكملها .

وفي ذلك الوقت اخترع رجل استرالى سفينة تنقل لحوم الأغنام والأبقار الى أوروبا ، وكانت السفينة تقوم بتبريد اللحوم ، وكان ذلك انقلاها في صناعة التغذية ولكن الناس في أوروبا لم يستسيغوا اللحوم الباردة .. وكانت هذه اللحوم طعام الفقراء . أما الأغنياء فيفضلون اللحوم الحية .. يرونها ويذبحونها ..

ولكن رجلا فرنسيا اسمه طيبسه سنة ١٨٧٧ اخترع « ثلاجة » وكانت الثلاجة على شكل سفينة ، فهذه السفينة تنقل اللحوم مجمدة من الأرجنتين الى فرنسا وإنجلترا . وكانت رحلة السفينة تستغرق مائة يوم ، وتظل اللحوم مجمدة سليمة . وكان ذلك هو اعظم اختراع انقذ أوروبا كلها من الجوع . والتشرت الثلاجات العائمة في الموانئ الأوروبية والموانئ الأمريكية ، وانحلت مشكلة اللحوم الى حين وبقيت اللحوم المجمدة طعام الفقراء !

وإذا كانت الثلاجات قد انقذت الفقراء من الآلات الحديثة التي ظهرت في ذلك الوقت قد خربت بيوت الفقراء والآلات البخارية التي استخدمت في المواصلات وفي المصانع قد استغنت عن الأيدي العاملة ، وكان أصحاب المصانع حريصين على الآلات لأنها تختصر الأيدي العاملة وتوفر لهم المال ، وظل العداء قائما بين الآلات وبين الأيدي العاملة .. ولا يزال ..



وفي ذلك الوقت من أوائل القرن التاسع عشر ظهر سباق الخيل . وكان الإنسان لا يريد أن يصدق أن القطار أسرع من الحصان ، ولذلك بدأ الإنسان ينظم مسابقات الخيول ، وقبل تنظيم المسابقات كان يحرص على اقتناء أحسن سلالات الخيول . وأحسنها بالعمل تلك

التي جاءت من أصل عربي ، وهناك خيول أخرى مولدة : أضخم وأثقل وأطول سيقانا وأضخم عنقا ورأسا ، ولكن أفضل الخيول جميعا هي العربية الرشيدة .

وفي الوقت الذي أخذت إنجلترا بلعبة سباق الخيول ، اتجهت أسبانيا الى مصارعة الثيران ، حتى ثيران أسبانيا هي الاخرى قد جاءت من الشرق . بعض هذه الثيران مصرى فرعونى .

والقرن التاسع عشر يعرف اسماء عدد من الخيول قد فزت الحياة الاجتماعية ، فهناك الحصان الشهير « دارلى » الذي كسب ثلاثين سباقا وثمان عشرة كاسا فضية ، ولم يسبقه حصان واحد . بل ان أبناءه من الخيول وهي معروفة الاسم ، قد بلغ عددها ٣٤٤ حصانا ، قد عادت الى أصحابها بمليون جنيه ١ .

وأصبح من المألوف جدا في أوروبا كتابة تاريخ حياة الحصان ، أصله ومن أين جاء ، وأولاده بالاسم ، وأماكنهم وأحجامهم ، والسباقات التي اشتركت فيها .

وفي إنجلترا تأسس نادى الجوكى سنة ١٧٥٠ ، وبعد ذلك بثلاثين عاما بدأ اللورد دربى السباق المشهور المعروف باسمه حتى الآن . . وكان هذا السباق متعة كبرى ومعرضة دولية لتشارك أجمل وأقوى الخيول في السباق والمراهنه .

وربما كان نابليون بونابرت هو أول من اخترع فكرة أرض السباق ، وأن تكون الأرض ناعمة وأن يكون الطريق أمام الحصان ممهدا . فقد أرسل له أخوه لوسيان خطابا يستأذنه في إقامة سباق العربات . ولكن نابليون اعترض على سباق العربات التي تجرها الخيول لانها لعبة اغريقية قديمة ، وأن العربات تعوق الحركة وأن الاغريق كانوا

يتسابقون بالعربات لأنهم كانوا يحاربون من فوق العربات وبها ..
أمام على أيام نابليون فكانوا يحاربون من فوق ظهور الخيول ،
فالسباق بالخيول هو مناسبة للتدريب على القتال ولذلك . أمر
نابليون بعمل أرض للسباق وتسويتها وتغطيتها بالعشب فيتمكن
الحصان من الانطلاق ، وإذا سقط من فوقه الفارس فلا تكون أصابته
خطرة !

وانتشرت لعبة السباق في أوروبا كلها ، وأصبح الأغنياء يتباهون
بأن لديهم أحسن الخيول وأكثرها عدداً وبأن لديهم أصطبلات فخمة ..
وإذا كان الأغنياء قد انشغلوا بتربية الخيول فإن الفقراء قد وجدوا
لهم لعبة أخرى : السيرك .. ففي السيرك تلعب الخيول والحيوانات
الأخرى ... فالسيرك متعة أرخص ، وفي نفس الوقت فرصة لأن
يتفوق الفقراء على الأغنياء بالبراعة والصبر في مواجهة الأسود
والتمور وركوب الخيول .. والتصفيق للاعبين المهرة : أي للفقراء
من أمثالهم ..

وعندما يتعب الفقراء من التفرجة على السيرك ، فانهم يذهبون
الى حديقة الحيوانات ، ففيها الحيوانات من كل نوع جاءت من آخر
الدنيا لتكون جاهزة لتسليةهم في أى وقت !

« وبعد ذلك يذهب الناس الى بيوتهم سعداء بها راوا ، وبأنهم
قد عوضوا ما فانهم من امتلاك الخيول ، بالنظر اليهم والاعجاب
بأصحابها .. وينامون في الليل ، ويولد الأطفال في الصباح » —
كما يقول الكاتب الإيطالي البرنو مورافيا .

لنى احسدى قصص مورافيا يجىء الرجل الذى يعد السكان
ويسأل : كم عدد الأطفال منكمم ، فتقول الأم : عشرة .

ويقول موظف التعداد : تقولين عشرة ؟ .. ياه ! عشرة !
ويرد الزوج : نعم يا سيدة عشرة .. ليس عندنا راديو
ولا تليفزيون ، وانك فحن ننام في ساعة مبكرة !
— معقول .. ويمضى الرجل يدق ابواب البيوت الأخرى عينه
على الباب والعين الأخرى على السطح ، ليرى ان كان عندهم
تليفزيون !
وفي نفس الوقت تتزايد الحشرات بالكوف الملايين ويصرخ الانسان
من الجوع في آسيا وأفريقيا !



نظرية التطور ! رد لاعتبار الحيوان !

كانت محاكمة العصر كله . فقد اجتمع العلماء
ورجال الدين وكانت الراهبات يمسكن المقاديل
ويشترن بها الى تلك القس الوسيم الرشيق الذي
جلس متحفزا ليدافع عن الدين عن كل سطر جاء
في الكتاب المقدس . عن ان الانسان الاول كان
اسمه آدم . وان البشرية كلها قد جاءت من
سلالته . . . وامام هذا القس واحد من العلماء
اسمه هكسلي جاء يدافع عن نظرية تقول ان
الحيوانات تتطور . . . وربما كان الانسان اصله
قرود . وليس ذلك بعيدا فالتشابه شديد جدا
بينهما .

دخل العالم الكبير وجلس في مواجهة القس . فقال له القس
متسائلا مستكبرا : اريد ان اعرف منك ان كان جدك لامك او لابيكَ
قردا ؟ . .

وضحك الحاضرون وهنأوا بعضهم البعض . ولكن العالم الكبير

قال له : يشرفنى أن يكون جدى من الناحيتين قردا .. ولا يشرفنى أن يكون واحداً مثلك يستخدم ذكاه وعقله فى مناقشة قضايا علمية لا يفهم فيها شيئاً !

وانتهت المناقشة فجأة بانتصار العالم الكبير هكسلى . أى انتصار فلسفة دارون التى كانت قد هزت الفكر والحياة فى أوروبا كلها فى منتصف القرن التاسع عشر !

ومعندما سمع دارون هذه المناظرة قال : كان من السهل جداً أن أموت لجرد أن اتصور أن أحداً سوف يحاكمنى هكذا ..

فلم يكن دارون ذلك الرجل القوى القادر على المناقشة والمناورة . وإنما كان رجلاً هزيلاً مريضاً .. فعندما سافر فى رحلته الشهيرة لمدة خمس سنوات إلى أمريكا وأستراليا كان عمره ٢٢ عاماً . وكان أضعف المسافرين . وكان يعمل فى هذه البأخرة العلمية باحثاً فى الحيوانات والنباتات . ولم يكن أحد يتصور أن تشارلز دارون هذا من الممكن أن يكون شيئاً هاماً فى التاريخ . ولم يخطر على بال أحد أن دارون هو كولبوس الجديد .. لماذا كان كولبوس قد اكتشف قارتى أمريكا ، فإن دارون قد اكتشف قارات من المعلومات العجيبة فى تاريخ النباتات والحيوان والإنسان . بل أن كل العلماء راحوا يدرسون من بعده تاريخ الحجارة والترايب .. لأن كل شيء له تاريخ وكل شيء على الأرض قد تغير وتطور .. فالتطور هو قانون الأشياء كلها ، كما أنه قانون الحيوانات كلها كما قال دارون .

وفى هذه الرحلة التى شاب فيها دارون من بلاده قد درس مينات

كثيرة جدا من النباتات والحيوانات .. واهتدى الى مجموعة من الأفكار .. ولكنه لم يجرؤ على أن يعلنها . فهو أولا ما يزال صغيرا ، ثم أن هذه الأفكار مختلفة تماما عن الأفكار السائدة أو «المسيدة» للهيئات العلمية كلها . ولذلك عندما أرسل لبعض أصدقائه من اكتشافاته جاءت عباراته خائفة مرتجفة ، كأنه يعترف بجريمة ارتكبها ، ولم يكن ذلك قصده . وإنما وجد نفسه أمام شيء جديد مختلف . وكان لابد أن يقول .. وقال .

وفي سنة ١٨٥٩ أصدر دارون كتابه عن « أصل الأنواع » ..

وكان هذا الكتاب نقطة تحول في التاريخ الإنساني والحيواني .

ولم يكن دارون أول من تحدث عن التطور تماما كما أن كريستوف كولمبس ليس أول من اكتشف أمريكا . وإنما تحدث عن تطور الكائنات كلها أناس كثيرون . بل أن عددا من الفلاسفة والعلماء تحدثوا عن التطور قبل دارون . وقبل أن يعرفوا أنه أصدر كتابا يشرح فيه خطوات تطور الحيوانات بعضها الى بعض حتى اقتربت من الإنسان .

وربما كان الفيلسوف الألماني هيجل هو أول من رسم خطوط التطور لكل شيء في الكون وأول من قال أن الأشياء تتطور بعضها . الى بعض . وأن الله قد وضع خريطة وسلام تصعد عليها الكائنات ونقا لهذه الخريطة . وأن التطور من حالة الى حالة هي سنة الكون كله ..

وربما كان الفيلسوف الألماني شوبنهاور هو أول من قدم للإنسانية

نظرية التطور التي تحدث عنها دارون . وكان شوبنهاور أمتع وأوضح من دارون . ولم يشك شوبنهاور لحظة واحدة في أن الإنسان أصله قرد . قال أن أبناء آسيا أصلهم أورنج تان . . وأبناء أفريقيا أصلهم من الشمبانزى . . ومات شوبنهاور بعد صدور كتاب دارون بعام واحد دون أن يقرأ منه أو منه سطرًا واحدًا . !

وكانت هناك نظريات كثيرة تفسر هذه التغيرات في تكوين الحيوانات نفسها . . لماذا رقبة الزرافة طويلة مثلاً ؟ يقول عالم فرنسي اسمه لامارك : أن الزرافة تنحدر من سلالة كانت تعيش في غابات . وكانت الغابات أشجاراً طويلة . فاضطرت الزرافة إلى أن تمد عنقها اللف السنين لكي تأكل الأوراق من قمم الأشجار . . وطال عنق الزرافة لهذا السبب . . ومعنى ذلك أن الحيوانات « تتكيف » مع البيئة . أو يجب أن تتكيف مع البيئة والا ماتت من الجوع . فالبيئة هي التي تؤدي إلى تغير تكوين الحيوانات . أو حرص الحيوانات على أن تعيش هو الذي يرغمها على أن تتغير وأن تتغير والا ماتت !

ونحن الآن لسنا بعبيدين عن دارون وفلسفته . فهو يرى أن الحياة صعبة على الجميع . وأن الحيوان يجب أن يقاوم العقبات . ومن هذه المقاومة تتولد صلابته . ومن الصلابة يكتسب القوة . ومن القوة يكتسب التغلب على البيئة . . لماذا تغلب عليها هاش . . وإذا لم يفلح في ذلك مات . وكل الحيوانات التي ماتت هي حيوانات قهرتها البيئة وغلبتها الظروف . وأول معالم الحياة هو الكفاح . والكفاح من

صفات الأقوى . والأقوى هو الذى يبقى . فالبقاء للأقوى . والأقوى هو الأصلح للحياة . . فالبقاء للأصلح . والحيوانات التى تعيش هى أصلح الحيوانات لأن تستمر . فإذا استمرت دخلت فى صراعات جديدة . وهذه الصراعات الجديدة تحتاج الى أسلحة جديدة والذى يجدد سلاحه هو الذى يبقى . والذى يبلى سلاحه هو الذى يفنى . وإذا كان الحيوان ينتقل من مكان فى الصيف الى مكان آخر فى الشتاء ، أو العكس فهو يختار الجو المناسب لحياته . . فالإنسان يختار ظروفه المواتية له . . ولكن الطبيعة كلها تختار الحيوان الأنسب . والإنسان الأقوى . فالاختيار الطبيعى هو اختيار الأحسن . والأحسن هو الأقوى والأقدر على أن يتكيف ويتواءم وأن يتلاءم ويتطابق مع ظروف حياته المادية والاجتماعية .

انتهى تفكير دارون بعد أن حشد له الوف الأمثلة من ملاحظاته الدقيقة جدا التى استغرقت أكثر من عشرين عاما !

وقد أرسل دارون خطابا لصديق له يقول : فى يوم وأنا انظر الى القمر يتوارى وراء السحب جاعتنى هذه الفكرة وكأنها صاعقة لمعت فى رأسى وهزتنى . واندذهشت كيف أننى لم أعرفها من قبل . لقد أدركت بوضوح أن الحيوانات لا يمكن أن تكون من أصل واحد ثابت . لا يمكن أن تكون قد قطعت ملايين السنين من الغابات والجبال تحت المطر فوق الجليد ، وفى الكهوف على السفوح فى حرب مستمرة ، دون أن يتغير فيها مخابها أو أنيابها أو أظفارها أو فراءها . . مستحيل . هذا ما اهدت إليه !

ولم يتصور دارون لحظة واحدة انه بهذه العبارات المتواضعة

قد زلزل العلم والدين . . فالعلم لم يكن يرى شيئا من ذلك . وإنما يرى العلماء أن القرد أصله قرد . . أما الدين فيرى أن القرد أصله قرد ، وأن الإنسان أصله آدم وحواء . . ولا علاقة بين القرد والادميين !

وفي يوم كان دارون يتناول طعام افطاره عندهما دخل الخادم بخطاب . . فتح الخطاب . انتفض واقفا واجما . ثم ألقى بنفسه على المقعد حزينا . . ولكن لم يستمر كذلك كثيرا . فقد أدرك أن حياته كلها في خطر . وأن سنوات بحثه وملاحظته كلها توشك أن تاكلها نيران المدفأة أمامه . . فالخطاب يقول له : أن رجلا اسمه والاس يعيش هنا في جزيرة الملايو . الرجل عالم جليل فقير . مريض . . لقد حبسته الملايا من أن يواصل رحلته إلى أوروبا . هذا الرجل يناجر في الفرائشات النادرة . ويبيع الحيوانات الجميلة لعدد كبير من الهواة والباحثين في أوروبا كلها . . فهو قد أرسل أكثر من عشرين ألف نوع من الفرائش والطيور إلى الهيئات العلمية . وهو يعيش من الصيد والتجارة . ولكن من المؤكد أن لديه كل مزايا العالم الكبير . . وقد هداه البحث إلى شيء جديد . . والرجل يقول أن أساس كل شيء في الحياة الانسانية والحيوانية هو التطور . وأن الحيوانات تكافح من أجل أن تبقى . والحيوانات التي تبقى هي الأقوى . . وكلام آخر كثير هو بالحرف الواحد ما قاله دارون !

ومن الغريب أن الرجلين قد خرجا بهذه الأسكار بعد أن قرأ كل منهما ما كتبه القس الانجليزى مالثوس عن تزايد السكان الذى سوف يؤدي إلى جوع الإنسان وفتائه . وكل واحد من الرجلين قد ذهب في طريق ليصل إلى نفس النتيجة !

وليس هذا هو الحادث الاول من نوعه في التاريخ . فكثيرا ما اهتدى العلماء الى نظريات واحدة في وقت واحد ، دون أن تكون بينهما صلة ما . . فقبلهما بمائتي سنة اهتدى المسالم الانجليزى نيوتن والفيلسوف الالماني ليبنتس الى منهج في الرياضيات واحد . . والى نظريات في «التفاضل والتكامل» متطابقة تماما . وسارع كل منهما باعلان نظريته الجديدة . . فكانت النظرية هي هي عند كل من الاثنين .

واهتدى دارون الى حل سميد حتى لا يتهم الرجل الآخر بأنه سرق أفكاره . وحتى لا يتهمه والاس بأنه هو الذى سرقه . فقرر دارون أن ينشر كتابه الذى ألفه في ٢٣١ صفحة على نفس البحث الذى كتبه والاس هذا . ونشر الكتابان معا . ولكن قدر لدارون أن يكون هو صاحب الاسم وصاحب النظرية وصاحب الثورة ايضا . . ولم تساعد الظروف والاس هذا ، فقد كان فقيرا وكان بعيدا عن لندن . ولم يكن لديه هذا الصبر على المتابعة . . ولذلك أصبح دارون هو صاحب نظرية التطور أو التطور نفسه أما والاس فهو « المصحف » . . أو هو من عجائب الصدق . ودخل تاريخ التطور الانساني على أنه فكتة : اذ كيف ان رجلا مريضا في احدى جزر الملايو يهلوس طول الليل ويمسك القلم ويدفعه أمامه على الورق طالما نازلا كآته ثعبان يهتدى الى أفكار رجل آخر في لندن مريض أيضا يظل يهرش طول الليل حتى يسيل دمه ، تماما كما كان يفعل نابليون . . ربما وجد علماء الدراسات الروحية فرصة عظيمة ليقولوا : ان الرجل المريض كان في حالة شفافية جعلته يقرأ أفكار دارون وينقلها حرفا حرفا . . بل سطر سطر . . مع أن المسافة بينهما عشرات الالوف من الاميال . . ثم أن الرجلين لايعرف احدهما الآخر !

شيء غريب هذا الذى حدث .. فعندما كان الانسان فى اوائل القرن التاسع عشر يفخر بأنه اخترع الآلة . وان هذه الآلة قد أغنته عن الحصان والحصار ، جاء علم الحياة وعلم السلالات يؤكد ان الحيوان هو اصل الانسان . فاذ كانت العلوم الميكانيكية تريد ان تفخر بأنها نقلت الانسان من عصر الاعتماد على سيقان الخيول وأمناق الأبقار وظهور البغال ، فان علوم الحياة قد أعادت الحيوانات الى مجدها .. بل انها هبطت بالانسان الى ما دون الحيوان .. بل انه ليس الا حلقة فى سلسلة تطورات الحيوان .. وانه ليس بعيدا ان ننظر الأجيال القادمة الى الانسان على انه حمار أو حصان .. وذلك عندما يتطور الانسان الى كائن آخر أفضل .. المهم فى نظرية دارون انها حركت كل شيء ودفعته الى الأمام .. او جعلت من الواجب ان يندفع الى الأمام .. لان الذى لا يتحول يتجمد . والذى لا يتطور يتدهور والذى لا يتقدم يموت .. وان هذه ليست ميزة خاصة بالانسان ، وانما الحيوان قد سبقه الى ذلك . فلا فضل كبيرا للانسان على الحيوان .. اما الآلة فهي من اختراع الانسان .. والآلة أبسط وأتفه من أى حيوان .. فالحيوان تحفة فى الخلق . وهذا ما ذهب اليه رجال الدين ، الذين حاولوا ان يجدوا لهم مكانا جديدا تحت شمس هذه النظرية . فاذ كان دارون قد هدم مفهوم الكتب المقدسة لأصل الانسان ، فان رجال الدين بسرعة قد استعانوا من النظرية الجديدة وتكيفوا معها حتى لا يتصلب الدين ورجال الدين وبغوتهم قطار التطور .. ولذلك كان رجال الدين أول من قفز الى القطار الجديد وركبوه حتى لاتضيع من تحتهم ومن أيديهم أهم أسرار الكون .

ولما توفى دارون يوم ١٩ أبريل سنة ١٨٨٢ أعلن رجال الدين أن

هذا الشيطان يجب الا يدفن في مقابر العظماء . ومن الخير لمول الشعب
الانجليزى ان ينفذ ما اوصى به وهو ان يدفن في حديقة قصره الريفى . .
ولكن سرعان ما عدل رجال الدين عن هذا الموقف الجامد ورحبوا
بان يدفن الى جوار عظيم آخر هو نيوتن . . فكلاهما عظيم فى الحياة
وفى المات وكلاهما خطوتان فى تطور علوم الطبيعة والحياة ! .



خلقها الله بحناية لتعضد علينا بإثقان!

✽ المواصلات الحديثة قربت المسافات بين المدن والدول والقارات . وأصبح من السهل أن يتحرك الإنسان وأن ينقل أمراضه من مكان إلى مكان بنفس السرعة . . . فالاتسان يركب السيارة والباخرة وينقل معه ميكروبات أو حشرات تحمل الميكروبات والموت إلى أي مكان . مثلاً في القرن السابع عشر انتقل مرض اسمه (الجذرة المخية) وهو مرض يصيب كل الحيوانات ، وينتقل إلى الإنسان . اسمه باليونانية انثراكس . والتسمية دقيقة . ولذلك ترجمه الألسان بأنه (الفصم) والفرنسيون وصفوه بأنه الكاريون .

لأن المرض عبارة عن احتراق داخلي للحيوان . ولم يعرف أحد كيف ينتقل من حيوان إلى حيوان إلى إنسان أو العكس . قالوا : أنه عفريت يركب الإنسان والحيوان ويشعل فيه النار من داخله . قالوا : لعنة من السماء حلت بالإنسان فنقلها إلى الحيوان . وقالوا : غضب الهى على الاثنين . .

ولكن الاطباء عندما نظروا تحت الميكروسكوب وجدوا ميكروبات على شكل مصى .. ووجدوها في الطحال . ولم يذهب احدا الى ابعد من ذلك .. حتى ظهر عالم المانى مجهول كان يعمل في غرفة ضيقة جدا في برلين .. هذا الرجل اسمه روبرت كوخ مبقرية فذة في الفهم والصبر وبعد النظر . وفي سنة ١٨٧٦ عرف كوخ أشياء كثيرة وأكدها بهدوء . وظل كوخ هذا يطارد الميكروبات في أسماء المصريين ومعدة الهنود وبراشيث اليابانيين وبعوض الأمريكيين .. وعرف الدوسنتريا ، وعرف الحمى الصفراء وعرف التيفوس والمalaria .. وكان كوخ هذا رجلا حكما وكان يقول : ان هذه الكائنات الصغيرة تحدثني بعبارات دقيقة جدا .. وأنا أحاول ان اسمعها بوضوح . وأنا أؤمن بأنها لا تكذب . بل اننى اعتمد على ذلك كل الاعتماد . ولهذا سوف أصل الى شيء ..

ومن الاكتشافات التى أذهلت كوخ هذا انه عندما وصل الى أواسط افريقيا اكتشف ان فبابة « تسي تسي » التى نصيب بالنوم حتى الموت كل من تلسعه ، بها دم تمساح . وبعد ذلك اكتشف ان التمساح هو أكبر خزان لميكروبات النوم ، وان لديه مناعة تامة ضد الإصابة بهذا المرض . وأعجب من ذلك انه عثر على تماسيح لاتنام الا نادرا !

واهتدى كوخ ايضا الى ان فئران السفن هى التى تنقل الأوبئة من بلد الى بلد ..

فانفئران السودان جاءت من الشرق فى سفن الصليبيين ..

فكان أوروبا قد لقيت ما تستحقه من عقاب .. جاءت تنشر الموت
والتعصب ، ومادت سفنها مليئة بالفئران تنشر فيها الطامعون
والأوبئة التي أكلت عشرات الملايين من الناس — الكوليرا مثلا !
ثم جاء الفار البنى اللون ..

على سنة ١٧٣٢ وقع زلزال عنيف .. ومزعت ملايين الفئران
واتجهت الى احد ضفاف نهر الفولجا عند مخينة استراخان ..
ولاسباب لا تعرفها الآن بوضوح قررت الهجرة .. وعبرت النهر
وغرق منها مليون مار على الأقل .. ولكن بقية الفئران وصلت الى
السلطنة . وواصلت زحفها الى الجنوب الى أوكرانيا .. ثم الى
الغرب الى بولندا . ثم الى بوهيميا .. ثم الى الشمال قليلا الى
بروسيا .. حتى وصلتها في سنة ١٧٤٠ .

وفي سنة ١٧٥٣ وقعت عند ابواب باريس ودخلت .. ونكاثرت
بسرعة ..

ووصل الفار البنى الى أمريكا في سنة ١٨٥١ .. واحتل
بجدارة المكان المتواضع الذي شغله الفار الأسود وراح ينقل
بهمة ونشاط امراض التيفوس وكثيرا جدا من امراض الفم
والقدمين ..

* * *

الى جانب شخصية العالم الالماني روبرت كوخ ظهرت شخصية
استولت على القارة الأوروبية كلها : باستور .. ذلك العالم

الفرنسى النحيف المشلول احدى السائقين .. هذا الرجل لم يكن الناس ينظرون اليه على انه طبيب أو باحث وانما على انه رجل حين يعالج الناس بالمعجزة . فهو انسان طيب . أو رجل مبارك . وهو نفسه كان يعتمد على احساس داخلى بأنه سوف ينجح .. وأنه سوف يشفى المرضى بالذن الله . لماذا ؟ لا يعرف ؟ كيف ؟ لا يعرف . ولكن هذا يحدث له ومعه ويسببه كثيرا جدا .

هذا الرجل هو من ذلك الطراز من الناس الذى لا يخاف الناس .. أى لا يخاف أن تكون له أفكار خاصة مختلفة من أفكار الناس .. وأن له أحلاما أخرى يكذبها الواقع . ولكنه وحده الذى يصدقها .. أنها حياة قاسية جدا : أن يكون الانسان وحده مع أفكاره . أو أن يكون الانسان مثل خرستوف كولبوس وكل الناس يسخرون منه ولكنه مؤمن بأنه على حق .. أو مثل نوح عليه السلام يبني سفينة على الأرض . والناس يمرون به ضاحكين ولكن نوح كان يؤمن بأن السماء سوف تمطر وأن الطوفان سيجتاح كل الناس وسوف ينجو هو بأهله من الغرق .. وعلى الرغم من أن نوحا هذا قد أنقذ الناس والحيوانات ، فإنه لم يفلح في أن يخلص ابنه بأن يركب معه .. فنجا الناس وغرق ابنه .. وكذلك العالم الكبير باستور الذى عالج الكثيرين من الناس وشفاهم ، لم يفلح في علاج ائرب الاثريين اليه .. وماتوا .. ولكن الملايين شفاهم أو أنقذهم قبل أن يصيبهم مرض .

واستطاع باستور ومعسده أن يحتفظا بهذه السمعة العالمية المحترمة .. من أواخر القرن التاسع عشر حتى اليوم .. بل أنه حدث أخيرا جسدا أن أصيب بالتسمم بعض زبائن مطعم في مدينة

لابلاتا بالأرجنتين . مات منهم عشرون . فأرسلوا عينات من الطعام ومن المصابين إلى معهد باستور في باريس . وبسرعة جاء عدد من العلماء . وأخذوا مئات آخرين . . وحدث أيضا أن انتشرت الحمى الباهونية في إحدى مزارع تصب السكر في جزيرة مدغشقر (جمهورية مالاغشى) . وبسرعة طار عدد من أطباء المعهد وأوقفوا سريان الطاعون بين المواطنين . أهم من ذلك أن العالم كله يتوقع من هذا المعهد أن يأتي بالمعجزات . .

ويمكن أن يقال أن ملايين الناس في العالم اليوم أحياء بسبب هذا المعهد الفرنسي الذي أنشئ سنة ١٨٨٨ . ويوم أنشائه وقبل باستور نفسه يتشاند على واحد من أولاده ويبكى من شدة الفخر . . وقد حرص باستور على أن يكون هذا المعهد أهليا مستقلا . . وقد شارك في بناء هذا المعهد بأمواله : أطفال من الهند وبنالدة من الصين ومرضى في أمريكا . . وملوك وإباطرة . . وظل هذا المعهد هيئة علمية مستقلة تماما . .



أما الإحداث التي يذكرها العالم لهذا الرجل العظيم باستور فلا عدد لها . . ولكن الرجل كان يؤمن بأن هناك كائنات صغيرة جدا . . هذه الكائنات — البكتريا — هي مصدر الشر والخير للإنسان . بعض هذه الكائنات تضره وتلقل إليه المرض . وبعضها تنفعه وتقوم بعمليات التخمر في الطعام والمشروبات . . وهو يؤمن بأن بعض هذه الكائنات إذا ارتفعت درجة حرارتها ماتت . وبعضها إذا جعلناه ضعيفا ، وحققنا به أنسنا مريضا فأنها تلهب حماس القوى الداخلية في الجسم الإنساني لتقاوم المرض الضيف . .

ونحن عندما نقول أن اللبن « مبستر » أى أننا قد بردناه ثم
سخناه ، كما كان يفعل باستور . وبذلك ماتت الميكروبات وأوقفنا
حياة مئات الملايين من الأطفال في العالم من الإصابة بالسل !

ومن المواقف الحاسمة في تاريخ باستور وفي تاريخ العالم كله
أيضا :

انتشار مرض الكلب — بفتيح الكاف وكسر اللام . التاريخ
لا يذكر لنا الا حالة واحدة فقط أصيب فيها انسان بهذا المرض ثم
تدر له أن يعيش لأن كل المصابين ماتوا ، وكان لابد أن يموتوا ..

حتى كان ذلك اليوم الحاسم في التاريخ .. أنه يوم « ٦ يوليو
الرائع » سنة ١٨٨٥ . جاء طفل في السادسة من عمره .. الطفل
اسمه يوسف ميستر . مهم جدا هذا الطفل . وهذا الاسم . الطفل
قد عضه كلب مريض أربع عشرة مرة في أماكن مختلفة من جسمه
.. وكانت محنة . فباستور لا يعرف ما الذى يعمل . ان هو
عالج الطفل ومات شسبت فيه أعداؤه وقالوا : قاتل .. ألم نقل
لكم من وقت طويل ؟ ..

وإذا لم يعالجه كان فشله أوسع انتشارا من نجاحه .

ولكنها العبقرية هى التى ألهمته أن يحققه أربع عشرة مرة ..
لماذا هذا الرقم ؟ لا يدري . ولكنه الرقم الذى يتم عنده الشفاء ..
وشفى الطفل . وانتشر هذا الخبر في أوروبا كلها على أنه معجزة
المعجزات .. وشاء باستور أن يجعل هذا الطفل أملانا حيا لنجاحه

.. فجعله بوابة للمعهد .. بل انه بعد وفاة هذا البواب ، اقاموا له تمثالا — وما يزال — في مدخل المعهد ككبر نجاح حقيقه باستور لنفسه والعالم كله ..

وبعد ذلك جاءه من روسيا ثلاثون فلاحا مضتهم ذئاب مسعورة .. جاعوا الى باريس ولا يعرفون من اللغة الفرنسية الا كلمة واحدة : باستور .. وعالجههم وانقذ من الموت عشرين واحدا منهم .. اما سبب وفاة الآخرين فلان الذئاب قد مضتهم قبل ثلاثة اسابيع . وقد جاعوا اليه متأخرين .

والوف آخرون من كل أوروبا جاعوا الى باستور يطلبون علاجاً لأمراض أخرى لا يعرفها . ولكنه تمنى ذلك وتمنى لهذا المعهد الذى انشأه حديثاً أن يكون أملاً لكل المرضى . والا يرد مريضاً .. ولا يخيب أملاً فى الشفاء .. وهذا المعهد يعيش على الامصال التى يبتكرها ويصنعها ويبيعها للعالم كله لحقن المرضى .. وسلامتهم بعد ذلك ..

يقال ان مريضاً سأل باستور : كيف عرفت طريقك الى هذه الكائنات الصغيرة ؟

فاجاب : انا لم اعرف طريقها ، هى التى عرفت طريقى ... واعترضتنى وعطلتنى .

— كيف ؟

— انها أصابتني بالشلل في إحدى ساقي .. ولا أعرف أن كنت
سوف أمشي لأجد علاجاً للذين أصيبوا .. أو لأجد وقاية للملايين
حتى لا يصابوا ..

— ولكنك أنقذت الملايين ..

— هذا رقم كبير ..

— فعلاً أنقذت الملايين ..

ولكن هناك ملايين آخرين يجب إنقاذهم .. ملايين لم يولدوا
بعد .. هذا هو الذي يشغلني !

وتبل باستور سئل العالم الألماني العظيم روبرت كوخ عندما
جاء إلى مصر في أواخر القرن التاسع عشر :

— يا دكتور كوخ أنت مكتشف عظيم تمسحك ليهتول : مكتشف
عظيم لكائنات حقيرة .

— هل ترى أنها حقيرة فعلاً ؟

— لأشياء حقيرة في هذا الكون لكل شيء خلقه الله بمناية يؤدي
دوره بملئى الاتقان .. آه لو رأيت هذه الميكروبات كيف تعمل على
أداء مهمتها .. كيف تدافع عن نفسها .. كيف تنسلل إلى الجسم
الإنسانى وتتهصن .. أن لشايطها وثيأسكها ونظايفها يحسمسدها
عليه كل المهندسين والعسكريين .. ولكنها كائنات ضارة .. وهى

في نفس الوقت كائنات لها نظام عجيب يبعث على الدهشة والايان
بعظمة الله .. صحيح انها ضارة جدا ولكنها اجهزة دقيقة جدا ..
وهذا هو الذي يبهرنى .. ولذلك احاول دائما أن أهرب من الوقوع
في اسرها .. وأتوقف بسرعة عن الاعجاب بها الى العمل على
الوقاية منها ..

.. وكانت بداية رائعة للحرب ضد الكائنات الصغيرة جدا من
اجل القضاء على بقية الكائنات !



هذه كانت النافذة التي هطمت الجيوش

جمع الملك لويس الخامس عشر رجاله
وتلفت اليهم يقول : ماذا يجب ان نكتب في هذه
الرسالة ليعرف عدونا روح الشعب الفرنسي .
واختلف الرجال حول الملك .. كل واحد يقول
عبارة تليق بعظمة فرنسا ولكن الملك رأى شيئا
آخر .. واتسار بيده . وجاء رجل وقال له :
هذه العبارة انقشها على مدفعي .

وضحك الرجال حول الملك . وكانوا اراد الملك ان يحررهم
جميعا . فتصائل : ماذا تقولون ؟ ولم يقل احد . وقال الملك :
انقش هذه العبارة على مدفعي : انفلت باب المناقشة وفتحت
النار !

ثم جاءت الجمعية الوطنية الفرنسية يوم ١٩ اغسطس سنة
١٧٩٠ ومسحت هذه العبارة !

ولكن مثل هذا النقاش بقى دائرا دائما في كل مكان : هل
هى الحرب ؟ هل هو السلام ؟ ايهما الوسيلة لاقناع الآخرين ..

او ارغامهم على الانتحار والنتيجة : موت عشرات الالوف .
مئات الملايين من الناس في كل العصور !

ولكن لماذا الحرب ؟

قبل ان تجيب على هذا السؤال بالنيابة عن شعبك ، اسأل :
لماذا الحرب بينك وبين الناس . لماذا وصلت الى نتيجة لها ضربها
في عدد سكان شعبك والشعوب الاخرى . والنتيجة مقنعة لانها
هي الجواب الصحيح !

ولكن هل هذا هو نوع الحرب الوحيد الذى عرفه الانسان !
الجواب طبعا : لا ... فهناك حروب من نوع آخر .. حروب
بلا جيوش ولا اسلحة ولا نار ولا شرار ولا خطب ولا زعماء ،
ولا نياشين ولا اناط .. حروب اقوى من كل الحروب ، بل
هي الحروب التى اوقفت الحروب وامادت الجيوش من منتصف
الطريق .. ولم يجد الانسان وسيلة واحدة لايقاها .. هذه
الحروب هي حروب الانسان ضد قوى طاغية باغية جبارة ..
ضد الميكروبات والحشرات والحيوانات التى تنقل الميكروبات
الى طعام الانسان وشرابه وملابسه وتقهره في معركة غير
متكافئة الميكروبات هي الاقوى دائما ..

ومن اقدم العصور يحدثنا مؤرخ الاغريق هيرودوت ان الملك
الفارسي اكزركيس دخل منطقة تساليا بجيش من ٨٠٠ الف رجل
.. ونفذت الذخيرة ثم جاء الجوع فأسقط رجاله ضحية لمرض
لا يعرفونه .. مات من رجاله نصف مليون جندي .. وعاد الملك
كسير الرأس الى بلاده !

أما قوات أثينا ، فقد هاجمها المرض ، واطاح بجيشها وأراده على الأرض . وداست الجيوش بعضها البعض .. ومات ألف فارس وأربعون ألفا من الجنود .

وفي عام ٤١٤ قبل الميلاد حاصرت قوات قرطاجنة مدينة سرقوسة واكتسحتها الأوبئة وانحسرت المعارك قبل أن تبدأ .

ولا أحد يعرف مصير روما والحروف البونية لو وجد القائد هاتيبال قواته في سقلية كما تركها قوية ولم يستبد بها المرض .

ثم الحروب الأهلية في روما سنة ٨٨ ق.م وانتصار ماريوس المؤكد قد أضاعه انتشار برنخ لا يعرفون اسمه في ذلك الوقت وقضى على عشرين ألفا من رجاله .

وفي عام ٤٢٥ ميلادية تقدمت جيوش الهون الى القسطنطينية .. ولكن وباء استشرى بينها لمعانت الى قواعدها في وسط أوروبا .

أما الحروب الصليبية فهي نموذج صارخ لما يفعله مرض الاستقربوط الذي يجيء عن نقص في التغذية وحاجة الجسم الى الفيتامينات ، وضعف الجسم ومجزه من مقاومة أى مرض تخيل ففي ١٠٩٨ زحفت الجيوش الصليبية في اتجاه الأراضي المقدسة ، وزحف الجوع وسوء التغذية في الاتجاه الآخر . وكانت هذه الجيوش تضم سبعة آلاف من الفرسان ، مات منهم خمسة آلاف .

وبعد أيام من الزحف على القدس سنة ١٠٩٩ لم يبق من

الجيش الذي يتكون من نصف مليون سوى ستين ألفا . . وفي سنة ١١٠١ أصبح عدد القوات الصليبية عشرين ألفا . . عادوا حفاة عراة يركبون الأبقار والحمير الى أوروبا !

وفي الحملة الصليبية الثانية التي قادها ملك فرنسا لويس السابع كان من نصيبها أن تلقى نفس النهاية . وأم يبق من جيش يضم نصف مليون سوى ثلاثين ألفا !

وحدث شيء آخر في سنة ١١٩٠ أن جاء مرشد تركي وسارت القوات الصليبية وراءه ، وإذا بالرجل يستدرجهم جميعا الى الصحراء حيث الجوع والعطش ومرض الاستقربوط ، مات مائتا ألف ، أما الباقون فعانون نصف أحياء . . ومات الكثير منهم في الطريق حتى مبروا الدردنيل بقايا بشر !

وحدث أيضا أن الامبراطور الألماني فريدريش الثاني قد غادر بأسطوله ميناء برنديزي الإيطالي ، في طريقه الى بيت المقدس . . ولكن في احدى ليالي ١٢٢٧ أحس الامبراطور بالآلام شديدة واسهال دموي . لقد أصيب الامبراطور بالدوسنتاريا وجاء طبيب الامبراطور . . ما الذي يصنعه ؟ ولكن بعد ساعات أصيب أحد الضباط . . ومئات الضباط والوف الجنود وعاد الملك وجيوشه من عرض البحر !

والاستقربوط ليس مرضا معديا ، ولكن من أمراض الحروب ! وخصوصا القوات المحاصرة والقوات الزاحفة وقتا طويلا . . وقد اهلك ملايين الجنود في التاريخ . . وهذا المرض ليس خطيرا في ذاته فقط ، ولكنه صديق لجميع الأمراض الأخرى . فهو يساعدها

على التسلل الى الاجسام ويضعف مقاومتها .. ويجعل اقامتها
ايسر .. حتى الموت !

وفي الجمعة الاولى من سنة ١٢٥٠ اعلن القديس لويس ملك
فرنسا ، ان قواته تصاب باشياء غريبة . وفسر ذلك بان رائحة
الجثث هي السبب . وان الديدان التي تاكل جثث القتلى في الانهار ،
هي التي تؤدي الى انتشار الامراض بينها . اما المرض فهو
الاستقريط طبعاً . وكان يجفف جلد البشرة والساق .. ويجفف
الحلق والثسفتين واللثة .. وكان الحلاقون يزيلون هذا الجلد
الميت بالسكين حتى يتمكن الجنود من تناول الطعام والشراب .
وكان الجنود يصرخون كالاطفال . ولكن لا تفسير علميا لذلك
وانسحبت جيوش القديس لويس . ولم يكد يصل الى تونس حتى
مات يوم ٣ اغسطس سنة ١٢٧٠ ومات ابنه يوم ٢٧ اغسطس
.. وكانت آخر كلمات القديس لويس : هؤلاء الكفرة الوثنيون قد
استخدموا ضدنا اسلحة لا نعرفها .. اما الكفرة الوثنيون —
الذين يقصدهم فهم المسلمون !

اما القوات الرومانية فقد احرقت معسكراتها كلها يوم ٦
اغسطس سنة ١١٦٧ لماذا .. يقول طبيب الحملة نفسه . اصيب
الجنود بارتفاع في درجة الحرارة ورمشة وهذيان وآلام شديدة
في الظهر والساقين والبطن . وهذا التشخيص دقيق .. اما
المرض فهو التيفوس !

وهو من اخطر الامراض واشدها فتكا بالجيوش في العصور
القديمة !

* * *

ويمكن أن نسجل الصراع بين فرنسا وإسبانيا في كل العصور القديمة بأنه صراع بين المرض والصحة . وأنه في كل مرة تزحف القوات يعود بهما المرض . وكان المرض أو الميكروب هو الذي يحدد اتجاه الجيوش ويلوى مسارها وانكسارها والملك الفرنسي فيليب الثالث عاد من حملته على إسبانيا سنة ١٢٨٥ . فقد هزم الوياء جيش الملك وقضى على الملك نفسه !

وربما انفردت الحروب بين إسبانيا وفرنسا بانتشار مرض واحد هو التيفوس ، وهو يجرىء من القمل الموجود في ملابس المتحاربين !

وفي أول أكتوبر سنة ١٤٣٩ وصل الإمبراطور الألماني البرشت الى مشارف بغداد . وفي يوم ١٣ من نفس الشهر انسحب الإمبراطور والجنود . فقد أعدتهم الدوسنتاريا عن مواصلة السير أو استئناف القتال !

أما الملك شارل الثامن ملك فرنسا وهو يحاصر نابولي الإيطالية فقد أصدر قراره بالعودة . ولم يكن في حاجة الى أن يشرح السبب ، فقد أصيب هو وألوف من جنوده بمرض الزهري !

وعندما حاصر الملك تشارل الخامس ملك فرنسا مدينة متس الألمانية تراخى الحصار فقد أصيب هو وثلاثون ألفا من جنوده بالدوسنتاريا .

أما الإمبراطور الألماني ماكسميليان الثاني فقد فقد جيشا من مائة ألف جندي كان موجها ضد السلطان سليمان . وكان في نية الإمبراطور أن يزحف على المجر ولكن حدث شيء سنة ١٥٦٦ جعل الإمبراطور يعدل من قراره . . فقد ثبت المعارك بين القوات . .

وسحب كل واحد سلاحه على الآخر : سفونة وهذيان . فالجنود قد أصابهم التيفوس وحمل الامبراطور من الحرب !

أما حروب الثلاثين عاما في أوروبا ، فقد تميزت بسيادة التيفوس على كل المتحاربين . بل أن القوات الألمانية قد زحفت من اتجاهين على مدينة نورمبرج في سنة ١٦٣٢ ، ودون اتفاق بين الطرفين انسحبت الجيوش من هنا وهناك . والسبب : الاستقربوط ، والتيفوس والدوسنتاريا .

والملك الانجليزي تشارلز الاول كان في نيته أن يزحف على لندن . وعارضه البرلمان . وتوقف بعض الوقت ، ثم توقف نهائيا بعد أن أصابه التيفوس . فتوقف عن الحركة تماما .

وعندما انتصرت قوات الامبراطور فريدرش الاكبر على قوات الامبراطورة ماريا تريزا النمساوية زحف على ولاية بوهيميا . . ولكن على غير ما توقع النمساويون ، عاد الامبراطور منسحبا لما السبب مبروه لنا الدكتور لوكوف طبيب الامبراطور : لم يكن الامبراطور معتدل المزاج في هذا اليوم ، كان عصيبا جدا ، وكان رجلا كافرا . ولا يؤمن بوجود اله أو معجزة أو أن الدعاء الى السماء من الممكن أن يحقق شيئا ما . . وكان الناس حول الامبراطور يصلون له . وكان الامبراطور عاقلا . فقد امتنع عن الطعام . وكان يحتفظ بأنواع من العقاقير جاءت اليه من الشرق ولا بد أن أحدا قد نصحه بأن يتناولها كلما مرض . وتناول الذي لا امره . وشفى الامبراطور من الدوسنتاريا . . ولكن الالوف من جنوده قد خلعوا ملابسهم وتفرقوا في الغابات بسبب الاسهال الدموي الشديد . . وقرر الامبراطور وهو حزين تماما أن نجيع اشيائنا ونعود . ولا داعي للحرب !

وقد لعبت الدوستناريا دورا هائلا في انقاذ الثورة الفرنسية —
هكذا يقول الطبيب الساخر المتع هانس تسنسر في كتابه «الفران
والقمل والتساريخ» . يقول : في سنة ١٧٩٢ قرر الامبراطور
نيردريش لاهلم الثاني اعداد جيش من خمسين الفا للرحف على
قوات الثورة الفرنسية والقضاء عليها . وراجع الامبراطور الخطة
مع قواده .. وسألهم ان كان النصر مؤكدا . قالوا : نحن متحدون
وهم متفرقون . نحن اقوياء وهم فلاسفة ..

وقرر الامبراطور الرحف . وتقدمت القوات . ولكن نجاة
تفرقت القوات كل جنسدى في مكان .. وكان الجنود يساقون
المضباط في البحث عن مكان يتوارون فيه . لقد اذابتهم الدوستناريا
.. وكان منظرا شريبا عجيبا .. كل هذه القوات قد تفتت على
شواطئ الراين تعالى من آلام هذا المرض المفاجيء ا

وفي سنة ١٨٠١ ارسل نابليون قائده الجنرال لكلاك ومعه
٢٥ الف جندي لاضمار ثورة نشبت في هانوى . ونزلت القوات
الفرنسية الى شواطئ الجزيرة . وتراجعت امامها القوات
الزنجية . ثم تقدمت الحمى الصفراء تحصد الفرنسيين وقتلت
منهم ٢٣ الفا .. ولم يبق حتى من هذا العدد سوى ثلاثة آلاف
فرنسى صعدوا الى فرنسا سنة ١٨٠٣ ا

يقول كوركوف طبيب نابليون : لو كان نابليون قد توقف بعض
الوقت في بولندا . واعاد تنظيم قواته . وراعى الاجراءات الصحية
ما كان هذا مصيره امام موسكو . ان المرض قد هزمه قبل الجليد
وقبل القوات الروسية . المرض اولا . والجليد ثانيا والارهاق
ثالثا والروس رابعا .

يقول كوركوف ايضاً : لقد انسحب نابليون من موسكو ومعه
مائة ألف جندي .. أما الباقي لموتى ومرضى ومتجمدون وقتلى .

أما المارشال الفرنسي ناي فقد أمره نابليون بأن يصمد ..
وصمد المارشال حتى لم يبق معه سوى عشرين جندياً وضابطاً
.. وهؤلاء الجنود ماتوا بالدوسنتاريا والتيفوس .. بل أن هؤلاء
الجنود قد أكلوا جلود الأعداء .. وأكلوا لحوم البشر .. كان
الجندي ينكس على الجندي الآخر ويبحث في جسمه عن مكان لم
يصب بشيء ويأكله .. ويرتمى إلى جواره مسموماً أو مريضاً .
ثم ميتاً بعد ذلك !

* * *

إن العلم الحديث قد كشف للإنسان أن هناك كائنات أصغر
منه وأقوى منه .. ليس الحيوان الطيب هو السذى أجمل من
الإنسان وأكثر فضيلة .. وهو الذى لحق بالعناية والاحترام ..
وأما هناك كائنات أصغر وأحق وأضعف مما يتصور .. هذه
الكائنات الضئيلة هى التى قضت عليه وإبادته وجعلته يشعر أنه
أصغر وأضعف .. وعلى ذلك يجب أن يتواضع الإنسان قليلاً أو كثيراً
.. فليس هو السيد المطاع الأمر الناهى القادر على كل شيء ..
أو القادر على كل شيء إلا شيئاً واحداً : هذه الحشرات أو هذه
الميكروبات التى لا يدربها .. ويجب أن يتفرغ لها ، فهى لا تكف
عن التكاثر والاتحاد دفافاً من حياتها .. ويوم ينقرض الإنسان
سوف تكون هذه الكائنات وارثة للأرض وما عليها ومن عليها !

لماذا عيب الناس والكذب نظريتي !

أدبية فرنسا كويت هي التي قالت : لو لم
أكن انسانا لتمنيت ان أكون حيوانا . ولما
سئلت : أي الحيوانات تختارين ؟ قالت : ان
أكون قطة تلعب مع كلب في قصي قروود على
جبل الأسود . ولما سئلت مرة أخرى : ولكن
لماذا ؟ قالت كويت : فقط ان أميش بغريزتي
بلا خوف . . بلا حدود بلا حدود بلا تدخل من
أحد من رجال القانون أو الدين . . من هذه
الإكاليب التي يسميها الناس : حضارة
الإنسان . .

اننى لا أرى الإنسان أسعد من الحيوان . . اننى لا أرى
الطائرات أخف من الطيور . . اننى لا أرى الرجال أشجع من
الأسود ولا أكرم منها . . اننى لا أصدق ان الإنسان هو أجمل
وأذكى وأقوى هذه المخلوقات على الأرض . . اننى كلما عرفت
الحيوان ازدت احتراماً له ، واحتقاراً للإنسان . . أسعد لحظات
عمرى هي التي أشعر اننى فيها مثل قطة أو مثل كلبة . . وأن كل

الذين حولى ليسوا من البشر .. ولذلك أجد سعادتي الكبرى في أن أغضض عيني حتى لا أرى آدميا واحدا .. وأعيش بخيالي مع مالا عدد له من الحيوانات .. التي عندها افتح عيني أجد الإنسان ، وعندما أطلبتهما أجد الحيوان — ولذلك سعادتي الكبرى أن أقفل عيني والباب والنافذة وأسحب الغطاء على رأسي وأمسو كالهرة السعيدة بأنها تجردت من انسانيتهما المزيفة ! » .

وكلام كثير آخر جميل تقواه كوليت التي ألقت كتبها مناويلها : السلام منذ الحيوانات .. كيكي اللذيذة .. سبع محاورات مع الحيوانات ..

ولكن أحب الحيوانات الى كوليت : القطط .. لماذا ؟ لديها الكثير جدا الذي نقوله عن نعومة القططة ونظافتها .. ورشاققتها .. وتسلسلها في الليل دون أن يشعر بها أحد .. كأنها فكرة أو كأنها شبح أو كأنها مرض .. أو كأنها شيء يطير دون أن ندركه جاذبية الأرض ..

لقول كوليت أيضا : لا أعرف لماذا هم في الشرق يعتقدون أن القطط لها سبعة أعمار .. وأنها من الممكن أن تموت أكثر من مرة .. أو من الممكن أن تعيش أكثر من مرة .. أن القطط — وهي شرقية الأصل — يجب أن تعيش مائة عام .. لكل ما يحتاجه الإنسان في الدنيا ، هو أن يكون ناعم الحركة واللمسة والفكر .. لأن نعاسة الإنسان هي خشونته .. خشونة الكلمة والفعل !



وهذه القطط دخلت أوروبا مع الحروب الصليبية . وكانت حيوانا غريبا . ولكن بسرعة عرف الأوروبيون فضائلها : أنها

تهجم على الثوران تأكلها ويكهيها ذلك فخرا . وقد كانت عند الفراعنة حيوانا مقدسا . وكان العرب هم الذين نقلوها الى أوروبا والاسلام قد طلب من الناس الرحمة بالقطعة بسبب أن الرسول عليه السلام يروى : أن امرأة دخلت النار بسبب قطعة حبستها : لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من فضلات الأرض .

ومع اكتشاف الميكروب وطرق العدوى بدأ الناس يخافون من القطط والكلاب أو من الكلاب فقط . لأن القطعة تنظف نفسها بلسانها فلا تترك ذرة تراب في فمها جلدها . ولكن العلماء يؤكدون أنه رغم هذه النظافة المؤكدة فإنها تنقل الميكروب أيضا . بدأ الناس يشعرون بالخوف من القطط والكلاب ويحترسون في معاملتها وفي الاقتراب من أظفارها وأنيابها وغبها . . ورغم تحذيرات الأطباء فإن الناس مضوا يحبون القطط والكلاب ويطعمونها ويقبلونها . وأكثر الأطباء يحذرون من القمل بين الرجال والنساء ويرون أن الفم أقل مكان في الجسم كله نظافة وطهارة . وأن العدوى مؤكدة من طريق الفم . فهل سمع الناس هذه النصيحة ؟ طبعا لم ولن يسمعوها . ويتول أطباء آخرون : (أن الفم يتغير طعمه ويصبح اللعاب قاتلا للميكروبات عند القمل الحارة . وأن القمل التي تنقل الميكروبات هي الباردة التي لا احساس فيها) .

وليست كل القطط مفيدة : أي تقتل الثوران ، أنها القطط الضالة أي أن القطط التي تفيد الإنسان هي التي لا تستفيد من الإنسان .



ولكن عرف الإنسان أن القط حيوان نظيف ، ولكنه غبي وعنيد . . وليس مفيدا مثل الكلاب . فالكلاب يسهل عليها أن تتعلم . فتكون للحراسة وللصيد ولانقاذ الجرحى في الحرب والسلام . .

وقد حصلت الكلاب على نياشين عسكرية . وصعدت سفن الفضاء .

وعاش الناس الوف السنين يتغنون باخلاص الكلب لصاحبه ووفائه حتى الموت : كثيرا ما عاشت الكلاب تحت أقدام أصحابها، حتى اذا مات صاحب امتنع الكلب عن الطعام حتى الموت . وفي القرآن الكريم قصة اهل الكهف الذين ناموا في كهفهم وظل كلبهم نائما بالباب اكثر من مائتى سنة . .

وكان نوم الكلب واسمه « قطير » رمزا للوفاء الطويل، والانتظار الذى لا يعرف الملل !

وكان من عادة الناس فى الريف المصرى أن يكتبوا على خطاباتهم كلمة « قطير » — حتى لا يضيع الخطاب !

حتى جاء عالم روسى اسمه بافلوف فجرد الكلاب من وفائها ونزع من السعادة الانسانية كلها حبها لاخلاص الكلاب . . أو حبها لاخلاص فى الكلاب . وخرج بنظرية تقول : لا الكلاب عندها اخلاص ولا الانسان عنده وفاء . . وانما كل ما هنالك مجموعة من الامعال والامعال المنعكسة المترابطة . . مثلا : اذا اتينا بالكلب وقدمنا له الطعام وفى نفس اللحظة رحنا ندق جرسا . فان لعاب الكلب يجرى مع رؤية الطعام وصوت الجرس . . واذا سمع صوت الجرس دون طعام فان لعابه يجرى . . وكل تصرفات الحيوان والانسان مثل هذا الكلب تماما . . فالكلب الذى يرى صاحبه نياما عند تقديمه أو يأكل أو يشرب . . ويعتاد على ذلك ، فاذا غيب صاحب لسبب ما ، فان هذا الكلب لا يأكل ولا يشرب . . لا حبا ولا اخلاصا . . ولكن مجرد فعل ورد فعل . . فلا اخلاص ولا وفاء لا عند الناس ولا عند الكلاب !

ولكن الناس يرون في الكلاب رغم ذلك ، اخلاصا وحباً وطاعة
عمياء ... يفتقدونها بين الناس !

واذا كانت أدبية فرنسا كوايت قد كتبت كثيرا عن الحيوانات فلا
ينافسها الا اديب بلجيكا مترلنك الذي ألف كتابا عن « حياة النحل » .
وهو لا يقصد النحل بالذات .. ولكن ينظر الى الانسان من خلال
النحل .. ويتمنى لو كان للانسان بعض مآلدى النحل من حب
واخلاص وصدق وتعاون وانكار للذات .. ولكن احدا لا يستطيع
ان يألف النحل او يستأنسه او يجعله طبعاً مثل الكلاب .. ولذلك
بئى النحل مثل كثير من الحشرات والحيوانات التى يراها ولا يقترب
منها أى يعجب بها من بعيد ! .

واستفاد الانسان من طائر قديم واستخدمه فى نقل الرسائل
من مكان الى مكان هذا الطائر هو « حمام الزاجل » وقد استخدم
الفراعنة هذا الحمام .. واستخدمه الاغريق . ويقال ان البحارة
الاغريق كانوا يطلقون هذا الحمام قبل نهاية الرحلة التى يقومون
بها . ويعود الحمام الى مكانه وفى جناح كل منها او فى رجلها علامة
وهذا معناه ان البحارة قد وصلوا فى سلام .. وفى ذلك الوقت
لم يكن احد يعرف وضع الرسائل فى سيقان حمام الزاجل .

وبعد سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية توقف الاوروبيون .
لاسباب غير معروفة الآن عن استخدام حمام الزاجل الذى انتشر
فى الشرق الاوسط . فقد كان خلفاء بغداد يسرفون فى استخدام
حمام الزاجل . فلا يوجد قصر من قصور الخلفاء او الولاة ليس به
برج او قفص . وكثيرا ما يكون قفص حمام الزاجل فى قاعة الاستقبال
فى قصر الخليفة . وكثيرا ما تطلق الخليفة او السلطان او والى

مفاجأة تهبط من السماء عليها ويفتحون رسالة الحرب أو السلام
أو الحب ..

وفي سنة ١٥٩٠ مقدا حاصر ملك فرنسا هنرى الرابع مدينة
باريس ، لم يجد الفرنسيون وسيلة للافلات من هذا الحصار
الا بحمام الزاجل يطلقونه فى سماء باريس يحمل الاخبار ويحمل
اليهم الاخبار .. ويقال ان الانجليز قد استخدموا الصقور واطلقوها
على الحمام ولكن الحمام اسرع فى الطيران ، واكثر طاعة لفريزته
ولكن الصقور لم يكن من السهل ترويضها او التحكم فى طيرانها او
انقضاضها على حمام الزاجل .

ومن اشهر حوادث حمام الزاجل فى القرن التاسع عشر ان
المليونير اليهودى روتشيلد كان يتابع معركة واترلو بين نابليون
وولنجتون . وارسلوا له اخبار المعركة عن طريق حمام الزاجل .
ولم يكن احد يشك فى ان نابليون هو الذى سوف ينتصر . ولذلك
هبطت اسعار البورصة . وتقدم روتشيلد واشترى كل الاسهم
لان الحمام نقل اليه ان ولنجتون الانجليزى هو الذى انتصر . وقد
عرف روتشيلد هذه الانباء قبل ان تعرفها الحكومة البريطانية .
وارتفعت الاسهم وعاد روتشيلد وباع كل ما عنده . فكسب الملايين !

وفي سنة ١٨٤٠ استخدم الصحفى الالماني رويتر حمام الزاجل
بين فرنسا وبلجيكا ، حيث لا توجد خطوط تلغرافية .

ورغم وجود الخطوط التلغرافية ظل استخدام حمام الزاجل
منتشرا بين الدول وقد ظهر حمام الزاجل بصورة واضحة جدا فى
الحرب بين فرنسا وبروسيا سنة ١٨٧٠ . ومن اشهر الرسائل
التي مررها المقاتلون فى ذلك الوقت ما بعث به مستشار المانيا
بسمارك فقد ارسل رسالة مع حمامة لاحد قواده . الرسالة تقول:
طبعاً نهبت !

وواضح انه يخشى ان تقع هذه الرسالة في يد الفرنسيين . ولكن القائد فهم ما يقصده بسمارك . . ولم يفهم احد غيرها شيئا حتى اليوم !

وكان الفرنسيون يضعون حمام الزاجل في بالونات . ويطلقون البالونات الى السماء . وبكل بالون قفص . ولا يكاد يرتفع البالون ويخرج من المناطق المحاصرة حتى يدفع الحمام باب القفص ويخرج . ويقال ان حمام الزاجل قد حمل اكثر من مليون رسالة الى اهل مانتى ألف فرنسى .

وعيب حمام الزاجل ان نشاطه محدود . فهو يعود الى المكان الذى عاش فيه . والذى يحدث هو ان الناس ينقلون الحمام الى اى مكان ثم يطلقونه فاذا به يعود الى مكانه الاصلى . .

مهما كانت المسافة . . قد تكون الفا او عشرين الف كيلو متر . . ويستطيع حمام الزاجل ان يطير بسرعة خمسين ميلا فى الساعة ولا يتوقف عن الطيران حوالى العشرين ساعة . .

ولكن رجلا ايطاليا وجد حلا لهذا النشاط المحدود لحمام الزاجل فقد قرأ عبارة للشاعر الالماني شيلر تقول : ما لم يتمكن العقل من السيطرة على كل شيء ، فان الجوع والحب قادران على ان يتحكما فى تصرفات الناس !

قرأ رجل ايطالى اسمه مالاچولى هذه العبارة وكان يحب حمام الزاجل ففهمها على هذا النحو : ان تجويع حمام الزاجل هو الذى يجعله يطيع الاوامر . . وابعاده عن انثاه ايضا .

ولذلك لجأ مالاچولى الى حيلة . . فكان حمام الزاجل اذا هبط عنده اطعمه كثيرا . . ولكن ابعده عن الانثى او عن الذكر حتى

لا يكون جنس .. ثم نقله الى مكان آخر حيث يكون الجنس ..
وبعد التمرين اصبح حمام الزاجل بدلا من أن يهبط في مكان واحد ،
فانه يهبط في مكانين .. وكان هذا هو أول تعديل في سلوك حمام
الزاجل !

غير أن العلم الحديث لم يهتد الى تفسير واحد لسلوك حمام
الزاجل . هناك رأى يقول : أن الحمام يهتدى بجاذبية الارض ..
ورأى يقول بضوء النجوم .. ورأى يقول انها ملوحة الهواء لو
الماء .. ورأى يقول بأن هناك بوصلة في رأس حمام الزاجل يضبطها
ذهابا وايابا .. ولكن لا يوجد تفسير واحد يقنع الجميع ..

وقبل أن تعلن الحرب العالمية الاولى بليلة واحدة كانت الجيوش
تنظم حمام الزاجل وتكشف عليها وتطعمها .. تماما كما تفعل
بقواتها المسلحة قبل دخول المعركة . وفي المانيا وحدها في ذلك
الوقت ثلاثة آلاف جمعية لتربية حمام الزاجل ..

وحاول الكثيرون أن يلتقوا حمام الزاجل دروسا أخرى كما
فعل الهاوى الايطالى مالاچولى .. ولكن لم يصلوا الى نتيجة
معقولة .. ولكن رجلا ايطاليا آخر هو الذى انقى مهمة حمام
الزاجل تماما . ذلك الرجل هو ماركونى الذى اكتشف الاتصالات
اللاسلكية بين الدول .. ولم يعد هناك ما يخيف أحدا او يعوقه ..
فالعالم كله أصبح قريبا جدا .. ففى امكانك أن تتصل بأى مكان
في نفس اللحظة وأنت جالس في بيتك !



ولا شك أن ذكاء القط أقل من ذكاء الكلب . وكلاهما محدود
الذكاء . والقدرة على تعلم هذه الحيوانات محدودة أيضا . وحمام

الزاجل ليس ذكيا ولكنه ينطلق غريزيا وبصورة لا نجد لها تفسيراً علمياً .

وربما كان الحصان أفكى هذه الحيوانات جميعاً . فقد استطاع أحد النبلاء الألمان أن يجعل حصاناً اسمه هانس أن يكتب بساقه الأرقام . . أو أن يعلمه الجمع والطرح والضرب ، فكان يكتب المئات بساقه اليسرى والعشرات بساقه اليمنى . ولم يحدث أنه أخطأ قط . .

واستطاع النبيل الألماني فلهم فون دوستن أن يجعل الحصان يكتب كلمات المائبة طويلة . .

واستطاع أيضاً أن يروض أحد الخيول العربية على كتابة اللغة الألمانية بدقة . هذا الحصان اسمه « عربى » وكان عربى يخطئ في كتابة بعض الحروف ويصر على ذلك . ولكنه كتب أكثر من مائة وخمسين كلمة المائبة . .

وجاءت الحرب العالمية الثانية وشغلت الناس عن تلقين الخيول أن تتعلم أو تتكلم . .

ولكن أثر هذه الحيوانات وهذه الحشرات وهذه الميكروبات في تاريخ الإنسان طويل عريض . . ولكنه لم ينته بعد . وكل ما على الإنسان فقط أن يسجل ما يحدث له بسببها ، وما يحدث لها بسببه . . ولكن في ذهنه دائماً أنها هى الأقوى رغم أن أحداً لا يصدق ذلك ، أو لا يريد !

عندما أعلن حوسولني حرب الأبقار ضد الدغنام

ليس بالخبز وحده يعيش الإنسان . وإنما
يعيش الإنسان بالخبز وأشياء أخرى . وإذا لم
يجد الإنسان الخبز ، فلا بد أن يتحدث عن شيء
آخر بديل . . ومملكة فرنسا عندما نار الشعب
عليها يطلب الخبز . قالت الملكة : ولماذا الثورة
إذا لم يجدوا الخبز : فليأكلوا البسكويت . وكانت
هذه العبارة امطاراً من البنزين على نار الغضب .
فالملكة ظننت أن الشعب يجد الخبز والبسكويت
مما . فإذا لم يجد هذا فيمكنه أن يتجه الى ذلك . .

ولم تفهم الملكة أن الشعب لا يجد الاثنين . ومهمة العلم الحديث
الآن هي أن يجد الناس الخبز والبسكويت من الخبز حتى لا يثور .
أو حتى لا يموت .

والناس لا يموتون عادة بسبب الجوع فقط . وإنما بسبب المرض .
أو بسبب الحوادث أو بالحروب . ولذلك من الضروري أن يكون عدد
الناس محددا حتى تكفيهم موارد الطبيعة . . فإذا لم تكف فعلى

الإنسان أن يهز رأسه ليجد حلا لهذه المشاكل الحيوية . وقد وجد الإنسان الحل عن طريق الكيمياء . فهو يعوضه عن الذي فقدته . وهي التي تملأ فراغ الجيب والمعدة . .

لما للإنسان مثلاً عندما كان يجد السكريات في عسل النحل اتجه الى تربية النحل ، وعندما عجز عن اطعامه اتجه الى استيراد السكر من القصب ، ثم راح يعتصر السكر من البنجر . وكان ذلك أيام نابليون وفي حروبه .

وظل النحل حشرة هامة جدا في ليالى أوروبا . فالنحل مصدر الشمع ، والشمع هو روث الكنائس . وظلت الكنائس هي المستهلك الأول لشمع العسل . وعندما انتشر الغاز ومن بعده الكهرباء لم يعد أحد في حاجة الى شمع النحل . . وبعد ذلك ظهر السيكاين ليعلن انه ليس من الضروري أن يميت الإنسان نفسه من أجل السكر في القصب وفي البنجر وفي العسل . . وعندما أعلن أن السيكاين خطر على الصحة ، وانه يؤدي الى الإصابة بالسرطان عاد الناس الى عسل النحل وعندما أعلن أن النحل أيضا يموت من المبيدات الحشرية الموجودة في الحدائق . وأن السموم موجودة في الزهور التي يمتصها النحل ، وأن نسبة من السم تنقل الى العسل نفسه ، عاد الإنسان لبحث عن السكريات في الفاكهة . ولكن سموم المبيدات الحشرية قد انتقلت أيضا الى الفاكهة . وعندما حار الإنسان ما الذي يفعله قال له الأطباء أن الجسم الانساني قد تشبع بالسموم فلا خوف عليه . هنا عاد الإنسان الى البحث عن السكريات من كل مصدر .

ولم يعد السمن أو الزبدة كافية لاطعام الإنسان . وقد ظهرت هذه المشكلة أيام حملات الجيوش الفرنسية في المناطق الاستوائية . فالجنود يحتاجون الى الزبدة . ولكن الزبدة تنوب في الجو الحار .

وقد تلقى نابليون الثالث خطاباً من أحد قواده يقول له : مطلوب
معجزة . أن جنودنا لا يجدون الزبدة فالحر جهنم . والزبدة تنبخر .
وأعلن نابليون عن مكافأة مالية كبيرة لمن يجد حلاً . وفي ذلك الوقت
تصانف أن أحد العلماء الفرنسيين كان مشغولاً بالبحث عن حل .

هذا الرجل اسمه ميچ موريس . هذا الرجل اهتدى الى السمن
الصناعى . وصنع هذا السمن من مواد نباتية وحيوانية معا .
فاستخدم الدهون الحيوانية وبعض الزيوت النباتية . وكان ذلك
ميلاد السمن النباتى أو الصناعى . وأنتجت فرنسا هذا السمن على
نطاق اوسع . ثم جاءت هولندا فاستخدمت بعض الزيوت النباتية
وزيت الحوت وانتجته بكميات أكبر . واشتهرت هولندا بذلك لدرجة
أن كثيراً من الدول تطلق على كل أنواع السمن الصناعى اسم :
الهولندى ..

واقبل على هذا السمن الصناعى فقراء الناس طبعاً . أما الأغنياء
فمعندهم الموارد الطبيعية الغالية الثمن ..

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية حاول الالمان استخراج الزبدة
من الفحم . ونجحت التجربة . ولكن لم يتحمس لها أحد . وإنما
جعلوها نكتة . ووقفت تجارب السمن من الفحم عند هذا الحد ، ولم
يدفعها احد الى الامام الا بعد ذلك بعشرات السنين فى امريكا .

وعاد الالمان الى استخراج السكر من الخشب . واستخراج
السيكارين من القطران فى سنة ١٨٧٩ . وكان السيكارين هذا اشد
حلاوة من السكر ٥٠٠ مرة ويأسعار أرخص من استخراجه من
الخشب .

ولم يفتح العلم الحديث فى استخراج بروتينات الحيوانات فى
المعامل . ولذلك عاشت الحيوانات لياكلها الانسان . ولكن هذه
الحيوانات دفعت ثمن هذه الحياة غاليا . فلكى يكون طعامها لفيذا
يجب ان نذبحها فى سن صغيرة !

واذا كانت بعض الاطعمة لا تكفى الانسان ، فهناك الصوف
الطبيعى والحرير الطبيعى والقطن والكتان ، كلها لم تعد كافية
لاحتياجات الانسان صحيح ان الائمة هي ليست الانواع اآخر من
ورقة التوت التى تغطت بها حواء . . والأزياء ليست الا تنوعا فى
شكل ورقة التوت . وقد جاء وقت على الانسان كان كل شىء امامه
متوافرا فى الطبيعة . أما فى العصور الحديثة ، وبعد تزايد السكان
لم يعد الصوف يكفى للملابس ولا الحرير ولا القطن ولا الكتان .
فما الانسان ياكل الاغنام . ودودة القز تعمل حتى الموت ، ولكن الانسان
يطلب المزيد . ولذلك كان لابد من ان يجد حلا . والذين حاولوا كثيرون
جدا . وربما كان الكيمائى الانجليزى روبرت هوك سنة ١٦٦٥ هو
اول الذين حاولوا ان يجدوا بديلا من الحرير الطبيعى فقد اهدى
الى محلول . وصب هذا المحلول فى اناء به ثقوب رفيعة . ونزل
السائل على شكل خيوط حريرية .

واهدى كيميائى فرنسى الى شىء من ذلك ، ومرض اختراعه فى
باريس سنة ١٨٨٩ هذا الرجل ساردونيه . وحاول الالمان
شراء الاختراع . فاعترف الرجل بأنه باهظ التكاليف . وانه سوف
يوالى البحث من سوائل ارفع . وقامت ثورة بين علماء الكيمياء
وبين الذين يريدون دود القز والذين ينسجون الحرير . وكانت التهمة:
ان هؤلاء العلماء يريدون خراب العالم والقضاء على مئات الألوف من
الأتوال اليدوية لغزل الحرير الطبيعى !

وعلى الرغم من أن اليابان هي أكبر مصدر للحرير الطبيعي ، فإنها حاولت أيضا أن تجد بديلا عنه حتى لا تتفوق عليها الدول الصناعية أو التجارية الأخرى . أن اليابان أرادت أن تغزو البلاد الأخرى قبل أن تتعرض هي لغزو يخرب بيوتها ويبيد ديدان القز عندها . وفي نفس الوقت كانت مدينة ليون الفرنسية مركز تجمع خيوط الحرير الطبيعي في أوروبا كلها وحاول العلماء فيها أن يجدوا علاجاً للموقف . فاقبل بعضهم على دراسة الحرير الصناعي واستحضاره في المعامل .

أما الأمريكيان فقد كانوا أسرع الجميع في الاهتمام إلى خيوط جديدة اختاروا لها اسما يونانيا الشكل : نايلون . وبلغ الأمريكيان في اختراع أنواع من الخيوط ناعمة طويلة . يمكن أن تصل إلى الـ ١٠ كيلو مترات دون أن تنقطع .

وقبل الحرب العالمية الأولى بالضبط اهتمت ألمانيا واليابان في وقت واحد إلى صناعة الصوف — أي إلى الصوف الصناعي . ودخلت اليابان في حرب مع استراليا أكبر مصدر للصوف الطبيعي في العالم . وهاجمت نول كثيرة الصوف الصناعي في ألمانيا واليابان ، باعتبارها « جنونا » نازيا أو فاشيا . وأن هذا الصوف كساء الفقراء . وأن هذا الصوف الصناعي اختراع حقير يقصد افساد جمال الطبيعة — أو جمال صوف الأغنام في استراليا ، حتى تبقى استراليا هي سيدة هذه الصناعة ، وتظل بريطانيا هي صاحبة هذه التجارة . أما العالم كله فيجب أن يرضى بأن يكون زبونا قليلا !

اذن لقد دخلت المعامل في حرب مع الأغنام ودود القز :

بل ان الابتكار هي التي دخلت في حرب مع الأغنام . فقد اهتمت

العلماء الى ان لبن الأبقار هو أحسن مصدر للصوف الصناعى .

وفي نوفمبر سنة ١٩٣٥ أعلن موسولينى على الشعب الايطالى وعلى العالم : أن ايطاليا سوف تنتج الصوف من لبن الأبقار . وكان هذا الاعلان ردا على تهديد أوربا لموسولينى بأنها سوف تضرب عليه حصارا شديدا بسبب حربه مع الحبشة . وأقبل علماء الكيمياء على اللبن الأبقار يحولونها الى خيوط صوفية مستخدمين من اللبن مادة الكازين . ومن العجيب جدا أن الفراعنة استخدموا اللبن فى تثبيت الألوان . هذه حقيقة مؤكدة . وانهم استخدموا هذه المواد بنفس الطريقة التى اهتمدى اليها علماء الكيمياء ! واستخرج الايطاليون مادة لاينثال . ومن هذه المادة خرجت البديل والبنتولونات الايطالية ، ولا تزال !

ولصبح لبن الأبقار من أهم المواد التى يستعمل بها العلم الحديث فى صناعة البدائل أو العجائن ..

كما أن العلم الحديث قد استغنى أيضا من المخلفات الحيوانية—الاسمدة العضوية . واهتمدى العلم الحديث الى الاسمدة الكيماوية فى تخصيب التربة . وفى تغذية النباتات التى تعرش عليها الحيوانات التى يعيش عليها الانسان .

وهناك بعض المنتجات الحيوانية لم يعرف الانسان لها بديلا بعد . او عرف لها البديل ، ولكن ليس بالدرجة المطلوبة . ففراء الثعالب مثلا لا يزال مطلوبا . وكانت الصين حتى أوائل القرن التاسع عشر أكبر مركز لتجارة الفراء يكل أنواعها حتى أن أمريكا أنشأت خططا

ملاحيا بينها وبين الصين . ولكن رجلا أمريكيا اسمه : استور أقام
مركزا في شمال أمريكا . بل أنه أنشأ مدينة اسمها استوريا . كلمة
هامة تجدها على ماركات السجائر وغيرها وعلى الفنادق الكبرى .
فهذا الرجل استور قد حول بخفاء تجارة الفراء الى شمال أمريكا
ودخل بها في حرب مع روسيا وجاء الانجليز واستولوا على هذه
المدينة . ثم استردتها أمريكا . وبقي الانجليز سادة هذه التجارة .

حتى وقع حادث عجيب سنة ١٩١٩ عندما ذهب بعض التجار
الكنديين يعرضون نوما غريبا من فراء الثعلب الغضى . وكان هذا
النوع من الفراء زلزالا في أسواق الفراء . فقد استطاع هؤلاء
الكنديون أن يختاروا عينات من الثعالب وأن يزاوجوا بين بعضها
البعض حتى انتهى التزاوج والتجهين الى نوع غضى نادر . ولسكن
بسرعة عرف العالم سر هذا الثعلب . واقبل التجار على تربية الثعالب
في غابات واسعة . فمقد لاحظ التجار أن الثعالب التي يحبسونها يكون
مراؤها خشنا . أما اذا عاشت الثعالب في ظروف طبيعية او كالطبيعية
فإن فراءها يكون أكثر نعومة وليونة . ولاحظوا أيضا أن الثعلب يميل
الى أن تكون له زوجة واحدة مما يؤدي الى الزيادة البطيئة في
النسل . فحاولوا أن يعددوا زوجات الذكور . ولكنها رفضت أول
الأمر . فأسسوها فأسبحت للثعالب الذكور أكثر من زوجة . وانتهوا
الى أن ثلاث زوجات هو الحد الأقصى للثعلب الواحد . . ولكن
اهتدى علماء الكيمياء باستخدام بعض المقويات الى أن الثعلب من
الممكن أن يكون له حريم من اثنتي عشرة أن يؤثر ذلك على فراء صفاره .

وفي ذلك الوقت — أي سنة ١٩٢٤ كان ثمن فراء الثعلب الغضى
سبعة آلاف جنيه !

وجاءت الحرب الثانية فأوقفت هذا الجنون . وفي سنة ١٩٣٨

ذات الإحصائيات على أن في كندا وحدها أكثر من عشرة آلاف حظيرة
للثعالب الحظيرة الواحدة مساحتها ألوف الأقدنة من الغابات !

وتظهر مناقس خطير للثعلب : حيوان الشنشيليا في بـيرو ..

ثم ظهرت أغنام كاركول في ايران .

وكان التجار يلجئون الى اجهاض الأم قبل أن تلد بتقليل ثم يسلخون
جلد الوليد . حرصا على أن تظل لمروة الحيوان المسكين أكثر
نعومة . وفي بعض الأحيان يسلخون الولد بعد ولادته العادية
بساعات ..

ولابد أن أتناق المرأة هي المسئولة من حياة بعض الطيور وموت
أكثر الحيوانات . مثلا : لولا أن سيدة فرنسية جاءت من الجزائر
تزرع ماري أنطوانت ما عاشت مئات الألوف من النعام . فقد جاءت
هذه السيدة تهدي الى الملسكة ريش نعام لتضعه على رأسها
أو لتكون مروحتها . وأصبح ريش النعام موضة . وأقيمت مزارع
للنعام في الجزائر . وحوث هذه المزارع عشرات الألوف من هذا
الطائر الذي ينزعون ريشه مرتين في السنة . وكان لابد من العناية
به وبصحته نظرا لرواج تجارة ريش النعام . ولاحظ تجار الريش
أن ذكر النعام اذا كلفت له أنثى كثيرة ، وضعت الأنثى بيضا
قليل . فهي إذن ليست مشكلة الأثلى ، وإنما هي مشكلة قدرة
الذكر على أن يكون زوجا لعدد كبير من الأنثى . وحدثوا للذكر
ثلاث أنثى فقط تضع مائة بيضة في السنة .

وبعد ذلك جاءت التماسيح . فهذا الحيوان لابد من قتله ليكون

جلده هذاء أو شنطة أو حزاما لسيدة أنيقة . ولا بد أن يكون ذلك في سنه الصغيرة . وبعد سلخه لابد من دباقة الجلد وتلوينه أو الاحتفاظ بلونه الطبيعي ..

وفي كاليفورنيا مساحات هائلة مغلقة على التماسيح .

وجاءت الثعابين لتقوم بنفس دور التماسيح . فجلدها حزام أو جزمة أو شنطة . والثعابين كثيرة الأنواع والأحجام والألوان . ولكن الثعابين لها مهمة حيوية في البلاد الحارة . ففي الهند مثلا تجد أن الثعابين تاكل الفئران . والفئران اذا تكاثرت اكلت محاصيل القمح والذرة . ولذلك يجب الإبقاء على الثعابين لانتقاذ الغلال . وفي الهند دموع صارخة للإبقاء على الثعابين من أجل الجوع من البشر ! ولكن المرأة حريصة على أناقته ولو مات أهل الهند جوعا !

ومن أجل أناقة المرأة أيضا نزل الرجل الى أعماق البحر بحثا عن اللؤلؤ في قلب البحار . وهذا اللؤلؤ موجود في الخليج العربي — أو كان موجودا — وفي شواطئ اليابان والصين . وقد ارتفع اللؤلؤ على أعناق الجميلات . ويقال أن اللؤلؤة تحزن على صاحبها ويتغير لونها . ويقال أن لونها يتغير اذا بعثت عن موطنها . ويقال: أن الملائكة اذا بكوا نزلت دموعهم الى البحر فأصبحت لؤلؤيات ! وكثيرا ما قيل أن اللؤلؤ اذا ذاب في النبيذ في ليالى العشق أصبح سحرا . وسعادة للرجل والمرأة — يقال !

أما طريقة استخراج اللؤلؤ فهي أن ينزل الغواص أو الغواصة — أكثرهم من النساء — الى الماء ... ويصيدون حيوان اللؤلؤ

ويفتحونه ويستخرجون من بطنه حبات اللؤلؤ . . وحيوان اللؤلؤ يستغرق وقتا طويلا يصل الى السنة والسنتين في تكوين حبة واحدة .

وقد اهتمدى رجل صينى منذ سبعة قرون الى انه في الامكان مساعدة هذا الحيوان على انتاج اللؤلؤ بصورة أسرع . فكان يفتح المحار ويضع فيه حبا صغيرا . . ذرة رمل أو ذرة من المحسرة أو الحصى . . وفي بعض الأحيان اهتمدى الى شيء غريب فكان يضع حصاة صغيرة ويرسم على هذه الحصاة بوذا . ويضعها بعد ذلك في جسم حيوان اللؤلؤ . . ثم يجرى هذا الفنان العظيم ويغضى هذه الصورة لبوذا باللؤلؤ . . ويكون لحبة اللؤلؤ بعد ذلك سحرها العميق في نفوس المؤمنين . . .

وجاء استاذ يابانى سنة ١٨٨٩ وقام بتطوير هذه الحيلة . هذا الاستاذ اسمه متسكورى . وادخل في جسم حيوان اللؤلؤ حبات صغيرة من الصدف . ويجرى الحيوان ويغضيها بهذه المسادة الفضية الشفافة .

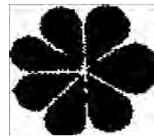
* * *

ولكن رجلا واحدا استطاع ان يجعل « اللؤلؤ الصناعى » اشهر تجارة في العالم واستطاع ان يقنع العالم كله ان اللؤلؤ الصناعى اجمل واروع . وانه يصعب على اى انسان ان يفرق بين الاثنين . وفي ذلك الوقت كان التمييز صعبا . ولكن من السهل معرفة ذلك الان بمجرد وضع اللؤلؤ في الضوء فيكون اللؤلؤ الطبيعى اكثر شفافية من اللؤلؤ المزروع في جسم حيوان اللؤلؤ . هذا الرجل

ميكوموتو الذى اشترك فى المعرض الدولى للؤلؤ بأكثر من مائة ألف حبة .. وصنع ناقوس الحرية الأمريكى من اللؤلؤ . وتقدمه فى معرض دولى ..

وقد رأيت جزيرة ميكوموتو هذه فى اليابان . ورأيت ملايين من هبات اللؤلؤ . واعترف بأننى لم أعرف أهمية هذا اللؤلؤ أو ضرورته لأحد . وقد كنت ألعب بهبات اللؤلؤ لعبة الجوز والفرد . فنجد بالعمات اللؤلؤ يجلسن على الأرض . وقد وضعت كل واحدة « قلة » من اللؤلؤ .. وأجلس أمامها وألعب : جوز ولا فرد .. ونفتح محار اللؤلؤ .. فنجد أحيانا حبة واحدة وأحيانا حبتين أو ثلاثا .. والكر أننى كسبت فى هذه اللعبة ألوف الهبات . ولا أنكر الآن بالضبط أين نسيت هذه الهبات عندما سافرت من اليابان الى جزر هاواى الى أمريكا الى أوربا بعد ذلك .

فقط عندما رجعت الى مصر عرفت أننى أضعت ثروة طائلة — ولم أكن أدري ذلك — فقد كنت مثقفولا فقط بالفرجة والكتابة والسفر ، وهى جميعا أروع من كل ما فى العالم من لؤلؤ — واعتقد أن أكثر نساء العالم لا يرين هذه الفلسفة !



شجرة واحدة تكفي ، هناها ما أنت تعرفه !

بعد هذه الرحلة الطويلة في حياة الحيوان ،
هل له مستقبل ؟ هل سيتحول الحيوانات بعضها
الى بعض ، كان يكون القرد انسانا ؟ هل تتحول
بعض الزواحف مرة أخرى وتكون طيورا ؟ هل
تزداد الاصابع في اقدام الحيوانات ؟ هل الانسان
نفسه سيكون كائنا آخر ؟ ان عشرات الالوف من
السنين لم تغير من الحمار . فهو حمار منذ كان
حمارا . والخنزير كذلك . .

ان نظريات العلماء من مدرسة دارون قد لاحظوا التشابه الكبير
بين القردة والانسان . وقال بعضهم : أصله قرد — أى الانسان
أصله قرد وعلى ذلك فمن الممكن أن يتطور القرد فيصبح انسانا
في المستقبل . صحيح ان التاريخ لم يحفظ لنا حتى الآن تلك
القردة التي تحولت الى انسان . ثم انه ليس بين القردة فصيلة
واحدة تعرف النطق أو تعرف كيف تغير من أسلوبها في الحياة .
وكل ما يقوله العلماء هو ان مرحلة من مراحل تحول القردة الى
بشر ، قد فُقدناها . . أو قد ضاعت منا . ولكن ليست هذه اجابة

.. انما هي اجابة تغرى بالتساؤل : ولكن لماذا هذه المرحلة بالذات ؟ من الذى حرص على اخلائها لكى يدوخوا بعد ذلك ؟

اذن يمكن أن يقال : بأن هذه الحيوانات لم تتحول الى حيوانات أخرى فى مئات الألوف من السنين فلن يطرا عليها أى تغير آخر .. لأن الماضى هو صورة المستقبل ، أو هو الحروف الأولى من الماضى والمستقبل !

علماء الجيولوجيا يقولون : اننا مقبلون على مصر جليدى آخر .. وأن المناطق الشمالية والجنوبية من الأرض سوف تتغطى بالجليد .. وسوف يؤدى ذلك الى انقراض حيوانات أخرى كثيرة . تماما كما انقرض حيوان الماموث عندما هاجر الى الشمال فمات من البرد .. وفى نفس الوقت استطاعت حيوانات أصغر حجما وأضعف قوة من التكيف مع البيئة فعاشت . فالقوى الذى لا يجارى البيئة يموت ، والضعيف الذى يجارىها يتقيها ويعيش . انهما قاعدة فى الحيوان وفى الانسان أيضا !



ثم هذه الزواحف الضعيفة هى بقايا مملكة هائلة كانت تعيش على الأرض ، هل هى أيضا سوف تنقرض .. علماء الجيولوجيا يقولون : هذه نهايتها لا محالة . ولكن لماذا ؟

الجواب انه يجب أن ننظر الى : الظروف الحيوية .. أو الى البيئة الحيوانية والنباتية والانسانية والجوية أى الحياة (الاجتماعية) أو (الجمامية) للحيوانات معا .. ولسنا فى حاجة الى أن نساغر الى غابات الامازون الهائلة أو الغابات الهندية أو الواحات الافريقية والاسيوية كما كان يفعل دارون وبقية العلماء فى القرن التاسع عشر .. وانما شجرة واحدة تكفيك . هزها .

وأنت ترى الفراشات والحشرات المسلقة : هذه الشجرة مثل
منجان في يد قارئة الطالع .. مثل كوتشينة يلعبها قارئ الحظ ..
ولكن هذه الشجرة تستطيع أن تعرف كيف تتعايش هذه الكائنات
معا .. أو كيف يتربص بعضها ببعض أو يعيش بعضها على بعض
.. نظرة واحدة الى شجرة تدلك على مستقبل حياة هذه الكائنات ،
معا ومستقبلها مع الانسان — وهو الأهم . فلا يزال الانسان هو
الذي يحدد لهذه الكائنات أعمارها ومستقبلها . فمثلا في الهند :
الشمابيين تعيش على الفئران ، والفئران تعيش على القمح
وعلى القمح يعيش الانسان .. اذا قتلنا الشمابيين زادت
الفئران وأكلت القمح وارهقت لانسان .. واذا قتلت الشمابيين
والفئران وانقرضت الدودة بالقمح جاع الانسان . واذا قتل الانسان
الدودة أيضا توفر له القمح .. ولكن في نفس الوقت اذا زاد عدد
الناس ولم يجدوا القمح مات الانسان .. انها سلسلة طويلة من
الكائنات يعيش بعضها على بعض . والمستقبل في يد الانسان .

مثلا : البعوضة تنقل الحمى الصفراء . يقضى الانسان على هذه
البعوضة باستخدام المبيدات واستخدام وسائل العلاج مثل
الانسان وماتت هذه البعوضة أو انقرضت !

واذا نظرنا الى الانسان القادر على كل الحيوانات لم نجد هذا
الانسان يفوق الكثير من الحيوانات من الناحية الفسيولوجية — أى
من ناحية وظائف أعضاء جسمه . فهناك شبه كبير بين الانسان
والقرد والحصان والضفدعة والأرنب . أو بين الانسان والحصان
في نمو الجنين وفي الحمل والولادة وفترة الحضانة الطويلة ..
فالانسان ينمو ببطء .. ورغم هذا التشابه فان الانسان هو الأقوى .

وأهم من ذلك أن الانسان لا يزال أكثر الحيوانات الكبيرة عددا .

نقد أعلن المعهد الدولي للزراعة في روما عن عدد الحيوانات الكبرى على الأرض بعد الحرب العالمية الثانية فكانت هكذا : في العالم ٧٠٠ مليون بقرة و ٦٠٠ مليون من الأغنام . و ٣٠٠ مليون خنزير و ١٠٠ مليون حصان .. ومثل هذا العدد من البشر أو أكثر . فعدد سكان العالم حوالى ألفى مليون نسمة .

ومن المعروف عندنا أن خسائر الانسان في الحرب العالمية الثانية كانت هائلة . لاشك في ذلك . وأن هذه الخسائر تساوى الدمار الذى سالت على حدودنا حزنا على ما أصاب الانسان على يد الانسان . ولكن خسائر الحيوانات في هذه الحرب كانت أضعاف خسائر الانسان .

في أمريكا ما بين ١٩٣٨ و ١٩٤٨ زاد عدد سكان العالم ١٠ ٪ .. ونقص عدد الحيوانات .. وزاد عدد الأبقار في أمريكا بسبب العناية الفائقة بمزارع وحظائر تربيتها . بينما نقص عدد الخنازير ١٨ مليوناً وعدد الأغنام ٢٦ مليوناً وعدد الخيول ١٨ مليوناً ١

وفي أثناء الحرب الاهلية في الصين نقص عدد الطيور بمقدار ٢٠٠ مليون ونقص عدد الطيور في أمريكا أثناء الحرب العالمية الثانية بمئات الملايين حتى أصبح عددها حوالى ٧٠ مليوناً .. وسبب ذلك أنه لم تكن هناك أسواق للبيع .

والانسان حريص على هذه الحيوانات والطيور لأنها مصدر غذائه .. ولو وجد الانسان مورداً آخر للبروتين ، ما تردد لحظة واحدة في إبادة هذه الطيور والحيوانات معا . فكان بقاء هذه الحيوانات سببه أن علوم الكيمياء لم تتطور بدرجة كافية .. وعلماء الكيمياء في العالم هم الذين سيقررون ان كانت هذه الحيوانات

ستمعيش أو تنقرض . ولن يمضى وقت طويل حتى تتحول هذه الحيوانات الكثيرة الى حيوانات نادرة أو حيوانات للزينة !



ومن المؤكد أن الانسان قد قتل الملايين من هذه الحيوانات والطيور عندما اخترع السهام والنبال . . وأضعاف هذه الكائنات قد قضى عليها الانسان عندما اكتشف البارود . . وفي أمريكا ، وبسبب الزحف الى الغرب ، أحرق المهاجرون الجدد الغابات والمراعى مماقت ملايين الحيوانات وانعدمت تماما . . فالجاموس الوحشى أثناء الحرب الأهلية الأمريكية كان عدده يبلغ ستين مليوناً أى ضعف عدد سكان أمريكا فى ذلك الوقت . فماين هذه الجواميس الآن ؟ أنها فى حدائق الحيوانات فقط ؟ . . وهناك نداءات كثيرة من جمعيات انسانية تطلب الرحمة بهذا الحيوان . ولكن هذه الجمعيات نفسها لا يتوقف اعضاؤها عن أكل اللحوم . . إذن هذه الجمعيات لا تطالب بالابقاء على الجواميس الا خوفاً عليها من التلاشى . . ولو كانت هذه الجواميس بالملايين ما طالب أحد بالحرص عليها !

وهناك حيوانات أخرى سوف تبقى شيئاً قليلاً . ولن يكون عددها بمئات الألوف أو الملايين . لأن الذى يحدد وجودها هو احتياج الانسان الى الفرجة عليها . . مثل كل حيوانات حديقة الحيوان : الأسود والنمور والضباع والثعالب . وهذا هو أحد أسباب اقبال الناس على حدائق الحيوانات . فالناس يذهبون لرؤية هذه الحيوانات فى الأقفاص لأنهم لن يروها فى أى مكان آخر . . ولذلك لا توجد حديقة حيوانات فى أواسط أمريكا قد حوت أقفاصاً للقروء . . لأن الناس يجدون القروء على الأشجار وفى الشوارع !

وبعض الطيور قد طال عمرها لنفس السبب . أو لأسباب أخرى جمالية . فالبيغاء وطيور الكنارى قد أبقي عليها الانسان لأنها

جميلة الريش رشيقة الحركة أو لأن لها أصواتا جميلة . وكذلك
عائس الطاووس .. ولا يذكر أحد في كل العصور أن أحدا أكل
الطاووس لأنه نادر الوجود وهو لذلك غالى الثمن . فقط في إيران
وأثناء مهرجان نورش والاحتفال بهرور ٢٥ قرنا على انشائه للدولة
الفارسية . في هذا المهرجان قدمت إيران للملوك والرؤساء لحم
الطاووس .. والطاووس اشترته إيران وبعثته الى مطعم ماكسيم
الشهير في باريس وحملته الطائرات ساخنا من باريس الى مدينة
برسبوليس في مخيمات الملوك والرؤساء — ولوقدوموا الى الطاووس
في سندوتش ما أكلته . لكن في هذا الجو الخيسالى ومع الألوان
والموسيقى والاكواب من ذهب ، وعلى مسمع ومرأى من كل رؤوس
العالم ، فلا بد أن يكون طعمه لذيذا وأن يكون له مثل السحر في
الجسم والنفس .. ومن المؤكد أن هذا هو آخر عهد الانسان
بالتاووس محثوا بالفستق والصنوبر وأبى مروة !



أما بقية الطيور النافعة للانسان أى التى تأكل الديدان الضارة
والحشرات في الحقول ، فانها أخذت في الانقراض . سبب ذلك :
الهواء الفاسد في المدن والمبيدات الحشرية في الحدائق والحقول . ان
هذه الطيور رغم حرص الانسان عليها ، لأسباب مصلحية أو انسانية
أو جمالية ، فانها سوف تنقرض . لماذا ؟ لأن الانسان إما أن
يعيش أو تعيش هذه الطيور . طبعاً لابد أن يعيش الانسان — كما
عائس دائماً — على جثث غيره من الطيور والحيوانات والانسان
أيضاً !

تقط كل الكائنات التى تعيش في اعماق البحار قد عاشت لانها بعيدة
عن متناول الانسان . ولكن هذه الكائنات لن تظل وقتاً طويلاً بعيدة
عن الانسان . فإذا اقترب منها ، كان الموت قريباً أيضاً . وسوف
يجيء دورها طبعاً .

إذا كان الإنسان حريصا على الحيوان لأنه مصدر غذائه وكسائه ووسيلته في الانتقال ، فإن هناك حيوانات رغم ذلك قد ماتت . الخيول مثلا : كانت وسيلة الانتقال للإنسان . وكان الحصان إحدى أدوات الحرب . وقد حاول الإنسان في الحرب العالمية الأولى أن يدفع بالحصان لخوض غمار معارك الفرسان وكانت معارك انتحارية . وفي الحرب العالمية الثانية ابتعدوا به تماما . . وفي الحروب القادمة ، لن يكون للحصان وجود . والحصان الآن لم يعد أداة النقل والمواصلات في العالم . ولذلك فلن يعيش طويلا إلا في السيرك والافصانات لسباق الخيول . أى أن الحصان سوف يبنى لأسباب رياضية وجمالية . .

وفي القرن الماضي أنشأت كل من بريطانيا وأمريكا أفصانات للتقاعد . فالحصان الذى تقدمت به السن ، وجاء الإرهاق فخلع أوصاله ، لابد أن يستريح في حظيرة حتى الموت مثل كل الناس ! ولكن لن يتسع وقت الإنسان لمثل هذه الرقة . فسوف تموت الخيول في الحقول وفي السيرك وبعد ذلك يكون لها قفص في حدائق الحيوانات الى جوار الحيوانات النادرة !

حتى الأغنام . . سوف يجيء دورها فإذا استطاع الإنسان أن يحصل على صوف جيد دون حاجة الى الأغنام فهذه نهايتها ، لأن الإنسان قد اخترع الخيوط الصناعية . واستطاع أن يضع خيوط الصوف الصناعية في المواد الكيماوية لتعيش أطول وأثمن وأكثر ليونة . بل أن بعض الخيوط الصوفية الطبيعية عندما وضعت في المواد الكيماوية نمت . ومعنى ذلك أنه يمكن تنمية الخيوط الحيوانية دون حاجة الى الحيوان نفسه . ولكن الخيوط الصناعية ما تزال أقل جودة من الخيوط الطبيعية . ولكن مع تقدم الكيمياء سيصل الإنسان الى خيوط أقوى وأجود وأكثر نعومة ولحما . فإذا وصل

الى ذلك ، انتهت مهمة الأغنام التي عاشت للإنسان وعاشته وماتت من أجله عشرات الألوف من السنين . واتخذت مكانها المتواضع في متاحف التاريخ الطبيعي أو أرسلت من ينوب عنها في حدائق الحيوان الى جانب الزرافة والغزالة والقرد !

ولا تزال هناك مشكلة أمام الإنسان هي التي ستجعل الأغنام والأبقار والطيور أطول عمرا : وهي أن الإنسان لم يجد حتى الآن مصدرا بديلا للبروتين الذي يجده في اللحوم . ولذلك سوف تبقى هذه الكائنات مصدرا وحيدا للحم . وهناك نظرية تقول :

أن الإنسان أصبح أقل ميلا لتناول اللحوم من أي وقت مضى . . صحيح أن الإنسان كلما أصبح مقتدرا اشترى لحما أكثر . ولكن هذه النظرية معناها : أن الجوع أقل تناولا للحم . ولما كان عدد الجوع أكثر من عدد القادرين ويزدادون بمرور الوقت فإن عدد الذين يأكلون اللحوم سوف يكون أقل . أو لن يزيد عددهم مما يجعل عددا أكبر من الأغنام والأبقار والطيور ينعم بالحياة . ولا بد أن يدخل في حسابنا أيضا أكثر من ألف مليون نسمة لا يأكلون اللحوم في الصين والهند .

وإذا نظرنا الى ما أكله أهل باريس مثلا في ١٨٨٩ نجد أن الفرد كان يستهلك ١٥٤ رطلا في السنة . وبعد ثلاثين سنة نجد أن الفرد أصبح يستهلك ١١٠ أرطال . . بينما يتضاعف ما يستهلكه الفرد من النبيذ في نفس المدة !

وفي أمريكا كان الفرد يستهلك في سنة ١٩٠٠ ما يعادل ١٥٠ رطلا في السنة . ولكن في سنة ١٩٣٨ هبط ما يستهلكه الى ١٢٥ رطلا . وفي الحروب يزداد استهلاك الفرد . . وبعد الحروب يهبط الاستهلاك .

فهذا الاعراض من أكل اللحوم هو الذى يكسب الحياة للملايين
الابتقار والأغنام والطيور .

ولكن تقدم الكيمياء ونشوب الحروب هو الذى سيهلك هذه
الكائنات . . فكل هذه الكائنات لها أعمار مريوطة فى أصابع الإنسان ،
ان شاء أبقاها وان شاء أهلكها .

ولكن يجب ألا نتصور أن الإنسان هو أقوى الكائنات : الجراثيم
أقوى منه . . ثم إن الإنسان عندما لم يطلق أن يتحمل ضغط الجو فى
البالون الذى أطلق فى أوروبا استطاعت بطة وديك أن يرتقعا دون
أن يصابا بأذى من الهواء والضغط . . وعندما أطلق الإنسان قنبلة
الذرية على جزر بيكينى : هاشت الخنايس والخنازير والماعز .
واخترقتها الأشعة ولم تمت . . ثم عاد التراب الذى غطى هذه
الحيوانات ولم تمت فى حينها ولا بعد ذلك بسنوات . . ولم يكن فى
قدرة صانع القنبلة الذرية أن يواجه الشعاع والتراب .

من يدري ربما انقرض الإنسان وجاءت كائنات أخرى من كواكب
أخرى تتفرج على هذه الحضيرة الكبرى التى اسمها : الكرة الأرضية
.. تهاما كما تذهب تتفرج الآن على ما أحدثه بركان فيزوف بالقرب
من نابلى عندما تجهد الشعب كله وتحولوا إلى تماثيل حجرية .

من يدري ربما فعلت كائنات أخرى أكثر عقلا ووضعتنا فى حدائق
للحيوانات الأقل وراحت تتفرج علينا كما نتفرج الآن فى متاحف
التاريخ الطبيعى على الجماجم والأعمدة الفقرية للإنسان الأول -
ربما !

قود في كل مكان !

وكننت أفضل ان تكون الصفحات التالية في
اول هذا الكتاب .. فهي تصف الحيوان وسلوكه
دون تحفظ .. اي دون قيود عليه ..

والحيوان حر .. هو بالضبط ما يتمنى ان
يفعله الانسان . ويسكن الحضارة تجيء وتقيسد
الانسان وتضع الفراجل والضوابط والقواعد
والحلال والحرام واللائق وغير اللائق على كل
مشاعره الحيوانية والانسانية ..

ولكن بعد ان عرفنا جوانب من حياة الانسان يمكننا ان نعرفها
أعمق وأوضح اذا عدنا عشرات الالوف من السنين .. او اذا
ذهبت الى حديقة الحيوان .. ففي الحديقة نجد الانسان يتخفيا
وراء جلد الحيوان ..

ولكن الحيوان اكثر صراحة ..

لان الحيوانات لم تتعلم الكذب بعد ..

ولذلك فهذه الحيوانات هي دليلنا الذى لا يخطئ الى فهم
الانسان مرة أخرى ..

فان كان قد ماتك أن تفهم الانسان من مئات الصفحات
السابقة ، فهذه هي فرصتك في أن تستدرك ما فات وأن تفهم غيرك
ونفسك ..

ماذا شعرت بالخلل لأن الحيوانات لا تخطئ ما تشعر به هي
.. وما تشعر به أنت ؟

واذا ذهبت الى حديقة الحيوانات . وسمعت من يصرخ وراءك
ويقول : يا حيوان ملا دامى لأن تلتفت وراءك لترى ماذا سيحدث ..
فكل ما في الحديقة حيوانات : التي في الأتساقص .. والذين
خارجها .

واذا وقفت أمام قفص القردة ورأيت القردة تفلن ابتها
الصغيرة ملا تضحك .. فلنا أجداد يفعلون ذلك في الريف . أما في
المدينة كالكوافير يقوم بهذا العمل أيضا مستخدما أحدث ما وصل
اليه عقل الانسان .

واذا أنت القيت ببعض السودائى وتزاحمت عليه القردة
وضحك طفلك الصغير ، فاطن أنه لا دامى لأن تضحك أنت .
لأنك قد فعلت شيئا من ذلك في المكتب أو الدكان أو المصنع الذى
تعمل فيه . فمكان العمل هو قفص اتسى من قفص القردة .
وانت محكوم فى داخل القفص بقوانين ولوائح وقواعد ومخاوف ..
واذا أشار رئيسك فى العمل بالعلاوات أو الأرباح فأتك تقفز مثل

هذا القرد وأكثر .. وليست العلاوات الا انواعا من الفسول
السودانى الذى يلقى لنوع آخر من القروء ..

واذا رايت القرد — امام كل الناس — يركب ظهر الانثى .
فليس القرد قليل الادب ، ولا نفسه اتفتحت لمجرد رؤيتك . ولكنه
فى حالة خوف . والخوف يثير الحيوان والانسان أيضا . والناس
فى جو الخوف يتعالتون .. الهم يواجهون الموت بالقبسات ،
ويواجهون الموت بفسريزة حب البقاء .. والبقاء من طريق
الجنس ..

واذا كان القرد ليس له مستقبل فى أن يكون انسانا . فمن
المؤكد ان الانسان له ماضى . وهذا الماضى مازال حروقه
الغامضة يمكن قراءتها فى جبلاية القروء .. لماذا لم يكن هذا
القرد جدنا البعيد .. فهو قريب من جدنا البعيد . واذا كان
الانسان قد اكتسب عادات جديدة من مئات الالوف من السنين ..
فان العادات القديمة التى عاش بها من ملايين السنين ما تزال
مصونة مكنونة فى اقصاء القروء ..

ولهذه الاسباب كان الكتاب الممتع الصعب أيضا الذى كتبه
العالم دزموند موريس وعنوانه « القرد العريان » من اروع الكتب
التي صدرت أخيرا فى العالم بلغات متعددة .

واذا كان هذا الكتاب لم يلق التأييد الكامل من علماء الحياة
والدراسات الانسانية والحيوان ، فانهم — عادة — لا يتفقون على
راى واحد .. ولكنهم امام هذا الكتاب اتفقوا على انه خلاصة
دراسات وتأملات عميقة ومثيرة أيضا . وأن به نظريات جريئة
وجديدة ولا بد أن تدير آلاما من الأدمغة يمينا وشمالا .. وبعد
ذلك فى امكانها ان تتساقط من التعب أو اليأس .

هناك ١٩٣ نوعا من القسود من بينها نوع واحد فقط ليس جسمه مغطى بالشعر : وهذا القرد العريان له مسافات قريبة أخرى من بينها مثلا أنه يقضى نصف عمره بحثا عن معنى سلوكه وتصرفاته .. ويمضى النصف الثانى من عمره يحاول أن ينسى هذه المعانى . وهذا القرد العريان يعتبر نفسه عاتلا . والحقيقة أنه عاتل حقيقى ، ولكنه أكثر الحيوانات شراهة من الناحية الجنسية ، فالحيوانات كلها معتدلة ، وكل هذه الحيوانات تخرج من الجلس ، ولذلك فالمفكر عند العتال لا يواجه إنشاء ..

والحيوانات لها مواسم . والإنسان ليست له مواسم للقبليات والحمل والرضاعة والولادة .. لكل وقت منده هو الوقت المناسب لأن يكون « حيوانا » ومن الضرورى أن نعيد النظر فى الحيوانات الأخرى ، وخصوصا الحيوانات الراقية مثل القرد لتعرف كيف عاش هذا الإنسان ومن أين جاءت عاداته كلها ، كيف نشأت وكيف تطورت وتحورت حتى أصبحت على الصورة التى نراها اليوم .. ولا تفهم الكثير من مقدماتها وأسبابها ..

ولعل من المناسبة هنا أن نذكر أنه فى إحدى حداثق الحيوانات يوجد « سنجاب » وهو حيوان صغير أليف يظهر فى الحداثق ويداعب الأطفال . هذا الحيوان وضموه فى قفص على أفراد .. وكتبوا على القفص .. هذا السنجاب أفريقى نادر . ولا نعرف اسمه العامى .. فنحن لم نر قبل الآن سنجابا له قدم سوداء .. وأنف أحمر ..

وأمام هذا السنجاب اننادر نجد علماء الحيوانات يبحثون عن وجه الشبه والخلاف بينه وبين الأنواع الأخرى ، لابد أنه كان من سلالة انعزلت من بقية الـ ٣٦٦ نوعا من السناجب التى عاشت

في العالم كله . ولا بد أن هذه الفصيلة النادرة قد انزلت تماما وأصبحت لها عادات خاصة ، ولها نداءات جنسية خاصة . ولا بد أنها مرت بظروف غريبة . وأنها توافقت مع هذه الظروف . وأصبحت لها ألوان وأشكال وعادات مختلفة عن بقية الأنواع الأخرى ..

نفس الموقف يجب أن نأخذه من الإنسان — هذا القرد العريان — نتساءل كيف عاش . ولماذا بقي . وكيف تطور .. وكيف تحول من مرحلة أكل ثيها الحشرات إلى مرحلة أكل ثيها أوراق الشجر . ثم الثمار .. ثم انتقل من الغابات إلى الأرض الواسعة .. ثم كيف تحول من التناطح الثمار إلى صيد الوحوش .. ثم إلى زراعة الأرض .. ثم كيف حاول الهرب . واستخدم رجليه .. واستخدم يديه في صناعة أدوات حياته ..

وإن كان الإنسان مثل بقية الحيوانات الثديية التي يبلغ عدد أنواعها ٤٢٣٧ قادرا على أن يحتفظ بدرجة حرارة مناسبة في الحر والبرد .. صحيح أن بعض الحيوانات الثديية — أي التي لها انداء ترضع بها أطفالها — تعتمد على جلدها المغليظ وشعرها الكثيف في حفظ درجة الحرارة في الشتاء . والوقاية من حرارة الشمس في الصيف .. والوطواط وهو طائر ثديي عريان في معظم أماكن جسمه .. ولكن يوجد شعر أيضا يغطيه ويحميه .. وهناك حيوانات أخرى مائية ثديية بلا شعر مثل الحيتان والدلافين .. ولكنها لا تقوى على مواجهة الشمس كما يفعل الإنسان ..

والإنسان في تاريخه الطويل فقد القدرة على الإبصار . وفقد قوة السمع والشم . أما الحيوانات الأخرى وخصوصا آكلة اللحوم مثل الإنسان فعندها قدرات خارقة على الرؤية والسمع

والثشم . ففي سنة ١٩٥٣ أجريت تجارب على قدرة السكلاب المتوحشة على انشم ، فاثبت العلماء أن قدرتها اقوى من الانسان مليون ونصف مليون مرة ..

والانسان مثل الحيوانات آكلة اللحوم قاتل أيضا . وبعض الحيوانات لا تقتل لجرد القتل . وانما لأسباب وجيهة : الجوع .. أو جوع صغارها ..

وحتى الحيوانات التي استؤنست ما تزال عندها غريزة الصيد .. والانسان أيضا . فالكلب الأليف يحب أن يخرج به سيده الى الشارع ليمارس لعبة الصيد والمطاردة .. وهي لعبة لأنها ليست خطرة . وكذلك القط الذي تلقى اليه بالطعام فيداعبه كأنه فأر صغير .

وبعض الكلاب تخفى طعامها .

وبعض الضباع تخفى طعامها فوق الشجر ..

وهذه الحيوانات آكلة اللحوم لها طرق معروفة في الصيد .. والأسود تبعث واحدا منها يهاجم الفريسة حتى تهرب .. وإذا ما هربت وجدت أمامها عددا آخر من الأسود . والفئاب تحاصر الفريسة .. أما الكلاب المتوحشة فأنها تمشي في طابور طويل . وتظل تهاجم الفريسة واحدا واحدا حتى تنزف الفريسة وتموت .

هناك خلاف هام بين هذا الانسان وبين القروء الأخرى . هذا الخلاف هو أن طفل الانسان يستمتع بفترة طفولة طويلة . هذه الفترة يعيش فيها مع أمه . ويتعلم منها الكثير . وفي نفس الوقت يكبر عقله وينضج . ولا يزال يكبر حتى السابعة من عمره .

ويبلغ العقل نضجه التام في الثالثة والعشرين أما الحيوانات الأخرى فلها فترات طفولة صغيرة .

والإنسان لم يستمتع بهذه الطفولة إلا بعد عادات أخرى اكتسبها .. وهي أن الرجل هو الذي انفرد بالصيد والقتال . لأن المرأة في حالة الحمل لا تقوى على ذلك ولهذا ذهب الرجل وبقيت المرأة في البيت مع أطفالها . والمرأة في البيت بلا خوف من هجمات الذكور الآخرين لأن هناك اتفاقا روحيا بين الذكر والأنثى ، أن تبقى هذه الأنثى له وحده . وأن تبقى وفيه مخلصه له إذا ذهب للصيد في الغابات . هذا الاتفاق لم يتم بين الذكر والأنثى إلا بعد أن كان هناك حب بينهما . وهذا الحب أدى إلى الارتباط والارتباط أدى إلى قيام وحدة من رجل وامرأة وأنشاء أسرة أي جو مناسب لتربية طفل لاستقرار الأب والأم والأطفال .. وإذا كان من طبيعة الحيوانات الأخرى أن تتعاون فالإنسان أيضا حيوان متعاون ولكنه حيوان منافس أيضا . وكثيرا ما أدى به التنافس إلى القضاء على الأسرة وعشرات الأسر .. وإذا كانت رغبة الإنسان في التعاون هي التي جعلته يخلق الأسرة ، فإن رغبته في التنافس هي التي جعلته يبتكر الزوجات ويخطف الأرض ويقتل القبائل الأخرى .. وأكثر من ذلك جعلته يبتكر أدوات جديدة في الدفاع عن النفس وفي القتال .. وجعلته يشعل النار في عقله ويلقى بضوئه ودمائه على الأجيال القادمة .. تأريخ الإنسان أضواء باهرة تنعكس على بحار من الدم ترفع شعارات اسمها : حب الإنسان لأخيه الإنسان ..

أما لماذا سمى الإنسان بالقرود العريان فهناك آراء كثيرة . هناك رأى يقول أن طفل القرود عندما يولد يكون عاريا من الشعر تماما .. ثم ينبت له الشعر كلما كبر . والإنسان لأن طفولته

طويلة فقد ظل جسمه خاليا من الشعر .. ثم أصبحت هذه الصللت وراثية من مئات الألوف من السنين ..

ومن المعروف أن الجنين في الشهر السابع والثامن يكون جسمه مغطى بالشعر وقد رايت ذلك في الاطفال الذين ولدوا قبل الاوان .. وبعد ذلك يختفى هذا الشعر كلها تقدمت بهم السن .. وأن كانت هناك حالات نادرة معروفة في الكتب العلمية لأطفال ظل شعرهم طويلا يغطي معظم الجسم .. كالقروود تماما ..

ويقال أيضا أن الحيوانات التي يغطي جسمها بالشعر تعيش عليها ومعها حيوانات طفيلية كثيرة . وكان الانسان يعيش في الكهوف .. ويقال لأن الانسان قادر على أن يستخدم يديه راح يئنزع شعره ويحلقه .. ولأن الانسان قادر على أن يستخدم يديه وأصابعه . على عكس الحيوانات الأخرى . وهناك نظرية تقول أن الانسان عندما اخترع النار لم يعد في حاجة الى أغطية من الشعر .. أو فروة من الشعر .. وأنه قادر على أن يجد الدفء في ضوء الشمس نهارا . وان يجد الدفء أمام النار ليلا .. وأن هذا الدفء هو الذي أغناه عن حاجته للشعر الذي يغطي جسمه كله.

ويقال ان الانسان قد عاش مئات الألوف من السنين يتنقل بين البر والبحر وأنه كان يعيش على أكل السمك . وعندما كان يصيد الأسماك كان الماء يغطي جسمه كله . ولا يبقى الا رأسه على سطح الماء .. ولذلك — مثل كل الحيوانات الثديية الأخرى — أصبح جسمه خاليا من الشعر .. وكلها نظريات تجتهد في تفسير خلو جسم الانسان من الشعر ، أكثر من الحيوانات الأخرى ..

وربما كان لشعر تفسير جنسي آخر .. فمن الملاحظ أن الذكور من الحيوانات الثديية بها شعر أكثر من الإناث ولذلك أصبحت

الأنثى الناعمة البشرة مثيرة من الناحية الجنسية للرجل . وهى حريصة على أن تكون أنعم أيضا . بينما يحرص الرجل على أن يكون أكثر خشونة .. ولذلك يطلق شاربته ولحيته .. ويترك الشعر في صدره وتحت أبطه بينما يحرص الأنثى على أن تكون ملساء ..

وليس معنى ذلك أن الإنسان يحب البشرة الناعمة ، ولذلك زال الشعر من جسم المرأة . ولا معنى ذلك أن المرأة أحببت الشعر في جسم الرجل فظهر الشعر .. ولكن معناه أن الإنسان أحب الواقع .

نعود مرة أخرى الى قفص القرد الذى نكف أمامه فى حديقة الحيوان .. ان القردة لم تذهب الى حلاق ولا الى صانع أحذية والى مصمم أزياء .. ولم تضع الأحمر والأبيض والسودان .. والكورسيه والكعب العالى .. ولا الغمز بالعين ...

كل هذا يدل على أن الحضارة الانسانية علمت الإنسان أن يكون شهوانيا .. وأن يكون مشتتلا جنسيا . وأن يفكر فى الجنس ويهرب منه ويعود اليه .. وبسبب الجنس يحب وبسبب الحب يتزوج وبسبب الزواج تكون له أسرة وأولاده .. يهرب من الأولاد والزوجة باسم الكراهية ليقع فى الحب ، الذى هو اسم مهذب للجنس .. فهو يدور حول نفسه هاربا قلعا خائفا فى قفص محكم معتد اسمه الغريزة الجنسية . واسمه تجارب التسايرخ الذى طواه ملايين السنين قطعتها انقروا على الأشجار وتحتها وفى الصراع مع الحيوانات الأخرى تحركت ساقها .. وقساومت فتحركت يداها واهتز عقلها أيضا .. وسكنت الكهوف .. واستقام ظهرها .. وكبر عقلها .

وأصبح انسانا لا يختلف كثيرا عن القرد وان كان هو يتوهم
انه مختلف عنها تماما .. ولكنه قرد يصنع الانفسا ص لغيره ..
ولنفسه .. ويحمل انفا صه هو مكيفة الهواء اذا كانت على
الأرض .. ومكيفة الهواء والضوء والضغط اذا كانت فى طريقها
الى القمر .

والانسان قاتل من يومه ..

كان يقتل بالحجارة والفا ص والسيف . وما يزال يقتل . فقد
أصبحت لهذه الأسلحة أسماء جديدة : المصاروخ والطائرة
والدبابة . فهو — اذن — لم يتغير .

والحضارة لم تطور رغبته فى القتل . وانما هذه الرغبة هى
التي طورت الحضارة الانسانية وغيرتها وصبغت بالأسود والأحمر
طريقها وأهدافها .. والانسان — هذا القرد العريان — كان
صيادا فى الغابة ، يعيش على التقاط الفاكهة : التفاح والرمان
والتوت . وما يزال . ولكنه يصيد تفاح الخدود ورمان النهود
وتوت الشفاء .

فالحضارة الانسانية لم تضع الفرامل على رغبات الانسان .
وانما رغبات الانسان هى التي أشعلت نرنا ضخما شوت فيه كل
معالم الحضارة الانسانية . فلا يزال الانسان أكثر الحيوانات
الرائقة شراة جنسية : يجوع اليها ، وينشدها ويجدها
ويطاردها ويعود اليها . ويبدا الانسان هذا الشوق الجنسي فى
سن مبكرة . ثم يعرف اللعب الجنسي . والمداومة . والمطردة .
والصيد . والانتباه الجنسي والهياج الجنسي .. والاشباع ..

والانسان حيوان شهوانى أكثر من الحيوانات الأخرى ..

ولكن الانسان هو اول حيوان يحرص على ان تكون له اسرة .
اى تكون له امرأة واحدة . يحرص عليها ومن الضروري ان
تحرص هي ايضا عليه . والانسان كحيوان صياد كان يخرج من
الكهف الى الصيد فى الغابة . ويبقى فترات طويلة . ويترك وراءه
انثاه وأولاده . وهى بذلك تكون مرساة لعدوان الذكور الآخرين .
ولابد من حماية لها أثناء غيابها .

ولذلك عرف الانسان الحب . وعرف العطف على الانثى .
وعرفت الانثى حماية الذكر . وهذا الحب كان ضروريا للانسان .
لانه عقد غير مكتوب وبمقتضاه يصبح لهذا الذكر الحق فى ان
يحتفظ بهذه الانثى . ويصبح لهذه الانثى الحق فى ان تعيش فى
كهف هذا الرجل ولهذا الرجل والا تسلم نفسها لذكور آخرين . .

ولكى يبقى هذا « العقد » محترما فإن على الذكر ان يحترم
مقود الآخرين .

وفى الوقت الذى بدأ فيه جسم الانسان يضعف بدأ عقله ينمو
وينضج . ولذلك لم يعد هذا الانسان فى حاجة الى عضلات
الحيوانات وسرعتها فى الجرى والهرب . وإنما عقله هداة الى
أساليب أخرى لالتقاط المأكلة من الغابة . وهداة أيضا لاستخدام
أسلحة أخرى للقتال والدفاع من النفس . . وهداة الى وضع
حدود اجتماعية لتحميه وتحمى ذريته . وفى أثناء فترة الصيد
هذه استطاع الانسان أن يحرك أصابع يديه . وهو وحده القادر
على ذلك من كل الحيوانات الأخرى . وهذه الأصابع هى التى
مكنت الانسان من أن يستخدم الأدوات وأن يصنعها أيضا .
وهذا ما لم تفعله كل الحيوانات الأخرى . .

وتمكن الإنسان — خلال مئات الألوف من السنين — أن يصلب عوده . وأن يقف وتعلم الإنسان أن يكون له رفيقة واحدة . هذه الرفيقة هي الشريكة . أو هي اللصيقة . أو التسابعة . . فلم تظهر كلمة الزواج أو كلمة الزوج إلا فيما بعد ذلك بالوف السنين .

وهناك اختلاف آخر بين الإنسان والقرد مثلا . .

ففى فترة الحمل عند القرد — اقرب الحيوانات إلينا — تقرب الأنثى من كل صلة جنسية . بل إنها تبعد تماما عن الذكور . فيما عدا الإنسان — هذا الشهوانى — لا يقوى على الحرمان الجنسي طويلا . ولذلك فمن الممكن أن يقرب زوجته معظم فترات الحمل وكأنه بذلك أراد ألا تتجه زوجته الى ذكر آخر . . وكان الأنثى أرادت هي الأخرى ألا يتجه الذكر الى أنثى أخرى . فاصبحت هذه العلاقة ممكنة رغم الحمل .

وقد ورث الإنسان من مرحلة الصيد القديمة ، هذه النعومة فى البشرة . . فهو اذا عاتق المرأة التصقت بأكبر مساحة ممكنة من هذا الجسم العريان . وأصبح الجسم الإنسانى شسديد الحساسية للملامسة . وفى هذا الجسم الإنسانى مراكز كثيرة قادرة على اشعال الحس . والإنسان اكتشفها وامتاد عليها ويلهبها كلما أراد ذلك . . ولذلك فى استطاعة الإنسان أن يكهرب نفسه وغيره بمجرد أن يمر بأصابعه على الجسم الإنسانى العريان .

ومن الملامح الغريبة عند الإنسان : الشفتان . .

وقد أعلن كثير من العلماء أن الشفتين ليست لهما ضرورة

خاصة . وكان من الممكن أن يكون الفم مجرد فتحة . ولكن الانسان هو الذى جعل للشفيتين معنى خاصا .. ويقول علماء آخرون : ان شفتى الانسان قد كبرت وتضخمتا لأن الانسان له طفولة طويلة . أى أنه يرضع ثدى أمه سنوات عديدة بينما نجد القردة ترضع صغارها فترات أقصر .

ولكن الغريب فى شكل الشفتين أنها مقلوبتان الى الخارج . على خلاف شفتى القرد .. فأنهما حادثان بلا طبقة شحمية . فإذا اقترب منك القرد وقبلك فإنه يطبع فكه فقط على وجهك أعلى عنقك . ولكن القبله من شفتى انسان ملتصقة ومندمجة وعميقة أيضا . ففى استطاعة الانسان أن يعانق الشفتين بالشفتين ..

وفى الشفتين خلايا عصبية كثيرة . ولذلك فالانسان قد جعل هاتين الشفتين ذراعين تتعانقان .. وتنقلان الحرارة والوهج الجنسى الى كل الجسم بل أن هناك نساء يغمى عليهن عند القبلات . ويسبب المعانق الكثيرة التى تعملها القبلة وتثيرها ، فإن تسليم الشفتين هو موافقة مبدئية بتسليم بقية الجسم الانسانى .. وكما أن الطفل الصغير يرضع بشفتيه ، فإن الطفل الكبير يرضع أيضا بشفتيه احساسات أخرى ومعانق عميقة ومثيرة .

وبعد الشفتين تجيء الأنثان ..

يقول بعض العلماء ان أذن الانسان كائنا طويلتين — كأذنى الحمار مثلا ثم ضمرت الأنثان بمرور الوقت حتى أصبح لها هذا الشكل الذى نراه .. وهناك شبه بين أذن الانسان وأذن القرد .

ولكن هناك خلافا واضحا : هذه الشحمة التي تقتلى من الآن .. من أين جاءت ؟ ولماذا كانت ؟ وما فائدتها ؟ ليست لها مقدة . ولكن الانسان خلال مئات الآلاف من السنين قد استخدم هاتين اللانين في الاثارة الجنسية .. امسك اللانين بأصابعه أثناء اللقاع الجنسى . وأعتاد ذلك وأصبحت لهذه الشحمة هذه الدلالة الجنسية . وأصبحت جرسا يضغط عليه فاذا كل الحواس الأخرى تصرخ وتثور وتنفج ..

لما النهدان فهما عند انثى القرد العريان متضخمان .. وتتضخمان عند الاثارة الجنسية أيضا .

ويقال أن النهدين مظهر من مظاهر الامومة . وضرورة لها . ولكن اثناء القرد ليست في ضخامة اثناء المرأة . على الرغم من أن اثناء القرد أكثر افرازا للبن . ولكن اللبن الكثير والرضاعة العنيفة عند صغار القرد لم تؤد الى تضخم ثديي القردة ، ولكن انثى الانسان لها نهذان يتضخمان وهذا التضخم ليس بسبب الامومة ، ولكن بسبب الاثوة .. فالنهذان جهاز تنبيه جنسى أيضا . اعتاده الانسان واستراح اليه وعليه .

والأنف يختلف من كل الآلاف عند الحيوانات الأخرى . والخلايا والمراكز العصبية الموجودة في الأنف كثيرة . واذا كانت خاصة الشم عند الانسان قد ضعفت فان هذه الحساسية تقوى عند العناق . ويصبح الأنف قادر على أن يشم وعلى الاستمتاع بالشم ولذلك كانت الاثارة من طريق العطور ورائحة الجسم الانسانى نفسه .

هذه الاختلافات في الهيئة والسلوك الانسانى قد اكتسبناها من مئات الآلاف من السنين .. واكتسبنا معها ويسببها هذا العقل

الذى نمتاز به من الحيوانات الأخرى ولكن ما الذى تغير فى الإنسان الآن .. هل ما يزال الإنسان كما كان من مئات الآلاف من السنين .. هل نحن مختلفون من أجدادنا فى الرغبة والانجاء والانسباع ..

لم يتغير شيء .. وإنما الأسماء فقط هى التى تغيرت .. فالبيت بدلا من الكهف والعمل بدلا من الصيد . والحب بدلا من السطو . والزواج بدلا من التزاوج ..

كما ظهرت بعض القيود التى نسميها : القانون .. القواعد .. الأصول .. التقاليد ولكن متى ظهرت هذه الحواجز . هذه الفواصل . هذه الأسلاك الشائكة . هذه العلامات البيضاء على الأرض . علامات المرور العاطفية . متى ظهرت . متى أصبحت لها هذه القوة ؟ ..

عندما ظهر الغرياء فى حياتنا ..

فبين الرجل وإنشاء لا قيود . ولا تقاليد . ولا عسادات . إلا ما اتفقنا عليه . وهو حر فى بيته . وهى أيضا . وفى استطاعة الأنثى أن تمشى عارية . والرجل أيضا . ولكن عندما يظهر شخص غريب : تنكمش الحركة ويتغطى الجسم . وتنزوى المرأة . ويسعد الرجل من زوجته ..

وإذا كان الرجال معا يذهبون الى الصيد ويتركون النساء وحدهن فقد حدث كثيرا أن ذهبت النساء للصيد أيضا . هذا الاختلاط حتم إقامة الفوارق والحدود . وعرفت الانسانية معانى العيب والحرام والشرف . أى ان المرأة لا يحق لها أن تعطى للغير ما ليس للغير .

وقد أسرف الرجال في وضع الحواجز وإقامة الجدران بين ما يخصهم وما يخص غيرهم . وفي العصور الوسطى كان الرجل يضع « حزام العفة » حول زوجته . ويضع على الحزام قللا يحتفظ بالمفتاح في جيبه . . . عاما . . . وعشرين عاما . ويترك في الحزام فتحات للضرورة الحيوية فقط . وكان البعض من المزمعين يضع الحزام كالسد المنيع على زوجته عندما ينهضان من النوم كل يوم !

وقد اعتاد الرجل منذ وقت طويل أن تكون له امرأة خاصة . وأن يكون جسمها خاصا به . وأن يكون لهما مكان خاص يتأمان فيه . (وفي كل اللغات العالية نجد أن كلمة « نام » الرجل مع المرأة أى عاشرها كئنها زوجته) . . . أن لقد عرف الإنسان الزوجة الخاصة . والبيت الخاص . وعرف السرية والخصوصية في كل تصرفاته الجنسية والعاطفية . . بعيدا عن عيون الآخرين وعن أيديهم أيضا .



ولو نظرنا الى مكان مزدحم بالرجال والنساء لوجدنا هناك حرصا شديدا على ألا يصدم أحد بأحد . . أو يصطدم رجل بامرأة . لأن الملامسة لها معنى جنسى . وأن كنا في حياتنا العادية لا نقول ذلك . وإنما فقط نقول : عيب أن نصطدم بسيدة .

هذه قلة ذوق . . هذا سوء تربية . . ولكن المعنى الحقيقي أن جسم هذه السيدة ليس مباحا . وإنما هو خاص . وليس من حقك أن تلمسه . . وإنما من حق غيرك ، وأن كانت هذه الملامسة مسموحا بها في أماكن الزحام الشديد ، لأنه لا مفر من ذلك ، ومسموحا بها للحلاق والترزى والطبيب . . ولو فرضنا أن سيدة

اصطدمت برجل في الزحام ، ولم يعتذر لها لقالت انه قليل الأدب .. ولكن لو ذهبت الى الطبيب نفسه للعلاج لكانت ملابسها أمامه . ويتحسس جسمها . ويولدها . ولا يتهمة أحد بسوء الأدب لأنه في المرة الأولى لم يكن له حق . وفي المرة الثانية له هذا الحق !

وبسبب هذا العدد الهائل من الغرباء في كل مكان . كان من الضروري أن تخفى المرأة معالم جسمها . وقد دفعت المرأة نفسها وراء الأبواب والجدران وتحت الملابس الواف السنين . ولكن عندما أصبح « العمل » ضرورة حيوية .. خرجت المرأة وأخفت ملامحها أيضا لأن كشف هذه المعالم والنظر اليها ولمسها بالعين أو باليد ليس من حق كل الناس !

ولذلك نحن نطلب الى الطفلة الصغيرة اذا جلست ان تضمم ساقيها . والا تفتحهما حتى تعتمد على ذلك .. لأن فتح الساقين لا يليق أمام كل الناس .. وكذلك المرأة عندما تضحك لكانت تحاول ألا يكون صوتها عاليا . وأن نخفي ضحكتها وراء يدها .. أو تنحني لتخفي ضحكتها أيضا .

والسبب هو أن المضحك واللعب لهما دلالة جنسية خاصة ، ويجب ألا تكون عامة !

ولكن ما الذي تفعله المرأة بملابسها الآن ؟

ان ملابس المرأة تخفي جسمها ولا تخفيه .. بل ان الملابس تبرز جسم المرأة أكثر مما تقتدر عليه . فقد يكون الصدر مترهلا ذابلا . ولكن السوتيان يشده ويدوره ويبرزه . وهذه الاستدارة والتضخم والبروز لها دلالة جنسية . فمن المعروف أن النهدين يتضخمان عند اللقاء الجنسي .

وكذلك ارداف المرأة . فهي حريصة أيضا على إبراز الردين وتكبيرهما .. ولذلك تستخدم الكورسيه .. وأحيانا تستخدم الارداة الصناعية المصنوعة من القطن . وكما أن المرأة تحقن صدرها بالشمع . فاتها تحقن اردافها أيضا .

فكان المرأة لا تخفى جسمها . وإنما هي تخفيه ليظهر أكثر .
فلماذا ؟

نعود الى جبالية القروء : ففي عالم القروء نجد أن الخوف والزحام يدفعان الحيوانات الضعيفة الى الاستسلام للذكر القوي أو الأنثى القوية . وأول ما يفعله القرد الضعيف أن يدير ظهره للحيوان الأقوى . ويعتليه الحيوان الأقوى والخوف في جبالية القروء سببه الزحام على القوة . وعلى السلطة . وعلى الطعام وعلى الأنثى . ولا يملك الضعيف في هذا الزحام الوحش إلا أن يعطى نفسه لمن هو أقوى منه . وليس لدى القروء إلا جسمها .. فتضمه أمام الذكر الأقوى !

وفي عالم الإنسان أيضا . فالمرأة عندما تخرج الى الشارع . تحرص على أن تكون جميلة ومثيرة لهذا الجمال والاثارة هما محاولة للفت نظر الرجل . وفي نفس الوقت تنويب رغباته العدائية أو العدوانية .. الى مجسرد رغبة .. الى اعجاب .. الى اشتها .. وبذلك تنجو المرأة من شر الرجل . وتنجو أيضا من الاعتداء عليها .. ولولا خروج النساء الى الشارع لانهدمت الحياة الزوجية وانهدمت الأسرة الإنسانية . فخرج المرأة الى الشارع خفف حدة الرجال الآخرين الشبان والمتزوجين .. فكان المرأة عندما تخرج الى الشارع جميلة أنيقة مثيرة هارية بارزة الفهدين والرفدين تقول : من الممكن أن تحبني ولكنى بعيدة جدا !

ومعروف لنا جميعا أن المرأة عندما تخرج الى الشارع سوف تكون موضع نظر الرجل .. أى رجل .. فهى لا تستطيع أن تسد عيون الناس . ولا أن تسد أفواههم . ولكنها لمقط عن طريق اشباع العيون تقطع أيديهم .. وإذا كانت العين بصيرة ، فمن المؤكد أن الأيدي ستكون قصيرة — وهذا هو المطلوب !

فلماذا كل هذه المنوعات والقيود ، ولماذا هذه الاثارة فى نفس الوقت ، لماذا تفتح النوافذ لتهب العواصف الباردة ولماذا نشعل الحفأة فى نفس الوقت ؟

لأن الرجل حيوان « بريالة » .. فإذا سأل لعبه ، أصبح حيوانا ذاول ذليلا .. وكأن المرأة هى وحدها القادرة على تحويل النمر الى قط وتحويل الغضب الى كلب .. الى قرد مريان .. الى مريان .. فكان المرأة هى وحدها التى تقوم بترويض الرجل الشرس فى الشارع وفى البيت .. وهى وحدها القادرة على أن تحمى الحدود التى وضعها الرجل .. وعلى ازالة الحدود وازالة الرجل أيضا !

وقد اعتاد الانسان شيئا جديدا : اعتاد أن ينظر .. أن « يبص » وأن يجد متعة فى النظر والبصيرة .. واعتادت المرأة أن تكون منظورة .. ملفنة .. وتصبح المتعة مشتركة بين الجميع .

ولذلك نجد متعة أيضا فى مشاهدة الأفلام والمسرحيات حيث نجد أناسا آخرين يحبون ويعشقون ويقبلون ويتزوجون .. أنهم يقومون بكل شيء بالثيابة هنا .. أنفسنا نشاركهم فقط بعض اللحظات . بل أننا نعلن عن الأفلام العاطفية بإظهار البطل والبطله

فى حالة هناق حار . ولا أحد يسأل نفسه : طيب هو يمانقها ويقتلها
واحنا أخذنا إيه ؟ ..

لا شىء طبعاً . ولكن أثناء عرض الفيلم نندمج مع البطل والبطللة
وننسى أن الذى أمامنا هو تمثيل فى تمثيل .. ولكن النظر متعة ..
ولذلك عندما يتعاقى البطلان نحس بالكهرباء ويسيل اللعاب ..
ونعالى آهات الحرمان .. آهات صاحب العين الصغيرة واليد
القصيرة !

وفى الصحف والمجلات صور عارية .. وفى الروايات قصص
عارية .. وصفحات غرامية من نار .. كل هذا نبحت عنه . لأنه
لذة . ومنعة . ومشاركة بالعين فقط .. !

وفى هذه المناظر حماية للأسرة وتعجيل بأن تكون لكل انسان
أسرة أيضا !

وفى البلاد التى يسمحون فيها بالدمارة .. نجد أن هذه الدماره
تحسب الأسرة أيضا . فالرجل يذهب الى احدى الغائيات بلا حجب
ولا مقدمات؛ فتمتد يده دون أن يراها .. أى يكون طويل اليد
قصير النظر .. ولذلك لا يفكر فى أن يتزوج غائية .. أو يترك
زوجته وأولاده وبيته من أجل غائية .. أو من أجل واحدة تملأ
الذراعين وتسقط من العينين .

والدمارة هذا المعنى الاجتماعى والأخلاقى — هو أحد السموم
التي يحمون بها الأسرة — أو كأنه أحد الأسمدة العضوية التي
يستخدمونها لتغذية التربة ؟ .

ورغم المحاولات الكثيرة للتخلص من القيود العائليه . أو
الانخفيف منها تعيش الأسرة أقوى وأبقى علاقة اجتماعية . فعد

حاول المفكرون أن يبحثوا عن وسائل للحمل بدون أب معروف ..
وحاولوا وضع الأطفال في مكان عام دون حاجة الى أم أو أب ..
كل هذه المحاولات الفكرية والعلمية قرا الانسان عنها ولكن لم
يتحمس لها . فما يزال الانسان حيوانا اجتماعيا .. يريد الزوجة
الواحدة والطفل والبيت الخاص . وأن تكون له خصوصيات . وأن
تكون هناك ، حدود عليه وحدود له .. وأن يكون له أطفال . وأن
يقولى هو تربية أطفاله وهذه هي إحدى مشكلات الأسرة واحد
أعباء الزوجين .. والمجتمع والدولة .. وتربية الطفل ليست
مشكلة حيوانية .. فلا شكوى للقرود منها .. وإنما هي مشكلة
انسانية جديدة ومتطورة كما سنرى !



من قلوب الأمهات ! خرجت حبيتي الحناض

عندما يولد القرد، فإنه يمسك بأمه . يمسك
بشعرها وجانها . ويتعلق بها . كأنه تدرب على
هذه العملية في بطن أمه ومنذ وقت طويل ..
ولا يستطيع الطفل الانساني أن يفعل ذلك إلا بعد
وقت طويه .

فالقرد الصغير لا يحتاج من أمه الى تربية
أو تكريب .. ثم انه ليس عبثا يصيبها بالقرف
والغليان وينخفض ضغط الدم عندها .. وينفخ
صدرها .. ويعتمد عليها ..

أما الطفل الانساني فإنه مبدء قبل أن يولد فلا تكاد أمه تحمل فيه
حتى ٢٦٦ يوما تطلق هذا الجنين كأنه تذيئة .. ولا بد أن تصرح
الأم بأعلى صوتها . ولا بد أن يبكي الطفل أيضا . ويحرص الأطباء
على أن تصوت الأم وعلى أن يبكي الطفل . لماذا حدث ذلك تلفت
الطبيب يتلقى التهاني من الأهل على أنه أبكى الأم وطفلها .

وينزل طفل القرد ومعه « خلاصه » هذا الخلاص تقوم أم القرد
بقطعه ثم ابتلامه . وبعد ذلك تقوم بلعق السائل الذي يفرق جسم

الطفل ثم تغسل جسمه تماما .. أما الطفل الانسانى فانه يولد عاجزا تماما على فعل أى شىء .. واما كذلك مرهقة لا تقوى على عمل شىء لهذا المولود ..

ولا بد ان قطع الخلاص على طريقة القروود كان أسلوب اجدادنا من الؤف السنين ، فيها عدا انهم لا يأكلون الخلاص . ولا بد أن حاجة الأم الى مساعدة الآخرين في هذا الموقف ترجع الى مئات الالوف من السنين عندما كان الانسان صيادا يترك زوجته أياما حتى يعود اليها بالطعام . فكان يجتمع حولها نساء كثيرات يساعدها على ولادة الطفل والعناية به حتى تليق الأم من آلام الولادة ..

وبعد يومين من ميلاد الطفل الانسانى يبدأ لبن الأم فى السيولة النشطة . فماذا أعطت الأم ثديها لابنها ، ظل يرضع حوالى العشرين شهرا .. والرضاعة الحديثة تكفى بسبعة أو تسعة شهور فقط .

وعندما تتوقف الأم عن ارضاع طفلها يعاودها المرض الشهرى وتصبح فائرة على الحمل من جديد .. ولذلك تعتبر الرضاعة الطويلة محاولة لتحديد النسل أيضا .

والرضاعة عند القروود ليست مشكلة .. ولكنها عند الانسان — هذا القرد العريان — مشكلة كبرى . فالطفل الانسانى غير قادر على أن يطعم نفسه ، وعلى الأم أن تساعدته فهي تحمله على صدرها . وهي تضع ثديها فى فمه . وهذه مشكلة . لحلمة الثدي ليست ممدودة بدرجة كافية . وليس من السهل ادخالها فى فم الرضيع . ولذلك فالأم تضع ثديها بين شفتيه بحيث تكون حلمة الثدي بين سقف الفم وبين لسانه . ثم انه يجب أن تكون الرضاعة سهلة فى الايام الخمسة الاولى ، واذا فشلت الأم فى ذلك فسوف تكون هذه مشكلة معقدة للطفل بعد ذلك ..

وأحيانا تشعر الأم أن طفلها يرفض ثديها . وهي لا تدري . ولكن عند الطفل أسباب وجيهة جدا . كأن تضغط الأم بطفلها على صدرها . فلا يعرف كيف يثني : ففمه الصغير مليان بالبن وأنفه الصغير ملتصق بصدرها . . ولذلك يجب أن تراعى الأم ذلك . وهذا يجعلنا نقول مرة أخرى أن صدر الأم — نهديةا — ليس جهازا للأومة . وإنما هو علامة من علامات الأثوة . . والجنس . وهذه الاستدارة المرنة . وهذا البروز وهذه الحمة غير الممدودة لا تجعل الرضاعة سهلة على الطفل . ويكفى أن ننظر الى زجاجات البين التى يرضع منها الطفل . محجمة الزجاجاة طويلة ممدودة ولذلك يسهل على الطفل أن يرضع منها . ولو عرف الزجاجاة لرفض ثدى الأم . . وتشبه هذه الزجاجاة النموذجية ثدى القردة . . فثدى القرد مترهل يسهل على الطفل أن يمسكه . كما أن حمة الثدي طويلة ممدودة تدخل بين شفتيه بسهولة تامة . بينما الطفل الانسانى يجد صعوبة فى وضع الحمة فى فمه . ولا يتوى على امساك الثدي بسهولة القروء . . فكان ثدى المرأة خلق للرجل وليس للطفل . . !

وهناك ملحوظة هامة وتحتاج الى تفسير جديد . فقد دلت الأبحاث على أن ٨٠٪ من الأمهات يضعن أطفالهن الصغار أثناء الرضاعة على الفراغ اليسرى . . وقد يكون تفسير ذلك أننا نعتمد على الفراغ اليمنى أكثر من الفراغ اليسرى لتضع الأم طفلها على الفراغ التى لا تستخدمها عادة .

ولكن لوحظ أيضا أن ٧٨٪ من الأمهات اللاتى يستخدمن الفراغ اليسرى يضعن الطفل أثناء الرضاعة على هذه الفراغ اليسرى أيضا !!

أما تفسير ذلك فهو أن القلب على الجانب الأيسر من الجسم .

وأن الطفل وهو جنين قد اعتاد على سماع دقات قلب الأم .
وعندما يولد الطفل عاجزا ضالعا في هذا العالم الكبير فإن الأم تعيده
الى جنبها الى حضنها كأنها تعيده الى أحضانها في ذلك المكان الأمين
الذى يستمع فيه الى دقات قلبها من جديد . . ودقات قلب الأم
هى الصوت الوحيد الذى يجعله يشعر بالأمن ينام . والمرأة
تعمل ذلك بالفريزة أو نتيجة لمحاولات طولها عشرات الألوف من
السنين .

وقد أجريت تجارب على أطفال صغار وضعوا في غرفة واحدة
في الوقت الذى وضع جهاز تسجيل يذيع دقات قلب — أى ٧٢ دقة
في الدقيقة — ملحوظ أن الأطفال ينامون بسهولة . ولوحظ أيضا
أن هؤلاء الأطفال يرضعون كثيرا . كما أن وزنهم قد زاد . . على
عكس الأطفال الذين وضعوا معا بلا جهاز تسجيل في غرفهم .
لهؤلاء الأطفال يبددون طاقتهم في البكاء .

وأجريت تجربة أخرى على ثلاث مجاميع من الأطفال : أطفال في
غرفة بها جهاز يدق ٤٠ دقة في الدقيقة . . وأطفال في غرفة بها
جهاز يدق ٥٢ دقة في الدقيقة . . والغرفة الثالثة بها جهاز مسجل
عليه دقات قلب حقيقى . . ملحوظ أن أطفال الغرفة الثالثة هم
أسرع الجميع الى الهدوء والى النوم .

ولا بد أننا حين نتحدث من أن الحب يصسره القلب وليس
الرأس ، نشير الى أن هذه الحقيقة التى عرفناها أثناء الطفولة . .
فنحن نشير الى الأمن والأمان الى جوار الأم .

ولا بد أن تكون « مرجحة » الطفل . . وهددته حتى ينام . .
سببها أن الطفل يستشعر خفقات قلب الأم . . ولا بد أن هذا هو
الذى يجعله ينام . . وهذا الاهتزاز أو هذا الصوت الذى يسمعه

يعيده الى هويته عندما كان في بطن أمه .. وهذا ما نفعله نحن الكبار .

ملا يكاد الانسان يجلس الى مقعده حتى يحاول ان يتأرجح به .. أو عندما نهز أرجلنا .. كل هذه محاولات لان نهدي أنفسنا .. أو محاولات لان نعيد هزات وصوت قلب الأم .

وليس من السهلة أن تكون كل الموسيقى الجديدة التي يستريح اليها الشبان هي موسيقى الدقات العالية .. دقات الطبول .. دقات القلوب المسنومة من الجلد .. هذه الدقات تهز الآن وتتأرجح لها المشاعر .. وقد اختار الشبان في العالم أسما لهذه الموسيقى هو : موسيقى الخلقان .. موسيقى دقات القلب . ومن الغريب أيضا أن الكثير من الشبان بعد حفلاتهم الموسيقية الصاخبة ينامون .. ولذلك يحرص هؤلاء الشبان على أن يناموا أثناء العزف الموسيقي .. ثم يصحون بعد ذلك بعد أن استراحت أجسامهم وأعصابهم أيضا .. ان هذه الموسيقى قد أعادتهم الى طفولتهم .. الى قلب الأم .. وإلى حنان النغم .. فناموا كأنهم أطفال صفار كأن موسيقى الخنافس قد صدرت من قلوب الأمهات!

وبعد ذلك يتوالى نمو الطفل : بعد شهر واحد يستطيع أن يرفع رأسه اذا نام على الأرض . وبعد شهرين يرفع صدره وبعد ثلاثة يمد يده الى الأشياء . وبعد أربعة يستطيع أن يجلس في حجر أمه . وفي الخامس يمكن وضعه في مقعد . وفي السادس يمكن أن يجلس وحده وفي السابع يعتمد على أمه في الوقوف . وفي الثامن يعتمد على اثاث الغرفة في الوقوف . وفي التاسع يزحف . وفي العاشر تساعد أمه على المشي . وفي الحادي عشر يعتمد على اثاث الغرفة في المشي . وفي الثاني عشر يستطيع أن

يصعد السلم بيديه ورجليه وفي الثالث عشر يقف دون مساعدة .
وفي الرابع عشر تجيء اللحظة الكبرى .

انه يستطيع أن يمشى دون مساعدة ! وفي هذه الاثناء يكون قد عرف الطفل بعض الكلمات . ويصبح قادرا على أن يحفظ بسرعة وفي السنة الثانية يعرف ٣٠٠ كلمة وفي الثالثة ٥٠٠ كلمة وفي الرابعة ١٦٠٠ كلمة . وفي الخامسة ٢١٠٠ كلمة وهذه مقدرة فذة عند الانسان انفراد بها عن كل الحيوانات الأخرى . وقد أجريت تجارب كثيرة على تدريب القردة على الكلام .

مثلا : أتوا بقرد وجعلوه يعيش في نفس بيئة طفل انساني . وبعد سنتين لم يستطع القرد أن ينطق أكثر من بابا . . وماما . . كومب . . وأن كان الشمبانزي عنده مقدرة على تقليد الحركات ، فإنه عاجز تماما عن تقليد الأصوات . على الرغم من أن الأجهزة الصوتية عند الشمبانزي أقوى من أجهزة الانسان . . ومعنى ذلك أن الجهاز الصوتي لا يكفى .

ولكن العقل هو الفارق بين الانسان والقرد . وهناك طيور اقدر من الشمبانزي على تقليد الأصوات .

فالببغاء يستطيع أن ينطق جملة طويلة ولكنه لا يستطيع أن يضيف كلمات أخرى ولا يستفيد من هذه الكلمات المحدودة التي عنده . . ولكن هذه اللغة ضرورة عند الانسان الذي كان يجب أن يخرج في جماعات للصيد . وكان لا بد أن توجد هناك وسائل للتفاهم والتخاطب بين الصائدين . فاللغة ضرورة حيوية عند الانسان . .

والطفل الانساني ككل اطلقا للحيوانات الشديدة له صرخة معروفة هذه الصرخة تدل على أنه يشكو من ألم . وبعض الطيور

لها صرخات أيضا . والطفل الانسانى عندما يتألم أو يجوع أو تتركه وحده أو اذا ظهر أمامه أو حوله شيء غير مألوف أو اذا سحبنا من تحتة شيئا يستند عليه .. فانه يصرخ .

فهو يصرخ اذن بسبب : التعب أو الخوف . واذا صرخ الطفل الانسانى يجب أن يكون هناك من يساعده ويحميه . وفي هذه الحالة يجب الاقتراب منه وهذه هو أو السرير الذى ينام عليه . وصرخة الطفل توتر عصبى واحمرار فى الرأس ودموع فى العين ، وفتح للفم وسحب للشفيتين الى الخلف وتنفس مرتفع . وعندما يكبر الطفل فانه عندما يصرخ يتجه الى أمه ويتعلق بها . وكل هذه معلومات معروفة . ولكنها ضرورية لمشكلة أخرى سوف أعرضها حالا .. مشكلة الابتسام والضحك .. فالابتسام له علاقة بالصراخ . فالصراخ نداء الى شخص بعيد .

والابتسام حديث مع شخص قريب . وملامح الوجه عند الصراخ هى نفسها ملامح الوجه عند الابتسام أو الضحك : صراخ وفتح للفم وسحب للشفيتين الى الخلف وتقلص عضلى واحمرار فى الوجه .

واذا استطاع الطفل أن يميز أبويه فى الشهر الثالث ، فإن البكاء يتحول الى ضحك . فالطفل الضاحك هو الذى يعرف أباه ، والطفل العاقل هو الذى يعرف أمه . وعندما يعرف الطفل أمه فانه يضاف من الآخرين .

والضحك معناه : أن الخطر ليس حقيقيا . واذا عرف الطفل الضحك ، فإن الأم تستطيع أن تلعب معه دون أن يصرخ .

وهناك اناس كثيرون اذا ضحكوا لا تعرف ان كانوا يضحكون أو يبكون .. فلامح الوجه واحدة . والصوت نفسه واحد . واذا كنا نقول عادة : ان فلانا ضحك حتى بكى ، عيناها ، -فيمكن ان يقال

من الطفل : انه بكى حتى ضحك .. فالطفل يبكى حتى يجيء احد .
فاذا جاء توقف من البكاء . فاذا عرف هذا الذي جاء فانه
يبتسم .. ثم يضحك .. وكثيرا ما يتوقف الطفل من البكاء فجأة
ويضحك .. نفس الملامح مع خلاف بسيط في لمعان العينين ..

وعندما يعرف الطفل كيف يضحك فانه يصبح لعبة الأبوين
والاقارب .. ويدخل الطفل مرحلة هامة من حياته .. مرحلة
الكائن الاجتماعى الصغير ..

والشمباتزى يبتسم ويضحك ويلعب مع مسفاره ..
والشمباتزى اذا ضحك فانه يمد شفتيه الى الامام . وهى قريبة
من الضحك الانسانى ولكنها يخساف الشمباتزى فانه يسحب
شفتيه الى الخلف ويكشف عن أسنانه . فالحيوانات تضحك
وتلعب . والانسان ابرع الحيوانات كلها فى اللعب وفى فنون اللعب
.. وكلما كبر الانسان اتسعت امامه فرص اللعب بالوانه المختلفة
.. اللعب جسميا وعقليا وفنيا .

واذا نحن نظرنا الى الشبان عندما يستمعون الى مطربهم
المحبوب . او يتفرجون على العازفين الذين يمشتونهم . نجد ان
هؤلاء الشبان يصرخون . ويشدون شعورهم وينقون صدورهم
ويمسك الواحد منهم الآخر .. انهم يصرخون كأنهم يتألمون مع أنهم
سعداء . ولكن الانفعال اذا ما كان بالغ الشدة فانه يتحول الى
شعور بالألم .. فصرخاتهم ليست استغاثة بأحد . وانها صرخات
بتصد تنبيه الآخرين الى أن هذا هو شعورهم وأحاسيسهم ..
وانهم فى شدة السعادة التى بلغت أقصى درجات الألم ..

ولو اتينا بشاب أو شابة واجلسناها مع المطرب الذى هو متى
احلامها فانه لا تصرخ ولا تشد شعرها ولا تدق صدرها ..
فالصرخة ليس لها معنى هنا . لان الصرخة نداء الى الآخرين ..

لأن الصرخة .. لغة .. عبارة .. كلام لا بد أن يسمعه انسان آخر .. او آخرون :

ومن العجيب أن الطفل الصغير يتوقف عن الصراخ في الشهر الثالث فجأة . وسبب ذلك أن الطفل يكون قد عرف أمه . والأم المسادئة قادرة على تهدئة الطفل . والأم العصبية تجعل طفلها عصبيا أيضا ..

الأم التي تبسم لطفلها لماها تهذه . ولكن اذا هوجىء الطفل بأن أمه تضحك بصوت مرتفع على غير العادة ، فإنه يرتبك ويضطرب ولا يعرف ما الذى تكسده أمه

وإذا الأم افتعلت ضحكة او ابتسامة ، فإن الطفل يدرك ذلك أيضا ، ومن المستحيل خداع طفل صغير . وهذه حقيقة تعرفها الامهات . وسبب ذلك أن الطفل جهاز شديد الحساسية شديد الملاحظة . وأنه اذا اعتاد على صوت ولهجة ولبرة وملايح الأم . لماذا تغيرت لاي سبب فإنه يدرك ذلك وبسرعة وبدقة !

والابتسام تفاهم متبادل .

وبعناه : لا خوف . وعند الشمبانزى علامات تدل على المودة . ولكن الابتسام عند الانسان ميزة خاصة . ولكن لماذا انفراد الانسان بالابتسام

سبب ذلك أن جلدنا ناعم .

عريان من الشعر . فالقرد الصغير عندما يولد فإنه يتعلق بأمه . ساعة ولانته ويوما بعد يوم يظل القرد متعلقا بأمه . وعندما يتركها لأول مرة ، فإنه بسرعة يعود اليها ويمسك بها . فالقرد الصغير عنده طريقة للوصول الى منطقة الأمان . حتى عندما يكبر القرد ويزداد وزنه وتطرده أمه فإنه يعود الى صدرها يتعلق به .. والطفل الانسانى عندما يولد فإنه يكون عاجزا عن عمل شيء . وليس لديه

شيء يمسكه أو يتعلق به . ولذلك لا بد أن يعتمد على الأم نفسها . وعلى اقترابها منه ومعاملتها له . ويجب أن يصرخ حتى تجيء . والشهبات لا يحتاج الى هذه الصرخات ، لأن أمه أمامه موجودة . أو لأنه يتعلق بها . ولذلك فالإنسان الصغير محتاج الى علامة الى إشارة تدل على أنه في حاجة الى معونة ومحتاج الى إشارة أخرى فيقول أنه قد تحققت له المعونة وأنه استراح الى ذلك . . . والابتسام هو المكافأة التي يمنحها الطفل لأمه . . فهو اذا ابتسم كأنه قال لها : شكرا . . وإذا ابتسمت هي فكأنها قالت له : عفوا !

والابتسامة الطفل في الأسابيع الأولى تكون غير مركزة . . أنها ابتسامة عامة . . ولكن بعد ذلك تصبح للطفل قدرة على التركيز : على عيني الأم . . ولو قدمنا للطفل في هذه المرحلة ورقة مرسومة عليها عينا . . لابتسم لها أيضا . . وفي الشهر الرابع تتركز نظرة الطفل على وجه الأم . . وفي الشهر السابع يتعرف الطفل على أمه . . وابتداء من هذا الشهر ينطبع في نفس الطفل كل ما تفعله الأم حتى نهاية حياته . . أنه ابتداء من هذه اللحظة لتحدد مسئوليتها الكبرى .

وتظهر عند الطفل نزعات عدوانية يصاحبها الصراخ المتقطع . وتقلص اليدين والرجلين . وأحيانا يبيصق الطفل ويخربش . تكون هذه الحركات غير متناسقة أول الأمر .

وبعد ذلك تتركز على العدو . . أو الشخص المخيف . وهذا يدل على أن الطفل بدأ يثق بنفسه ويقدراته .

وعندما يكون هناك أطفال كثيرون معا ، فإن استعدادهم للعدوان يكون أشد وأعنف . . ومهمة الأم هنا هي تلقين الطفل وتدريبه وتعليمه وتصحيح سلوكه . والطفل الانسائي يتعلم بالتقليد والتلقين . . وهذه موهبة لم تتطور عند الحيوانات الأخرى .

ومن المؤكد أن كل تصرفاتنا هي ثمرات لبذور غرست في
الطفولة .

ولكننا ننسى ذلك .. كل ما يفعله الإنسان من تلقاء نفسه
ويسمى ذلك سلوكا أخلاقيا ، ليس في الحقيقة إلا ما ترسب في
نفسه منذ الطفولة .. ومن الصعب أن نغير آثار الطفولة وآثار
الفريزة أيضا .. كما أنه من الصعب أن نغير التقاليد والعادات التي
ترسبت في طفولة المجتمع الإنساني . فإذا ظهرت أفكار جديدة تهز
القديم ، فإن القديم ، يقاوم ويتحسس له الناس . لأن الجديد يريد
أن يقتلهم من طفواتهم أو يجردهم من تاريخهم .. ولكن الجديد
يسود مع بقاء القديم أيضا ..

وهناك مجموعات تجردت من كل القديم ، وتعلقت بالجديد ..
هذه المجتمعات انهارت وانحلت وابتعدت عن الرواسب القوية
الأخلاقية والاجتماعية . وهناك مجتمعات تجردت طفولتها على
ماضيها .. ولكن المجتمعات السعيدة — كالإسمان السعيد أيضا —
هي التي تأخذ من الجديد ما ينفعها ، وتحفظ من القديم بما ينفعها
أيضا .. أي المجتمعات التي اكتسبت هذه القدرة المتوازنة بين
الماضي الكريم والمستقبل الباهر .. ولذلك كانت مهمة الأم صعبة
.. كيف تفرس في نفس طفلها ما هو نافع له وللناس ، وتبعده عن
الذي يضره ويضر غيره ..

ولكن الإنسان كائن محب للاستطلاع حتى ولو أدى ذلك إلى
ضرره .. يريد أن يعرف .. أن يمسد عينيه ويده .. وخياله ..
ويلعب أول الأمر ، ثم يحول اللعب إلى فن : رسم . نحت .. تمثيل
.. موسيقى ؟

القرود والسلسلة ! والقرود الخ

كل الحيوانات اللذيذة عندها رغبة شديدة في أن تتسلمهم في كل ما تجسده كأنها تريد أن تعرف : ما هذا ! ولماذا ! وهل الذي تجده شيء يصلح للأكل . والقرود هو أكثر هذه الحيوانات رغبة في الاستطلاع . أما الإنسان فهو أكثرها شهادة ويمكن أن يقال أن الإنسان حيوان « دباغ » أي يأكل أي شيء وفي أي وقت ..

وكما أصبح الحيوان متخصصا في طعام معين ، أصبح عالمه ضيقا محدودا وفي نفس الوقت خائفا أيضا .. فالحيوان الذي يأكل النمل لا يرى إلا هذه الحشرة (١) .

ومصبح الدنيا من أولها لآخرها لا معنى لها إلا إذا كانت على شكل نملة .. وإذا اختفى هذا النمل لأي سبب مات هذا الحيوان .. !!

ولأن بعض الحيوانات تخصصت في بعض الطعام ، فإن الطبيعة قد أعطتها نوعا من الحماية . فحيوان القنفذ يستطيع أن يحدث

(١) أنظر الطبعة الأولى من كتاب « من أول نظرة » ص (٥) وما بعدها ..

أصواتا وضوضاء كما يحلو له وهو آمن تماما . لأن له درعا من الشوك يحميه من الأعداء .. لكن الحيوانات الأخرى التى ليست لها حماية يجب أن تكون فى حالة يقظة مستمرة .. فالإنسان يجب أن يبحث من طعامه فى كل مكان ، وأن يكون البحث واعيا والا مات .

والقرد عندها حب استطلاع شديد . تماما كالإنسان ، ولكن عندما تكبر القرد ، فإن هذا الاستطلاع يتوقف ، ولا يتطور على عكس الإنسان الذى يقوده السؤال الى جواب ثم الى سؤال آخر وهكذا ..

وهناك نوعان من السلوك عند الإنسان : حب الجديد والخوف من الجديد .. فكل شيء جديد ربما كان خطرا .

ولذلك يجب أن يقترب منه باحتراس وأن يعتمد عنه باحتراس أيضا ، ولكن إذا تجنبنا كل ما هو جديد أو كل ما هو مخيف فكيف نعرف أو كيف نتعام أو كيف نوسع مجال الاستطلاع عندنا من أجل العثور على الطعام والوقاية والدفاع والسيطرة ؟ هذه الرغبة فى أن نعرف هى التى تجعل ما ليس مألوفا شبيها مألوفا ، وبذلك نكتسب تجربة جديدة ، ونذكرها ونختزنها ونذكرها فيما بعد ..

فالطفل الإنسانى يريد أن يعرف ، يمد يده الى كل شيء ، ويضع أذنه على كل باب ويلتقط كل ما يدور حوله ، ويجرب ، وقبل أن تصبح هذه الرغبة الشديدة عند الطفل شيئا خطرا يجب أن يتدخل الوالدان .. ونحن نقول مادة من هؤلاء الأطفال الذين يستطلعون كل شيء بشراهة : انهم يتصرفون كالوحوش .. ولكن الأصح أن يقال : أن الوحوش هى التى تتصرف كالأطفال — أى عندما تحاول الحيوانات أن تعرف وترتقى بمعرفة يخلط لديها الاندفاع بالاحتراس ..

ومن مظاهر الاستطلاع عند القرد وعند الانسان ايضا : اللعب ، فاللعب عند القرود يشبه اللعب عند الطفل الانساني ، فالصغار عموما يحيون الشيء الجديد . يمسكونه ، ويرمونه ويكسرونه ، ويخترعون اشكالا جديدة من اللعب وليست لديهم قدرة على التركيز ولا قدرة على ان ينقلوا الى آرائهم معنى الالعاب او الحركات التي اكتشفوها . اما الطفل الانساني فيستطيع الى حد ما ، والفرق بين القرد الصغيرة والاطفال الصغار : ان القرد كلما كبرت قويت عضلاتها والاطفال الصغار كلما كبروا قويت عقولهم ..

واذا اعطينا القرد الصغير ورقة وقلم ، فانه يمسك القلم ويرسم به على الورق ، وعندما ينظر الى ما احدهه القلم على الورق يخرج به .. فهذه الخطوط شيء جديد ، ويظل يرسم بالقلم على الورق ، واحيانا يرسم دوائر ناقصة .. واحيانا خطوطا مقطعة .. اما الطفل الانساني فيتهدى الى الدوائر والمربعات .

والاطفال والقرود يحبون الخطب والرقع .. اى يحبون ان يلعبوا بالاشياء التي لها صوت ، وكلما كان الصوت مدويا كان تعلقهم بهذه اللعب اكثر .. يحبون البعب .. والبالونات ومسدسات الفل ..

والطفل الانساني عندما يبلغ الثالثة من عمره يعرف كيف يرسم الدائرة ، ويرسم الوجه الانساني وذلك بان يجعل له عينين ولها واثنين .. ثم يجعل الزراعين والساقين تخرج من الرأس ..

وهذه مرحلة استكشاف واكتشاف ايضا ، فالطفل يستكشف قدراته على اللعب ، ويكتشف انه قادر على ان يلعب ، ولكنه لا يقدر على ان ينقل هذا الذي يمارسه الى والديه فيقول لهما ما الذي صنعه او اهتدى اليه ، وانما هو يرسم فقط ! .. انه

كالذى وجد قرشاً على الأرض . وراح يلعب به فقط ولكن لا يعرف ان كان هذا القرش له معنى آخر .. او يستطيع ان يشتري به اى شئ .. او بمباراة اخرى : ان القرش لعبة ، اى انه يساوى ثمنه لعبا ، اى ان اللعب لذة مدفوعة المثلث نورا . فهو فى مرحلة اللعب لمجرد اللعب .

وفى عالم الاصوات : لا نجد ان للقرود الصغير او الكبير تجارب فى عالم الصوت ، فهو غير قادر على ان يكتشف شيئا جديدا ، ولا ان يقوم بتركيب كلمات او حروف ، ولا هو قادر على التسليم بالحروف والكلمات ، كما يفعل الأطفال عندما يكتشفون قدرتهم على الكلام ، فانهم يفرحون باختراع كلمات اخرى : اى بقلب الحروف ولخبطةها .. انها مهارة جديدة اكتشفوها فى انفسهم .. وان كانت القروود لها اصوات معروفة ثابتة .

وان كانت لها ايضا عادة دق الأرض بالارجل والايدي للتعبير عن الضيق او الفرح ، ولكنها فئات معروفة محدودة ، كما ان القروود فى بعض الاحيان تنفخ فى الاجسام المفرغة الخوف .. ولكن القردة لم تستطع ان تجعل الشئ المفرغ عودا او قيثارا ، ولم تجعل لهذه الاصوات قواعد ومعنى .

ولم تحاول القردة ان تجعل مرحلتها منظمة .. او حركاتها مدروسة كالرقص عند الانسان . او كالألعاب الرياضية .. الرياضة هى حركات ذات ايقاع ، هذا الايقاع متنوع من لعبة الى لعبة ..

حتى الكتابة هى ايضا نوع من الرسم ، فالحروف عبارة عن رسوم والكتابة اصلها لعب ايضا .

وعن طريق هذه الاكتشافات نقلنا أفكارنا الى غيرنا ، ونقلنا
أفكارنا من جيل الى جيل ، وأصبح لنا تاريخ مشترك . ثم وضعنا
لكل هذه الألعاب قواعد ..

ولا شيء جديد في عالم الحيوان .

ولكن الجديد في عالم الانسان .

فهو دائما يبحث من الجديد ويتمسك به ، لماذا أصبح مألوفنا
اتجه الى غيره ، ولو وقفنا عند الذي نعرفه لتجمدنا وليس الجديد
نقط في خطوط الأرياء والتسريحات والسيارات والآلات ، ولكن
الجديد في أسلوب التفكير نفسه فالبحث عن الجديد والبعيد هو
جوهر الحضارة الانسانية .. وهو الفارق بين الانسان والقرد ،
أو بين القرد العريان والقرد ..

واذا رجعنا الى لعب الأطفال لوجدناه موجها الى الآباء في أول
الأمر ، فالأب يلاعب طفله ، والطفل يلاعب والديه ، وعندما يكبر
الطفل ، فان اللعب يتجه الى غيره من الأطفال .. أي يكون للطفل
نشاط اجتماعي ، فيكون للطفل شلة من الأطفال يلعبون معاً ،
وهذه مرحلة دقيقة جداً في حياة الطفل وسوف يكون لها أثر خطير
في حياته ، فالطفل الذي يحاول ان يعزف على الآلات الموسيقية
وفشل وهو صغير ، سيجد صعوبة شديدة في محاولة ذلك عندما
يكبر والطفل الذي يفشل في ان يكون له أصدقاء وهو صغير ،
ستصبح الصداقة صعوبة عليه عندما يكبر . وإذا كانت علاقة الطفل
بالأشياء المادية كالبيانو أو كالفأى صعوبة في الطفولة ، فان علاقته
بالأطفال سوف تكون أصعب وأبعد .

والطفل الذي انعزل عن مجتمع الأطفال ، أي الذي ليست له

علاقات اجتماعية ، سيجد نفسه في وضع سيء وسوف تكون علاقاته الاجتماعية معقدة ومرهقة أيضا ..

ومن التجارب التي أجريت على القردة مثلا : أننا إذا عرفنا قردا من القردة الأخرى .. سنة وراء سنة ثم أتينا له بعد ذلك بقردة غائبة يظل عاجزا عن المشاركة معها في اللعب أو اللهو حتى في الجنس .. بل أنه يفقد رغبته الجنسية تماما ، وقد لاحظ العلماء أن القردة التي تنعزل طويلا إذا وضعت في مجتمع القردة فانها تنقف الى جوار الحائط وتدق الأرض برجلها .. وأحيانا تخفي وجهها بيديها .. كأنها في حالة خوف أو خجل أو عجز من الاشتراك في أي عمل جماعي ..

وتربية الطفل لها جانبان : تربية داخلية وتربية خارجية ، ولننظر ماذا يحدث في عالم القردة : فالأم تترك طفلها يتعلق بها ، فإذا خاف عاد إليها فالأم تحميه بحنايتها وترضعه بكافة على سلوكه الذي لا يضره ، وهذه هي مرحلة الأمان عن طريق الحنان ، أما عندما يكبر القرد فان الأم تطرده بعيدا عنها ، لكي يشترك مع القردة الأخرى في اللعب فإذا عاد إليها فانها تضربه وتقسو عليه .. كأنها تريد أن تقول له : أنك كبرت على حضن الأم ، فابحث لك من حضن آخر ، وفي هذه المرحلة نجد الأم أقل حبا لطفلها . ولا تنطلق لحمايته الا في حالة الخطر الشديد أما إذا لم يكن هناك خطر ، وجاء طفلها الصغير يتعلق بها فانها تطرده وتضربه ، وبعد ذلك يتعلم القرد الصغير أن يبعد عن أمه ، وأن يدافع هو عن نفسه ..

وكذلك الطفل الانساني تماما ، إذا لم تحسن الأم تربية طفلها في المرحلتين فان النتيجة سوف تكون سيئة وقاسية ..

والطفل الانساني الذي يفقد الحنان وهو صغير ، ثم أصبحت

له علاقات اجتماعية بعد ذلك ، فانه سوف يكون عاجزا عن تعميق هذه العلاقات الاجتماعية ..

واذا عرف الحنان في الطفولة وعرف الحماية الزائدة والعناية البالغة فمن الصعب عليه أن يجد الشجاعة على خلق علاقات اجتماعية جديدة ، وانما سيظل كالطفل متعلقا بأمه ..

ولا يريد أحدا آخر غير الأم ، لماذا فقد الأم فانه يظل يبحث عن الأم أو بديل عن الأم . وسوف يصدمه المجتمع لأنه بطبعه قاس ، ولأنه ليس أما لأحد ..

والإنسان الذى يخاف من المجتمع يكون انسانا انسحابيا أو هروبيا ، وهذا الإنسان الهروبى لا يريد أن يعرف شيئا جديدا ، لأن الجديد مخيف وهو لا يريد أن يخاف .

فالذى يعرفه أحسن ، وهو لذلك ليس اجتماعيا ، ولا يحب أن يكون وقد يكون له نشاط جسمى ، ولكن نشاطه يجب أن يكون متكررا ، أى لا يأتى بحركات جديدة ، وانما هو أسير العادة التى استراح اليها .

بل اننا نجد الكثيرين من الهروبين لهم حركات ثابتة .. يهزون رعوسهم أو أيديهم أو أرجلهم بصورة متكررة أو يرضعون أصابعهم ، وتكون لكل واحد منهم « لازمة » .. لماذا ؟ لأن هؤلاء الهروبين قد وجدوا البيئة مخيفة ، معادية ، لا ترحب بهم ، ولذلك وجدوا الراحة فى أن يجعلوا سلوكهم مألوما ، مألوما أكثر من اللازم . أى جعلوا أنفسهم مفهومين .. عاديين .. لا يخاف منهم أحد أو لا يلتفت اليهم .. ومن الممكن أن تلاحظ ذلك فى الناس الذين حولك . فالذى يقول عبارات واحدة لا يغيرها فى الرد

على كل شيء هو انسان (عادى) — اى يجعل العادة تتحكم فيه .
حتى أصبح هو نفسه (عادة) اجتماعية ، لا يخيف أحدا ، ولا
يخاف من أحد ، وهناك مثل شعبي يقول : آلتى : معرفتى ،
وراحتى : ما أعرفتى — ومعناه انه لا شيء يخيف أكثر من المعرفة ،
ولا شيء يريح أكثر من الجهل ! ..

ولا بد أن يكون المثل الأعلى عند هذا الطراز من الناس هو أن
يأتى بالأعمال الرتيبة .. مثل نقات القلب نقات قلب الأم تريح
الطفل . وكل عمل يكون متكررا على شكل نقات القلب هو شيء
مريح أيضا . أو هو شيء يجعلنا نخلف من حدة التوتر .

وفى استطاعتك أن تلاحظ من ينتظر مكالمة تليفونية انه يدق
بأصابعه بشكل منتظم أو يهز قدميه .. أو يتحرك فى الغرفة ..
والطالب أثناء الامتحان يضع القلم فى فمه .. أو يلعب بشاربه ..
ويكون ذلك بايقاع متكرر مثل نقات القلب .

وهذه الحركات .. أو هذه (اللازمة) لها فائدة : هى تساعدنا
على احتمال الشيء الجديد الذى ننتظره فى خوف .

وإذا نحن أسرفنا فى استخدام هذه (اللازمة) فانها تصبح فكرة
متمسكة علينا .. أى أننا نضع القلم فى أفواهنا دون أن يكون هناك
امتحان .. أو نروح ونجىء فى الغرفة من غير مناسبة .. من غير
أن تكون لنا قدرة ارادية على ضبط هذه الحركات والتوقف
منها ! ..

وهذه (اللازمة) تولد من الملل .. وإذا ذهبنا الى حديقة
الحيوانات وجئنا الحيوانات منمذلة فى اقتناصها الحديدية .. وهى
منمذلة من العالم الواسع . وعن العلاقات الجماعية .. أى من

الاتصالات بالحيوانات الأخرى ، فهي في حالة انسحاب وانزواء .
كانها هربت من الحيوانات الأخرى ، أو هربت منها الحيوانات
الأخرى .

ومن الأفضل أن ننظر لانفسنا ونحن نقف أمام أنفسنا
الحيوانات . . ان هذه الانعكاس الحيدية تشبه الموانع النفسية
الشديدة التي نحيط بها أنفسنا ونسحب وراءها ، ونكتم وننطوي
ونتقوقع ونجتز تجاربنا ولا نضيف الى أنفسنا شيئا اجتماعيا جديدا .
وانما نفرز من أنفسنا نسيج قودة القز ونتسواري وراءها . . أو
ندفن ، ومن مظاهر هذا السلوك الانسحابى عند الحيوانات : انها
تدور حول نفسها وتثير نفسها جنسيا . . والانسان يفعل ذلك
أيضا في المعسكرات والسجون والمستشفيات والأقسام الداخلية
للمدارس ، ونجد القردة تأعب في ألفها بأعواد الشجر ، ونجد
الفيل واقفا في مكانه يهز رأسه يمينا وشمالا ساعات طويلة ،
وبعض الحيوانات تشد شعرها ، أو تعض نفسها أو ترضع ثديها .
وقد يكون السبب أيضا هو التوتر الشديد أو تكون انثشة غير
السليمة .

يمكننا أن نقوم بتجربة بسيطة وذلك بأن نلقى شيئا في قفص
قرد اعتاد أن ينمزل فان هذا القرد لا يحاول أن يتجه إلى هذا
الشيء الذى القيناه في قفصه ، ومعنى ذلك أنه لا شيء يثيره أى
لا شيء جسيم يثيره . . وإذا كان الحيوان لا يلتفت الى الشيء
الجديد ، فلن يعرف شيئا وإذا كان الانسان لا يثيره الشيء الجديد ،
فسوف يظل محدود المعالم ويكون بذلك اقرب الى الحيوان .

وإذا ذهبنا الى حقيقة الحيوانات يجب أن نتفكر المدن الانسانية
التي نعيش فيها ، انها أيضا مثل حدائق الحيوانات : كل انسان له

قفص ، هذا القفص من أعواد حديدية ، هذه الامواد هي الممنوعات النفسية والاجتماعية وهي تحصرنا وتعصرنا ..

والصحة النفسية والاجتماعية انما تتحقق اذا ما نحن ركبتا عربة يجرها حصانان : احدهما حب الجسد والآخر الخوف من الجديد .. والعقل الانساني قد علمنا ان نتجه الى الجديد ، بخوف .. او على الاصح باحتراس . واذا كلن الانسان قد مات بسبب رغبته في المعرفة . فان الانسان حي لان بعض الناس مات من اجل ان يعيش غيره ليعرف اكثر واكثر ..

واذا نحن نظرنا الى (القرداتى) فماذا نجد ؟ نجد قردا مربوطا فى سلسلة واذا وقف القرداتى ونحن ايضا ، وجدنا القرد ياتى بحركات من الشقلبة والرقص ، ومعنى ذلك ان القرداتى قد علم القرد ان ياتى بهذه الحركات . اى ان القرد مربوط بسلسلة اخرى هى : العادة على اتين هذه الحركات ..

يمكن القرد محدود بسلسلتين واحدة تراها وواحدة اخرى لا تراها ولكن هناك سلسلة اخرى تشد القرداتى الى القرد : فهذا الرجل يعيش فى عالم محدود ، عالم القرد ، ويمشى فى أماكن محدودة . ويعود الى بيته ويجلس الى جوار الحائط ولا ينام الا والقرد الى جواره والا على صوته ، ولو قطع القرد السلسلة وهرب لاحس الرجل ان قلبه هو الذى انقطع .. فالى الاثنين هو القرد ؟ ايها هو المربوط بالآخر .. من المؤكد ان القرد هو المربوط فى الرجل ، ومن المؤكد ايضا ان هذا الرجل العاقل مربوط من القرد .. وبالقرد ..

فليست الحيوانات هي وحدها المحبوسة في أقفاص ، وليس
الانسان هو الذى يذهب الى الحديقة ليتفرج على القروء .. انها
ايضا تتفرج عليه وعلى قيوده التى لا يدرى بها ! ..

فكلما ان هذا الرجل اسمه (قرداتى) فهذا القرد اسمه
« انساناتى » !

وكلنا كذلك !! ..



لولا سلامك .. ! سبق كلامك !

لسببين يعتدى حيوان على آخر : فخافا من الأرض التي يعيش عليها ، او حرصا على السلطة التي يتمتع بها في القبيلة اى انه يدافع من السلطة او من القبة .

وهناك حيوانات تدافع عن الأرض ولا يهتمها السلطة .. وحيوانات تدافع عن مركزها ولا تهتمها الأرض . اما الانسان فانه يدافع عن الأرض والعرض والسلطة .

وفي جبلاية القروود نجد ان القرد الاقوى هو الذى يسيطر . اما قوته نهى في عضلاته او في حيويته . فاذا كانت حيويته هي مصدر قوته فانه يمتلى كل الاناث وكل الذكور ايضا . ولكنه عندما يأكل يكون سخيا يترك طعامه لغيره من شعاب الجبلاية !

وكما تطوّر الانسان في علاقاته الجنسية فأصبحت له انثى واحدة ، تطوّر ايضا في ممتلكاته . فكل واحد له شيء يملكه : أرض او بيت . وقد وصل الانسان الى هذا الوضع منذ كان الاقوياء من الرجال يسافرون بعيدا للصيد . وكانوا يتركون بيوتهم

وأولادهم . ولذلك كان لا بد أن يتفقوا على قاعدة يحترمها القوي والضعيف وخصوصا الضعيف عندما يغيب القوي . وإذا كان القانون يحمي الضعيف من القوي ، فكأنه يحمي الأقوياء — وهم أقلية — من الضعفاء وهم الأغلبية الساحقة . .

وعندما يشعر الحيوان برغبة في العسحوان فإن تغيرات هائلة تجرى في داخله . هذه التغيرات هي نوع من التهيئة العامة لكل قوى الحيوان المختزنة ويأخذ هذا الاستعداد شكلين : قوة تدفعه إلى الهجوم وقوة أخرى تسحبه وتمسكه . قوة تقول له تقدم . وقوة أخرى تقول : حاسب !

ومن هذا الصراع في داخله يتقرر موقف الحيوان .

ولكن عندما يتهيأ الحيوان للهجوم يفرز الجسم مادة الأدرنالين في الدم وتنشط الدورة الدموية كلها .

فالقلب يدق بسرعة . وينسحب الدم من الجلد والأحشاء إلى العضلات والمخ . ويرتفع ضغط الدم . وتزداد الكريات الحمراء . وتصبح للسدم خاصية التجلط بسرعة . ويتوقف الهضم . ويجف اللعاب . ويتوقف نشاط المعدة تماما وحركة الأمعاء . ويصعب على الحيوان أن يتبول . ثم إن الكبد تفرز السكر في الدم . وينشط الجهاز التنفسي . ويقف الشعر ويتبلل بالعرق . وبسرعة السحر يختفى التعب . ويحشد الجسم كل قدراته من أجل البقاء . والدم يندفع إلى الأماكن التي تحتاج إليه . وإلى المخ لكي يتمكن الحيوان من تقدير الموقف . كما أن سرعة التجلط معناها أن أي جرح سنوف يجف بسرعة وبذلك لا يضيع الدم عبثا . ونشاط الرئتين معناه أن الحيوان يسحب كميات كبيرة من الأوكسجين . ووقوف الشعر يعرض الجلد للهواء الذي يقوم بتبريد هذا الجسم الملهب . ولذلك

لا يكون هناك خوف على الحيوان من درجات الغليان التي يصل اليها !

وكلما ارتفعت الحيوانات أصبحت لها عادات وتقاليد أو طقوس في التهديد ، فالحيوان يتقدم ويتأخر ويدور ويفحنى . وهذه الحركات تبين كيف استعد الحيوان للمعركة ، وهي في نفس الوقت تخفف من حدة الحيوان . . وكثيرا ما انتهت هذه الرغبات العدوانية عند هذا الحد !

وإذا انسحب الحيوان من المعركة بلا قتال أو بقتال ، استعاد جسمه نشاطه العادى . . فريته يجرى وبوله أيضا !

والقبول عند الحيوان له دلالة خاصة عند الثدييات : فالقبول دليل على أن هذه المنطقة التي يقبول فيها خاصة به . فهو يترك أثره فيها . والكلاب عندما ترفع رجلها عند أحد أعمدة النور ، فهذا هو المعنى . وإذا كانت الكلاب تفعل ذلك بإشراف في المدن ، فلأن في المدن عددا كبيرا من الكلاب . وهذا يثيرها ويدفعها الى أن يحدد كل كلب مكانه وأرضه ! وقد اكتسب السيد قسطة عادة أخرى : فله فيل مريض ، وهذا الفيل يتحرك بسرعة يمينا وشمالا ينثر مخلطاته على أوسع نطاق ممكن . وبذلك يحدد الأرض التي تخصه . وبعض الحيوانات لها غدد تفرز رائحة كريهة . هذه الروائح هي انذار لكل الحيوانات الأخرى . هذه أرض تخص حيوانا آخر . . فاحترس !

وقد اتخذ التهديد شكلا صوتيا آخر عند بعض الحيوانات : النباح والمواء والفحيح والزئير . . وأحيانا الانتفاخ : عند الطيور فلها أكياس هوائية تجعل حجمها أكبر وشكلها مخيفا !

وهناك اشارات للتفاهم بين الحيوانات : فعندما يقف الشعر
بدرك الحيوان الآخر ان هناك خطرا .

ولذلك فالدب له عرف والاسد له معرمة تجعل الرأس أكبر .
وكذلك العرق عند الحيوانات تكون له رائحة خاصة تؤكد النزعة
العدوانية ..

كل هذا يحدث للحيوانات داخليا أما التغيرات الظاهرة فهي
ان عضلات الحيوانات تكون في غاية القوة والمرونة فالحيوان يروح
ويجىء ويدور وبعض الحيوانات لها طقوس في الرقص .

رقصة القتال . أو رقصة الحرب .

فالحيوان يدور حول الحيوان الآخر . وحول نفسه . وهذا
الدوران معناه ان هناك توازنا بين رغبته في العدوان وبين رغبته
في الامتناع عن ذلك .. وخصوصا عندما يلوى جسمه ويحنى
رأسه وينق الأرض بتقديمه ا

وأحيانا نرى نوما من التراجع أو المراجعة . ولذلك يقوم
الحيوان بحركات غريبة لا علاقة لها بالعدوان كأن الحيوان تسد
وضبع « غله في شيء آخر » فيأكل مثلا أو يهرش في جسمه .. أو
يلظف فروته أو يجمع الأعشاب أو الأخشاب كأنه يبني عشيا وهيبا .
وبعض الحيوانات تنام فجأة .. أو تتأهب وتتهدد .

بعض العلماء يقول : ان الحيوان اذا أكل فهو جائع حتما .
اذا هرس فان حشرة تلسمه . ومن الطبيعي أن يجوع الحيوان
عندما تنبذ طاقته الهائلة في حالة اللعب أو العدوان ا

ولكن هذه الحركات التي ياتيها الحيوان ليست الا محاولة

لتخفيف درجة التوتر . أو ليست الا نوما من الانسحاب . وقد ينتهى الموقف هكذا . وينصرف كل حيوان الى سبيله .. ولكن اذا فشلت هذه الحركات فى تهدئة الحيوانات كان تكون قطعانا كبيرة . وكان يكون هناك زحام على الأرض والطعام والسيادة استخدمت الحيوانات أنيابها وأظفارها وقرونها .. وذيلها يكون كالكراباج .

ولكن من النادر أن يقتل الحيوان حيوانا آخر . ومن النادر أن يفعل حيوان ما يفعله مع فريسته . فالأسد اذا التقى بأسد فانه يضربه ويجرحه ولا يقتله ولا يكله .. أى أن الأسد لا يقتل الأسد كما يفعل بفريسته من الغزلان .. فاذا انتصر الأسد القوى على الأسد الضعيف اكتفى بهذا النصر . وتركه . لما المنهزم فعليه أن يؤكد أنه انهزم ! وعليه أن يهرب اذا استطاع .

وهناك لغة للتفاهم بين الحيوانات : من بينها أن ينكمش المهزوم وأن ينام على الأرض ويحشى رأسه ويخفض عينيه ولا يزار .. وأحيانا نجد الحيوان المنهزم يعرض جسمه للحيوان المنتصر . كأن يقدم له احدى يديه .. وقد ينتفض الحيوان المنتصر ليمض يد خصمه . أو يضربها . أو يكتفى بهذا الاستسلام .

وبين القروء نجد الشمبانزى يمد يده كأنه يتسول .. وخصوصا الإناث ، والإناث تعطى نفسها للذكر . وفى هذه الحالة يتم الاستسلام والسلام وينجسم الموقف والفكور الضعفاء تفعل ذلك أيضا !

وهذا هو قانون الغاية : الحيوان يهزم الحيوان ولا يقتله . واذا استسلم له تركه . وانتهى الخلاف ..

وكل هذه التغيرات الداخلية تحدث للاتصال . مع مارق أن كل

هذه الاضطرابات تبعو على وجهه . وهذه مزايا القرد العريان —
أى .. الانسان .

فوجهه يصفر ويحمر .. من الغضب ومن الشَّجَل . أما شعر
الانسان فلا يقف .. رغم اننا نستخدم هذا التعبير !

وعند الغضب تتحنى الذراع وتجتمع اصابع اليد على شكل
قبضة وهذا استعداد من بعيد . او تهديد من بعيد . وأحيانا
نضرب المنضدة أو الحائط أو نضرب رموسنا . ولكن ما نزال على
مسافة من الخصم .

وكثيرا ما توجه هذا الغضب الى الشخص الذى جاء يخلصنا .
ولذلك نقول : ما ينوب المخلص الا تقطيع هدومه .. والسيدة
التي تكسر الأطباق في حالة غضب مع زوجها ، لم تقصد تحطيم
هذه الأنية وإنما هي تقصد أن تحطم رأس زوجها ! وهذا بالضبط
ما تفعله القردة فهي في حالة الغضب تحطم الأضراس والثمار
وجدران القفص !

والسلام باليد هو نوع من الاستسلام . فالذى كان في نيته أن
يضرب بيده يجسدها مغرودة . واصابعه متراخية . وهي عملية
تحويل الغضب الى تهدئة .. وهدوء . وكذلك « الطبطبة » على
الكتف تهدئة أيضا . وخلع البرنيطة عند السلام تشبه الديك عندما
يخفض « عنقه » والأسد عندما يخفض شسعر رأسه .. وخلع
البرنيطة مع انحناء الرأس يجعل جسم الانسان أقل طولا ، وأقل
صلابة .. على خلاف ما يحدث عند العدوان أو القتل . وعند
العدوان نبثق في الخصم . فإذا أغضضنا العين أو نظرنا الى الأرض
كنا بذلك نهديء أنفسنا أو نعلن أن الحالة لم تعد في حاجة الى
الصلابة والترقب . ونحن في حديثنا العادى لا ننظر الى الذين

نتحدث اليهم طوال الوقت ، وانما نقط في نهاية كل جملة لنعرف
وقع الكلام ..

وكذلك وضع النظارة السوداء على العينين يجعلنا نبدو
متربصين أو عدوانيين . ولذلك نالذى ينظر الينا من وراء منظار
يجعلنا نشعر بأنه ليس وديا .. فالنظارة عبارة عن عينين مفتوحتين
بلا أجنان ولا رموش !

وقد اكتسبت بعض الحشرات مثل هذه النظارات .. أو مثل
هذه العيون نجد أن العيون مرسومة على أجنحة الحشرات . فإذا
أحسبت خطرا نشرت أجنحتها فظهرت هذه العيون لامعة باهرة
رهيبة تخيف أعداءها !

وبعض الأسماك لها أيضا هذه العيون وكذلك الطيور . ونحن
نستخدم الأقنعة ذات العيون . وبعض شركات السيارات تجعل
المصابيح الأمامية ذات أشكال مخيفة . وهذا ضرورى فى الزحام
فى المدن .

بل إن الشركات لم تكف بهذه « العيون المخيفة » وانما جعلت
للسيارات أسماء مخيفة أيضا !

ولذلك فالسلام باليد هو اعلان وقف إطلاق النار من العينين
وتجبر القبلات بعد السلام .. كما نفعل مع رجال الدين أو الآباء .
أما تقبيل يد السيدات فله معنى آخر : فالرغبة العدوانية الجنسية
قد تحولت الى مجرد لمس اليد باليد وبالشففتين — أى الحد الأدنى
من تحقيق رغباتنا الخفية !

ومن الغريب أن الأحاديث بين الرجل والمرأة تتخذ شكلا
« طفوليا » .. فيحول الرجل الى طفل .. أو يقول كلاما مثل
كلام الأطفال فيكون ضعيفا بطيئا مثيرا للشفقة . أى أنه يحصل

نزعته العدوانية الى نزعات استسلامية أو سلامية .. ويتحول الرجل والمرأة الى أسلوب الحمام . فيشرب الواحد من كوب الآخر .. أو يمسك الواحد بمنقار الآخر : وهذا نوع من التقبيل ! والمثل الذى يقول : لولا سلامك سبق كلامك لأكلت لحمك قبل عظامك مثل سليم وصحيح .

أما « الطبطبة » فلها معنى آخر : نحن نجد عند القرود أن القرد الذى انهزم أو استسلم يقترب من القرد الآخر « ويفليه » .. وهذه « التلية » تهدى أعصابه . وكذلك الطبطبة هى نوع من الاقتراب البرى .. وقبول لهذا الاقتراب . فلا خوف ولا عدوان !

وفى مواجهة العدوان أو الغضب نقوم نحن بأعمال أخرى لا علاقة لها مطلقا بالعدوان . مثلا نشعل سيجارة . أو نمسح النظارة . أو نلعب فى شواربنا أو ننظر الى الساعة أو نحرك عقاربها . أو نرتب الأوراق التى أمامنا أو ننظر من النافذة . أو نطلب أى رقم فى التليفون . أو نقضم أظفارنا بأسناننا أو نططق أصابعنا ..

ونحن قادرون على الكذب بعلامتنا ولكن لا نقدر على الكذب بانفعالاتنا أو بهذا النشاط الفسيولوجى فى داخل الجسم . وهناك أناس كذابون محترفون : الممثلون . فهم قادرون على الكذب بالملامح وعلى توجيه نشاط الجسم وجهة أخرى لا نقدر نحن عليها فى ظروفنا العادية .

والإنسان لأنه يحرص على أن تكون له أرض خاصة وبيت خاص وزوجة خاصة . وأن يكون خاصا فى كل مكان يشغله ، نجده يضع صورة أولاده على مكتبه أو صورة زوجته . وكذلك يحرص على أن يضع فى سيارته نوما من العرائس أو الزينات لكى يجعل سيارته مختلفة عن السيارات الأخرى .. ملايين السيارات الأخرى التى

تشبهها . وكذلك السائق الذى يضع عبارات على سيارته من الخلف ومن الجوانب . انه يريد أن يجعلها مختلفة عن السيارات الأخرى .. وإذا سألته لماذا ؟ قال لك : انها هكذا اللطيف وأجمل .

ولكن هذا الجواب ليس صحيحا . وانما الصحيح انه يريد أن يجعلها مختلفة . يريد أن يجعلها خاصة به .. ومن الضروري أن نتذكر هنا ما تفعله الكلاب على أعمدة النور . نفس الموقف وإن كان الأسلوب مختلفا فكلاهما — كالنا نحن والكلاب — يريد أن يؤكد انه هنا .. وإن هذا المكان خاص به وحده . وانه مضطر أن يفعل ذلك في مواجهة الزحام الشديد بين الناس والكلاب !

وهناك تصرفات يومية بسيطة ولكن معناها أبعد مما نتصور .. مثلا عندما نكسر إشارة المرور . ويدركنا مسكرى المرور . فما الذى نفعله ؟ الأفضل أن نتحدث الى مسكرى المرور وأنت فى سيارتك . أى فى مكانك . فى أرضك . فى بيتك . هذا يعطيك شيئا من الطمأنينة . وفى هذه الحالة يحسن أن تجعل أسلوبك متوسطا لطيفا . سوف يجرى العسكرى اليك .. أى الى حدود مملكتك .. وهو مضطر أن يحول هذا الاقتراب العدوانى الى اقتراب ودى . وبذلك تكون أنت وديا وهو أيضا . ولذلك يمكن تسوية الموقف لصالحك . ولكن اذا نزلت من سيارتك ، أى تركت أرضك . وذهبت الى أرضه . فالموقف فى يده . وهو سيده .. والنتيجة ضديك عادة !

وقد تطورت وسائل الاقتراب من ارض أعدائنا .. ومن أعدائنا فكان لا بد أن يقترب الإنسان من عدوه جدا ليشتبك معه ثم اخترع السهام والنبال ، فاصبح فى الامكان قتله عن بعد .. والآن تحولت اسهام الى صواريخ وقنابل وفى هذه الحالة نحن لانصيب العدو وانما نقله .. اما الحيوانات فهي تهزم عدوها فقط ..

رقم الإيداع ١٧٩٣ / ١٩٨٩
الترقيم الدول ٣ - ٣٠١ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة ٨ شارع سيوفه المصري - ب ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت عين ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس ٨١٧٧٦٥ (٠١)

غناير كولمبوس !
ملك العالم الجديد !

وراء جنتيغاه
سبع مليون حصان !

عاجته و تعالينا !
فهم الحيوانات !

هو يسقط
الوقت بطل !

الكلية تجلب الفضة
الكلية تجلب الفضة !

القد والسلسلة !
والقد والسلسلة !

من فوج الامم
صوتهم يرفع في الفضاء !

قرو في كل مكان !

تجرب التطور !
للتقارير الحيوانية !

كل حيوان
عوضه كما يحل في الظاهر !

لنحارب ضد الناس والحيات !
نظريه !

كل صبي
لا خرافات خاصة !

لقد فهمنا اننا
انما نعلم النقص !

من يعرف الانسان
ما هو الانسان !

نقول كل ارض !
نقول كل ارض !

لولا
سكان !

خلقنا الله وحده !
لننفضع علينا باثقان !

هذه الكلمات العاجية
لن عظمت الجيوش !

لوان الارض قليل
لنذكر لنا السحابة !

عندما اظن موسيقي
صوت البطار ضد النظم !

شجرة وامر تكفي
منها وانك تعرف !

To: www.al-mostafa.com